الله غالب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على سيدنا محمد

كتاب :

عبد الرحمن الداخل صقر قريش أو أمير بنِي أمية

أنطوني فون آيزون

ترجمة

نزهة عبد الرحمن الكتاني

https://www.facebook.com/profile.php?id=100002064633268

اللّه غالب

سلسلة الإسلام في الأندلس وأوروبا (1)

عبد الرحمن الداخل

صقر قريش

"أو أمير أمية"

أنطوني فون آيزن

ترجمة

نزهة عبد الرحمن الكتاني



اللہ غالب

الله غالب

سلسلة

الإسلام في الأندلس وأوروبا (1)

عبدالرحمن الداخل
صقر قريش
«أو أمير أمية»

أنطوني فون آيزن

ترجمة

نزهة عبدالرحمن الكتاني



اللّٰہ غالب

بسم اللہ الرحمن الرحیم

إهــداء:

إلى روح والدي العلامة الداعية سيدي عبدالرحمن الكتاني عليه رحمات الله ورضوانه.

إلى إخواني شباب الأندلس، بمناسبة عودتهم إلى دين الإسلام الحنيف كرمز للثبات على الحق والمثابرة والرجوع إلى الله.

وكبرهان حي على أن الشعلة التي حملها صقر قريش، لا زالت مشتعلة، وستبقى بإذن الله مدى الدهر.

أبطال القصة

- عبدالرحمن بن معاوية بن هشام، عبدالرحمن الداخل، صقر قريش: مؤسس الدولة الأموية في الأندلس.

- زين بن نصير : صديق عبد الرحمن
- علي : خادم عبد الرحمن
- أبوالعباس السفاح: مؤسس الدولة العباسية
- السفانة : فرس عبد الرحمن
- عائشة : زوجة علي ومربية عبد الرحمن
- زامل بن علي : شيخ من بني زنقل
- الحوراء : بنت شيخ قبيلة عربية وزوجة عبد الرحمن
- سوقي : كلب الحوراء
- غول : كلب الحوراء
- راشد بن طراد : أبو الحوراء وشيخ قبيلة عربية في وادي السرحان
- زيد : حفيد الشيخ راشد
- روض: شيخ قبيلة بني زنقل الغجرية
- زين : فتاة من بني زنقل
- هشام : عجوز من بني زنقل
- أدهم : جواد من جياد بني زنقل
- حسن : قاطع طريق
- جن : جواد حسن
- بدر : شخص من بني زنقل
- محمد علي : تاجر عربي
- طريف : محارب مغربي
- أرقم : جواد طريف
- شوامة : جارية حبشية
- ابن حبيب : والي أبي العباس في افريقية
- الأمير الحر : والي الأندلس
- الكومس يوليان: حاكم سبتة النصراني قبل فتح الإسلام لها
- الأربوت : ابن الكومس يوليان
- يوسع : عراف الأمير الحر
- يوسف : ابن طريف

- مزاب :	عجوز يرعى أغنام طريف
- طاهر :	ابن شيخ جبل ودان
- شيخ :	شيخ قبائل زناتة
- راح:	أم عبد الرحمن الداخل
- خالد :	رجل من زناتة أنقذ عبد الرحمن
- السميل :	تاجر عربي .
- عبدالملك :	مبعوث من الأندلس
- موسى بن الخازن:	مبعوث من الأندلس
- حامد :	قائد زناتي
- عبدالمولى :	قائد حامية مالقة
- يوسف الفهري :	والي أبي العباس على الأندلس
- قاسم :	ابن يوسف الفهري
- هشام :	قائد إشبيلي
- قاصد :	فدائي زناتي

اللّٰہ غالب

مقدمة المترجمة

أما بعد، فحمداً لله تعالى أن أنعم على المسلمين بنعمة الإسلام، وبعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم خير الأنام، وأكرمهم بالمجاهدين الغزاة الذين هم للدين حُماة. إن التاريخ الإسلامي مليء بالشخصيات العظيمة التي هيأها الله سبحانه وتعالى لخدمة الدين وإن الكتب الإسلامية لتزخرُ بالأمثلة الكثيرة من هؤلاء في كل الحقب والأزمان.

قبل بضع سنين وقع في يدي كتاب بالإنجليزية تحت عنوان «أميرُ أُميّة» للكاتب الأمريكي «أنطوني فون آيزن»، أعجبت بالكتاب وبدأت قراءته وكان يتحدث عن قصة عبدالرحمن الداخل الأموي أو «صقر قريش» كما سمّاه الخليفة العباسي أبوجعفر المنصور.

أول ما لفت نظري في الصفحة الأولى من الكتاب إهداء المؤلف إذ يقول: «أهدي هذا الكتاب إلى إبني ميكائيل وديفيد، جعلهما الله دائماً يسيران في طريق الله كما سار عبدالرحمن أمير أمية».

تابعتُ قراءة القصة من ألفها إلى يائها، فشعرت بالروح الطيّبة والإخلاص والصدق في نقل الأحداث، وخلوّها من التشويه والدس والتهكم الذي نألفه عادة في معظم كتابات الغربيين عن الإسلام وعن كل ما له صلة به عقيدةً وتاريخاً وشخصيات.

أُعجبتُ بالقصة كثيراً، فقرأتها مرة ثانية، وتمنيت لو كانت مكتوبة باللغة العربية حتى يستطيع قراءتها النشىء العربي. وهنا خطرت ببالي فكرة ترجمتها إلى اللغة العربية، بالرغم من أن معرفتي بالإنجليزية قد لا تساعدني على الترجمة الجيدة الصحيحة.

ظلت هذه الفكرة تسيطر عليَّ مدة من الزمن، وأخيراً قررت، وبمساعدة زوجي الدكتور علي المنتصر الكتاني، البدء في ترجمتها مستعينة بالله.

وهكذا أقدمت على ترجمة هذه الرواية التاريخية لشخصية إسلامية هامة، بوقائعها وأحداثها لشعوري أن مثل هذه القصة جدير بأن يُقرأ.

من هو أمير أمية؟

إنه عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي، اشتهر بالداخل لأنه أول من دخل من بني أمية أرض الأندلس.

فبعد انهيار دولة الأمويين في الشام، وقيام دولة بني العباس في بغداد على يد أبي العباس السفاح، بدأ العباسيون حملة إبادة بالقتل وسفك الدماء بغية إفناء الأمويين، لكن عبدالرحمن أفلت من قبضة السفاح وهو ابن خمس وعشرين سنة رغم مطاردة أنصار

السفاح له، إذ رمى بنفسه إلى نهر الفرات فعبره سباحة إلى الضفة الأخرى. ولّما أمِنَ على نفسه من المطاردة، إتجه نحو المغرب. وتقول بعض الروايات إنه كان مقصده منذ اللحظات الأولى التي شاهد فيها إنهيار دولة بني أمية.

وأثناء إختراقه لفلسطين ومصر، لحق به مَوْلياهُ «بدر وسالم». ثم جاز عبدالرحمن إلى «بُرقة» والتجأ إلى أخواله «بني نفزة» أكبر قبائل الأمازيغ «البربر».

وكانت أمه من بني نفزة تدعى «راح»، فأقام عند أخواله يرقب الفرص وخواطر الاستيلاء على إفريقيا لا تفارقه.

وكان عبدالرحمن بن حبيب الفُهري والياً على الأندلس، وقاعدته إشبيلية، يقبضُ بيدٍ من حديد، ويدعو لدولة بني العباس.

ولّما ظهر عبدالرحمن بن معاوية الأموي في إفريقيا سعى عبدالرحمن بن حبيب للقضاء عليه، لكنه فرَّ إلى المغرب الأقصى عند قوم من قبيلة زناتة الأمازيغية على شاطىء البحر، ثم لحق بمليلية، ثم بشاطىء الأندلس على طريق ميناء المنكب.

وهناك بالأندلس استطاع عبدالرحمن ان يُعيد دولة بني أمية من جديد، فجمع عليه القبائل من أمازيغ، وعرب يمنية ومضرية، ووحَّد البلاد وأقام دولة بقيت حديث الزمان.

إن قصة أمير أمية مثال للشهامة والعزيمة والصبر على الشدائد والثبات على الحق. ولا نعرف في تاريخ الإسلام إلا قصة عبدالرحمن الداخل وإدريس الأول اللذان فرّا من الاضطهاد والظلم إلى بلاد الغربة، فوجدا فيها النصير والمؤيد.

ولا شك أن شخصية عبدالرحمن الفذّة هي التي كيّفت الأندلس، وأبقت فيها الإسلام لمدة طويلة، كما كيّفت شخصية إدريس الأول المغرب إلى يومنا هذا.

لقد تصرَّف المؤلف «أنطون فون آيزن» في قصة أمير أمية حيث بنى روايته على تاريخ هذا الرجل العظيم، ولم يدعي كتابة تاريخه أو ترجمة حياته لأن كثيراً من الأشخاص الذين ذكرهم كانوا خياليين، وربما لم يمروا في حياة عبدالرحمن، ذلك ان أسلوب كتابة الرواية والتشويق تطلبا منه أن يتصرف في كتابة التاريخ ليس إلاّ.

وبعد، فما أحوجنا اليوم إلى رجالٍ كعبدالرحمن الداخل في عزمه وقوته ليعيدوا للمسلمين أمجادهم ويرفعوا كرامتهم بين الأمم حتى يعودوا كما كانوا ﴿خير أمةٍ أخرجت للناس﴾ صدق الله العظيم.

نزهة عبدالرحمن الكتاني

المقدمـــة:

حكمت الدولة الأموية العالم الإسلامي زهاء قرن تقريباً وذلك ابتداء من وصولها إلى الحكم سنة ٦٦١م. تنتسب العائلة إلى جدها أمية الذي كان رجل نُبل وشجاعة في مكة قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن كثيراً من ذريته تركت الجزيرة العربية مع موجة الفتح الإسلامي التي عمّت العالم. وكان المعهم وأقدرهم معاوية في الشام. وعندما أخذت هذه العائلة بزمام الحُكم اختارت دمشق عاصمة لها.

حكم من هذه الدولة أربعة عشر خليفة بتسلسل في الزمن وفي العظمة، وكانوا أقوى حكام الأرض في وقتهم. وكانت جيوشهم ذات العلم الأبيض مكتسحة الشرق إلى الهند، والغرب عبر قارة إفريقيا إلى الأندلس في وقت كان لا يظهر أن هناك أي مدّ لانتصاراتهم؛ ومع ذلك، كانت أيامهم في الحكم معدود وكان سقوطهم، مفاجئاً؛ مثلما كان ازدهارهم كبيراً.

هنا ظهرت نهايتهم أيام مروان الثالث آخر خليفة أموي. لم تكن أية قوة في العالم تستطيع أن تزيحه عن عرشه، بل كانت تلك القوة من داخلها. من العائلة المنافسة وهي العائلة العباسية التي تنحدر كذلك من أصل نبيل قبل الرسول وبعده.

كان عَلَمُ العباسيين أسود. والتفّ حولهم أتباع كثيرون من شتى الشعوب التي يتكوّن منها العالم الإسلامي في الشرق الأوسط.

لقد زرعت بذور الثورة بكل مهارة، تلك الثورة التي نشأت عن تنافس قبل ظهور الإسلام. وكان العباسيون مستعدين للإعلان عن أنفسهم. في ذلك الوقت كان من المؤكد أن علم الأمويين الأبيض سوف ينتصر، لأن قوتهم أكبر من قوة أعدائهم، والخليفة مروان كان رجلاً مقتدراً وشجاعاً. لكن الأقدار كانت ضدهم، فهناك سلسلة من المصائب الكبيرة نزلت بقوتهم، وأخيراً استشهد مروان في وسط المعركة. كان انتصار العباسيين كاسحاً، وقامت دولتهم بحكم العالم الإسلامي مدة ٥٠٠ سنة، وأصبح أبوالعباس الخليفة الجديد، فعمل على توطيد قوته بسفك دم الأمويين، وقتل غدراً ثلة من الذين لم يقدر على قتلهم في الحرب، ولما انتهت المعركة أعلن السلام؛ وتظاهر بالعفو على الناجين، فاستدعاهم جميعاً وكان عددهم ثمانون، (٨٠) إلى حفلة كبيرة في دمشق، وعندما اجتمعوا كلهم، أعطى إشارة سريعة إلى السيّافين،

فانهالوا على الضيوف الذين كانوا على المائدة فقتلوهم جميعاً.

وأرسلت الرُّسل للقضاء على البقية الباقية من الناجين. فقد عزم الخليفة الجديد على القضاء على الدولة الأموية وقتل آخر فرد من بني أمية.

لكن، برغم هذا الاضطهاد الغاشم الذي لا يرحم، وهذا القتل الفظيع، فقد نجا أمير واحد، اسمه عبد الرحمن وهو آخر أمويّي الشام. هذه حكايته مثلما كتبها في «المقالات الإسبانية، واشنطون أرفيك» قبل سنين مضت.

حكاية الأربوط القصيرة أخذتها كذلك من واشنطون أرفيك وأريد أن أعترف بهذا الدين لروحه.

هجـرة

... في ظُلمة الليل جاء صديق مُخاطرٌ بحياته إلى عبد الرحمن على فرس سريع وقال: «إن فرسان الخليفة يجوبون الليل بحثاً عنك. إنهض وفرَّ إلى الصحراء ليست لك سلامة بين هؤلاء البشر».

عن مؤرخ أندلسي

أمسكت يدُ النائم وهزته: عبد الرحمن! عبد الرحمن! استيقظ!

استيقظ الشاب النائم على بساط واسع بدهشة، وكان ضوء المشعل يلتهب، ووهجه يكاد يعميه، ويد قاسية تقبض بكتفه كان رجل منحنياً عليه ووجهه ملثم، وفي الحين ذهبت يدُ عبد الرحمن إلى تحت الوسادة ورجع إلى الوراء فوق البساط. «عبد الرحمن، أنا زيد!».

أخذ زيد بمعصم عبد الرحمن بينما ظهر الخنجر العاري يلمع في الجوّ. وأوقف الصوت عبد الرحمن وبيده الخنجر ونظر وراء المشعل الباهر فوجد نفسه أمام وجه زيد بن نصير، صديقه، الذي أخذ يكشف عن رأسه ليظهر نفسه. وكان وراء زيد عليّ خادم عبد الرحمن الأمين ذو اللحية البيضاء وهو يحمل مشعلاً. «ما هذا يا زيد؟»، ولكن في نفس الوقت الذي سأل هذا السؤال كان عبد الرحمن يخفي ما حدث وقلبه يخفق بشدّة. فمنذ فترة طويلة وعبد الرحمن يعيش تحت تهديد هذا الإيقاظ في وسط الليل.

كان صوت زيد الحزين يزيدُ مؤكداً لذلك: «لقد أمر الخليفة بقتلك! وإن فرسانه يتجهون إلى هذه الناحية طُوال الليل».

«من أخبرك؟».

«صديق لي قريب من الخليفة، إلبس بسرعة!».

وأخذ الرداء الذي كان على الأرض ورماه في يد عبد الرحمن.

لبس عبد الرحمن حذاءه، «كنت أتوقع هذا»، قال ذلك وهو يلبس رداءه بكل سرعة.

وأخذ زيد اللباس الفاخر من قرب الملحفة واستعد للذهاب وقال: «إن فرساً مسرجاً في انتظارك، لقد هيّأت كل ما يلزم من أكل وشرب. يجب أن نركب الفرس ونذهب بعيداً وبسرعة قبل أن يصل الفرسان خبرك!».

«أعرف!»، وظهرت ملامح عبد الرحمن في ضوء المشعل، ملامح شاب شاحب اللون لم يتجاوز عمره التاسعة عشرة.

وأعطاه زيد اللباس، كان هو الآخر صغير السن غير أن وجهه أكثر سمرة من وجه عبد

الرحمن، لحيته خفيفة وقال: «أخي عبد الرحمن إلى أين ستذهب؟».

وبكى عبد الرحمن قليلاً وهو متأثر لألم صاحبه، ثم أخذ بيده ذراع زيد وقال: «ثق بالله ثق بالله!».

وهز زيد رأسه وقال: «آمنت بالله. ولكن لم يُؤمن به أبوالعباس، لماذا بقيت هنا!».

أدرك عبد الرحمن خطاه فقد كان عليه أن يفرّ قبل هذا الوقت، ولكن تبين له أن الخطر في الهروب لا يقلُّ عن الخطر في البقاء، ولم يبق له الآن خيار، لقد أظهر أبوالعباس وجهه الحقيقي. ولم يبق وقت للتردد ولا للأمل.

أخذ عبد الرحمن حِزامهُ المحتوي على سيف وخنجر. وكانت اللآلىء والأحجار الكريمة، والذهب المكون لغمد السيف ومقبضه، تتلألأ تحت ضوء المشعل. فتمنطق به وحمل خنجره المقوّس بيده.

وأخذ زيد المشعل من يد عليّ. وقال: أُخرج من الوراء إن الجياد في الاصطبلات «إنتظر!»، وعبر عبد الرحمن الغرفة، وذهب إلى صندوق من خشب الأرز ففتحه وأخرج منه كيسين صغيرين من الجلد.

ولّما رآه زيد اظهر شيئاً تحت لباسه وقال: «معي الذهب، إذهب لا تضيع وقتك!».

وعندما تركا الغرفة كانت أحذيتهما تضرب الأرض الصلبة بأصوات عالية، ثم ذهبا بسرعة عبر ممر تحت الأقواس.

وكانت تظهر على اليمين والشمال رسوم على الجدران تصوّر مظاهر المرح والصيد، عندما يواجهها ضوء الشعلة.

كان ذلك كله في بيت جبلي تسكنه عائلة عبد الرحمن في أيام صباه، ولكن أثاثه كان أثاث قصر.

وعندما خرج الثلاثة من البيت تلثم زيد من جديد ليخفي ملامح وجهه وقال: «الأفضل أن لا يرى وجهي أحد غيرك».

وهز عبد الرحمن رأسه فقد كان يعرف أن الموت هو جزاء كل من يعينه. وخرجوا من الباب الخلفي الذي يؤدي إلى الحدائق، كان القمر في السماء يبعث ضوءاً خفيفاً. والجوّ يعبق برائحة الياسمين، وبجانب الممر أنبوب تسيلُ منه قطراتُ ماء، بصوت موسيقي وهي تنحدر إلى صهريج قريب، فعبر زيد حوض أزهار وغطس مشعله في الماء. فذهب ضوؤه بسرعة ولم يبق إلا نورُ القمر الباهت. وواصلوا طريقهم عبر ممر الحديقة الملتوي بين أحواض الزهور، وتحت أشجار السرو، عندئذ بدأت تفوح رائحة الإصطبل في الجوّ. وما هي إلا لحظات حتى وصلوا إلى الإصطبل، وظهرت هناك صور قاتمة: جياد ورجال تحت المباني المنخفضة، قال زيد: «إن جميع أهل البيت مستيقظون» قال ذلك لعليّ بتعجب وألم، وأجاب عليّ وهو يلهث: «ثق بهم سوف يرون سيدهم لآخر مرة، وأنا وحدي أعرف وجهك. وأنا رجل عجوز مستعد للموت!».

ورحبت بهم الخيل بصهيلها، وحوافرها، وهي تهتزّ على أحر من الجمر، وأخرج سائس الخيل في ضوء القمر فرسين جامحين شديديّ الحركة، وهمس زيد وهو يأخذ بلجام الفرس الأولى، وناصيتها البيضاء تلمع في ضوء القمر، كأنها جوهرة وقال: «يا سفانة هل أنت مشتاقة للجري إلى هذه الدرجة؟».

فصهلت الفرس وأرخت رأسها إلى الوراء ورفصت وهي مستعدة لحمل راكبها. وربت عبد الرحمن بلطفٍ على ظهرها، وقال لزيد: «إلى أين سنذهب الآن؟».

«معك إلى مسافة قصيرة، إركب بسرعة»، ورفصت السفانة بلطف بين يدي سائسها الذي كان يقبض بلجامها وسلّمت نفسها لراكبها.

وجمع أحد الخدم الزّاد في أكياس وأعطاها لعبد الرحمن قائلاً: «إليك مولاي، هنا الأكل والماء، وهنا القوس والنشاب». وقال زيد تحت لثامه موافقاً: «فكرة حسنة القوس والنشاب ناولني إياها الآن».

وبسرعة ربط عبد الرحمن الأكياس على سرجه، وعندما انتهى كان حوالي عشرة من الخدم واقفين بصمت حول فرسه. وعن بُعْد تقف زوجاتُ حراس البيت وأخذ بيده اللجام، ونظر إلى اتجاههن لم يجد شيئاً يقوله، واهتزت السفانة بعصبية تحت زيد، لكن الخدم الواقفين حول الفرس الأخرى لم يتحركوا ولم ينطقوا بشيء. وكان عليٌّ العجوز المنحني، الشخص الوحيد الذي تقدّم إلى سيّده وقال: «خُذْ يا مولاي عبد الرحمن برنوسك لتقي نفسك من حرّ الشمس وبرد الرياح إنّ طريقك سوف تكون طويلة» وعن بُعدْ سمعت امرأة تبكي لهذه العبارة: «إنّ طريقك سوف تكون طويلة».

هذه الفكرة كانت تملأ قلوبهم، فكلهم رجالاً ونساءً قد اشتعلت رؤوسهم شيباً. لقد عاشوا حياتهم إماءاً وعبيداً لعائلة عبد الرحمن، وكانت هذه العائلة تعتني بهم، إذ لم يكونوا يعرفون حياة غيرها. وبالنسبة لهم هذه اللحظة هي نهاية لعالمهم الصغير، وفقدانٍ لرجل تعوّدوا على محبته وخدمته وتعاونوا في التعلق بشخصه، وانحنى عبد الرحمن ليأخذ البرنوس المطوي من يد العجوز المرتعشة، وقال عليٌّ بصوت خافت وعيناه جاحظتان تبدو عليهما أمارات الصدق في وجهه النحيف: «رعاك الله يا مولاي عبد الرحمن»، ثم جمع نفسه وصاح: «جعل الله عواصف الصحراء تُهلِكُ أعداءك».

وأخذ عبد الرحمن يده بين يدي العجوز بقوة وقال: «أستودعكم الله يا عم فأنا سائر تحت مشيئة الله». وخرجت عائشة زوجة عليّ من بين الآخرين وهي تبكي ووقعت على رجليْ عبد الرحمن وهي تصيح: «سيدي عبد الرحمن».

«لا يا عائشة، بل طفلك عبد الرحمن، وليس سيدك»، وخرجت الكلماتُ من فمه كما كانت تخرج في أيام الصبا لأن عائشة العجوز كانت هي مرضعته.

وصاح بها عليّ وهو يحتضنها بين ذراعيه: «أتركيه يذهب يا امرأة!». ونهض عبد الرحمن رافعاً رأسه إلى الخدم وقال: «إنكم أحرار، كلكم أحرار، خذوا ما شئتم من البيت

واذهبوا قبل أن يصل رجال الخليفة إلى هنا، تفرّقوا بسلام، واذهبوا في حفظ الله، وتذكّروا في يوم ما أنكم عرفتم عبد الرحمن».

ورفع لجام الفرس فتفرق الرجال عن طريقه، وضرب جوانب الفرس برجليه فاندفعت إلى الأمام بقوة، وترك زيد السفانة لتلتحق بأختها. وما هي إلا لحظات حتى كانا يعدوان جنباً إلى جنب في الطريق الواسع، المؤدي عبر الجبال إلى الشرق. صاحَبَتْكَ السلامة يا مولاي، صاحَبَتْكَ السلامة يا عبد الرحمن».

كانت هذه أصوات الرجال مختلطة ببكاء النساء تائهة في ضربات حوافر الخيل. سار الفارسان على الطريق القاسية بخفة كخفة الطيور، وهما يطيران في الظلام، كانت الطريق مملوءة بحصيات بيضاء، تسطع في الليل تحتهم كحزام منير يبين لهم الطريق.

وتبعوا هذه الطريق تحت ظلال الجبال على مسافة نصف ميل، ثم اتجهوا إلى الشمال في ذلك الاتجاه، ووراء الشعاب، تقع الطريق الشمالية الطويلة التي تمر بها القوافل للذهاب إلى «القريتين» و«تَدْمُر» وأراضي الشرق. وما وراء دجلة والفرات، حتى فارس والهند. وأوقف عبد الرحمن فرسه على بُعد مائة متر في الطريق، وقال لزيد: «انتظرني هنا، سأرجع إليك».

وقال زيد بتعجب بعد أن أوقف فرسه: «إلى أين؟».

وأشار عبد الرحمن إشارة غير واضحة في الظلام، «وراء ذلك الجبل إلى الجنوب»، «إلى الجنوب»!.

نعم فكرت في ذلك قبل هذا، إنهم سوف يتوقعون أن أذهب إلى الشرق، سوف يلحقونني ويصطادونني هناك، سوف أذهب إلى الجنوب، إلى جزيرة العرب، إلى الصحراء، حيث الإنسان صغير والله كبير، سوف أذهب حيث يعيش البدو الرُّحل، إنهم يقولون بأنه لا يزالُ فيهم كَرَمُ الأيام الماضية، ربما كان بوسعي أن أختبيء عندهم. وتعجب زيدٌ من قرار عبد الرحمن هذا، ولكن لم يُعاكسه فيه، وفي الحقيقة ظهر له أن في الجنوب أمل أكثر من الذهاب إلى الشرق وقال: «اتركني أذهب معك قليلاً». وذهبا في الظلام إلى أن وجد عبد الرحمن موضعاً يعرفه في وادٍ حجريّ يابس من الماء ملتوٍ بين الجبال وتحت أشجار الأرز. وهناك ذهب الفارسان وتبعا الوادي ثم إلتحقا بطريق ضيقة في الجبال إلى أن وصلا إلى القلعة.

كان قد مضى من الليل ثلاثة أرباع، عندما بدأ سيرهما، وقد قرب الليل من نهايته، ووصلا إلى سفح الجبل الذي ترى منه صحاري بادية الشام إلى الشرق، وفي تلك الناحية كان الشفقُ بادياً.

وأوقف زيد السفانة، وقال لصاحبه الذي وقف بجانبه: «أتركك هنا يا عبد الرحمن» وجلسا هنيهة وأوقفا فرسيهما، ثم أخذا ينظران إلى الصحاري الشاسعة وأعشابها المنتشرة تحتهما. ونزل زيد من فوق السفانة، ونزل عبد الرحمن من فوق فرسه. ودار زيد حول

فرسه الهادئة والتفت إلى صديقه الواقف بجانبه قائلاً:

«يا عبد الرحمن لا تؤاخذني إذا لم أذهب معك، وأشاركك هذه المرارة، فقد يسهل على شخص واحد أن يختبيء أكثر مما يسهل على اثنين، ليست لك مصلحة في بقائي معك، وسوف تنزل كارثة بعائلتي، ربما كان بامكاني أن أعينك قليلاً إذا ذهبت، لكن إذا كانت لك حاجة في ذهب أو أي شيء، يمكنني أن أعطيه لك، فرسول سري من عندك، سوف يجد دائماً بيت أبي مفتوحاً».

وقال عبد الرحمن: «أعرف، أعرف، لقد خاطرت بكل شيء الآن بمعونتك لي»، ووقفا صامتين مدة طويلة. كلاهما كان ابن عائلة غنية جداً، فزيد، كان لا يقل إمارة عن عبد الرحمن وبما أنهما كانا يعيشان على أراضي متجاورة، فإنهما كانا صديقين منذ فجر الصبا، مثلما كان أبواهما صديقين. والآن سوف يعود زيد إلى أراضي أبيه وإلى قطيعه. ويذهب عبد الرحمن بعيداً في الصباح الباكر، إن ألم هذا الفراق جعل رأس زيد ينحني بكل أسف. وتنفس الصعداء بكل قوة. وتألم عبد الرحمن لألم صديقه وقال: «لا، في طي كل نقمة نعمة، ربما كانت مشيئة الله أن أتعلم درساً». وأخذ بكتف زيد وهو يقنعه بضرورة هذا السفر. ووقفا هنيهة أخرى بعد ذلك، ثم رفع زيد رأسه فوراً وقال: «لقد طلع الفجر». ثم دار إلى فرس عبد الرحمن، وأخذ يفك أكياس المؤن من فوق السرج، وعبد الرحمن ينظر إليه متعجباً، وبعد دقائق؛ كان زيد قد ربط المؤن على ظهر السفانة. ففهم عبد الرحمن أن زيداً أراد أن يعطيه السفانة. فوضع يده على الأكياس بشكل الرفض وقال: «لا إنها جوهرةُ الخيل، أحسن فرس في الشام، أتريدها أن تبلى وتضيع في متاعب الصحراء؟ إني أعرف مدى حبك لها!». «إذن فهي أحسن هدية يمكنني أن أعطيها إلى صديقي».

واحتج عبد الرحمن بقوة قائلاً: «إن سرعة فرسي تكفيني، فأنا سأبتدىء سفراً طويلاً، أتحبُ أن تيبس عظام السفانة على رمال الصحراء، بينما يمكن استعمال أي فرس آخر؟».

وتوقف زيد عن ربط الأكياس، ورفع رأسه ونظر إلى عبد الرحمن، وفي وجهه الشمم الذي يبدو على شرفاء الشام. وقال: «هب أن الأخبار وصلتني بأن عبد الرحمن قُبض عليه لأن فرسه لم تكن سريعة، في وقت تكون فيه السفانة التي لا يسبقها فرس موجودة في الإصطبل، افترض هذا، فكيف ستكون حالة زيد بن نصير مع نفسه؟».

وعندما قال هذا، تابع ربط الأكياس، ثم جرب قوة الربط وقال: «اركب الآن». فقفز عبد الرحمن على ظهر السفانة.

وأدخل زيد يده تحت لباسه، وأخرج كيساً من الجلد وأعطاه لعبد الرحمن، واحتج عبد الرحمن قائلاً: «إن عندي الذهب والجواهر».

«خذ هذا! خذ هذا! سيرتاح قلبي شيئاً ما، بإعطائك هذه الهدية المتواضعة» ورجع زيد إلى الوراء ونظر نظرة أخيرة وحزينة إلى السفانة، إن له خيلاً كثيرة، ولكن السفانة هي

الجوهرة، هي لؤلؤة إصطبلاته ومعجزة قلبه، هذه الفرس عربية أصيلة، من عِرق أصيل لم تُغلب أبداً في الركض، لا مسافة ولا ساعة، من كل ما رزقه الله كانت السفانة أحسن شيء يمكن أن يعطيه إلى صديقه.

وبسرعة انقلب حزنه إلى ضجر، وظهر بريق عينيه عندما أمعن النظر في الفرس وفي راكبها. وصاح بحماس: «والآن ليتْبع رجال الخليفة عبد الرحمن سوف يطيرون مع رياح الصحراء قبل أن يصلوا إلى السفانة».

وتقدم مفتوح الذراعين ليعانق الفرس وراكبها.

واهتزت السفانة، وخرج صوت من حنجرتها كأنها مضطربة، وأدارت رأسها الأبيض كأنها تريد أن تتصل بسيدها.

وأخذ زيد رأسها بين يديه وقال: «عزيزتي! جوهرتي! لؤلؤتي! أنت الجمال! وسيبقى في قلبي فراغ من أجلك لن يملأ أبداً».

وأخذ يداعب وجه الفرس الناعم، وناصيتها، وزعنفها، وهو يضع وجهه الأمرد على وجه الفرس، وصهلت الفرس بقوة، كأنها فهمت أنها ستفارق سيدها، وفتحت عينيها في الظلام، كأنها تريد أن تتكلم.

نظر إليها زيد يريد أن يفهم كلامها أو كأنها تفهم كل ما سيقوله لها، وقال: «لا، لا! إن سيدك الآن هو عبد الرحمن يجب أن تكوني وفية له وتحمليه بعيداً عن أعداءه، وتعلمي أن تحبيه كما أحببتني، نعم يجب أن تنسيني على مر الأيام!».

كان ذلك المنظر يفتت القلب ألماً، سيد شامي، شاب يتأسى على مفارقة فرسه. وحب فرسه الذي يحبه حباً جماً.

وصاح عبد الرحمن بصوت متقطع: «لا، لا يمكنني أن آخذها».

رفع زيد رأسه واسترجع كبرياءه وقال: «إنني لا أخفي حبي للسفانة ولكن عبد الرحمن أخي».

لم يكن هناك أمل في تغيير رأي زيد فإنه لن يسترجع الفرس.

ثم انحنى عبد الرحمن ليأخذ يد صديقه: «أحمد الله! حمداً كثيراً.. إن روحك الطاهرة لن تفارقني يا أخي، وستكون هذه الهدية التي قدمتها لي ذكرى صداقتك الدائمة، وغنى لقلبي وأنيساً في وحدتي!».

وتقطعت كلماته إلى أن انقطعت حينما قال: «وداعاً».

وتراجع زيد بخفة وقال: «وداعاً يا عبد الرحمن، إنني أريد أن أقول الكثير ولكن ليس للكلام موضع بيننا، إن قلبي يتكلم بدون لسان».

وهز عبد الرحمن لجام الفرس، ونظرت السفانة إلى زيد، لكنها تقدمت مطيعة فوق الطريق الحجرية.

ووقف زيد في سفح الجبل، بينما كان الفجرُ يطلع على مسافات الصحراء وكأنها لهيب

متصاعد، حتى صارت سماء الشرق ناراً متأججة، ناراً من النور ومن الحر. وأخذ ينظر مدة طويلة إلى شكل الفرس، وراكبه وهو يسير فيتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ يعلو ثم ينحدر فوق الهضاب المتعرجة المنحدرة تحته، ثم ركب زيد جواده ورجع في طريقه إلى قمة الجبل الذي وراءه.

لم يكن الفجر موضحاً للمعالم الموجودة في الوادي بعد، ولكنه لاحظ بعيداً على الطريق البيضاء، أشكالاً صغيرة لجماعة من الفرسان يتقدمون بسرعة. وصاح بشراسة، عندما رأى هذا المنظر: «آه!».

ثم أدار فرسه ونزل في اتجاه السفح الآخر للجبل ثم اختفى وراء الصخور، وأخذ يُراقب الفرسان.

كان الفرسان يقتربون بسرعة إلى المكان الذي خرجا فيه عن الطريق، هو وعبد الرحمن، كان لا يدري هل رأوه أم لا، كانت هذه الفكرة ترعد فرائصه.

وقال بصوت خافت: «لعنة الله تنزلُ على رؤوس هؤلاء القتلة الفجرة! ليبعث الله ريح الشرق تبلعهم، ليموتوا وتيبس عظامهم في مجاهل الصحراء!».

وأخذ ينظر، بينما كوكبة الفرسان قد وصلت إلى ملتقى الطريق وتابعت سيرها بدون انقطاع. إنهم لم يروا الآثار التي تركها الهاربان عندما خرجا عن الطريق. كانت هناك آثار أخرى قبلها هي التي خدعتهم.

بعد أميال قليلة، تتصل تلك الطريق بطريق القوافل الكبرى المؤدية إلى تدمر والمشرق. على تلك الطريق القاسية الحجرية، الكثيرة الاستعمال، سوف يكون من المستحيل تمييز اثار الحوافر الضائعة بين ملايين حوافر خيول المسافرين.

وأدار زيد وجهه لينظر إلى الاتجاه الثاني، فتمكن من أن يلاحظ عبد الرحمن وكأنه نقطة صغيرة تزداد صغراً، ثم اختفى نهائياً عن بصره، وراء هضبة بعيدة. وأخيراً امتطى زيد بن نصير صهوة جواده ثانيةً وهو يبتسم. لقد قام بعمله خير قيام.

القلعـة

وأدارت الفرس العربية عنقها، وصهلت باضطراب عندما طلعت على الهضبة، إن الطريق كانت صنحراوية ورملية، لقد أحست الفرس بقرب الماء.

وقال عبد الرحمن وهو يهز اللجام بيده: «مهلاً سفانة، مهلاً! وحينما استجابت الفرس إلى صوته قبل أن تستجيب إلى اللجام، ورجعت قوائمها الأمامية، ذات اللون الأبيض إلى الوراء. وأزال عبد الرحمن ثنّية كوفيته عن وجهه لينظر حوله، فلم يَرَ إلا هضاب الكرك المتناهية.

ووراءه في قعر الوادي، رأى قلعة متهدمة، كانت قبل زمن مضى تحرس صهاريج ماء على طريق الحجاج الكبرى بين دمشق ومكة المكرمة، والقلعة في حالة يرثى لها مهجورة ومتهدمة، لأن طريق الحجاج تغيرت إلى طريق أسهل في غرب هذه القلعة. ولكن كما أحست السفانة أنه لا يزال هناك ماء وحوله نخيلات وراء القلعة. وجال عبد الرحمن ببصره في المنظر الخالي ثم أمر السفانة بالتقدم، وهمهمت الفرس معلنة عن استعدادها ثم نزلت الوادي بعزيمة، مختارة طريقها بين الصخور. فوصل عبد الرحمن إلى قعر الوادي وتوجه إلى القلعة المتهدمة، بينما كانت حوافر السفانة ترمي الغبار على الأرض القاسية.

وفجأة جذب إليه اللجام بقوة وقال للفرس آمراً: «قف!» فوراءه عبرَ الغبار المتصاعد رأى عبد الرحمن حوافر حول القلعة.

وحينها أحست السفانة بفزع، لقد كانا معاً في الطريق طيلة إثني عشر يوماً، وشعرت أن راكبها يحاول الابتعاد عن الناس.

ودارت الفرس حول نفسها وهي تنظر إلى فوّهات متفتحة من الخرائب الحجرية، وتهتزُ بقوائمها الأربعة بكل إنفعال، فقبلُ هذا بقليل كانت الفرس متعطشة للوصول إلى الماء، ولكنها الآن مستعدة للهرب إذا اضطر صاحبها إلى ذلك.

وكلّمها عبد الرحمن بصوت خافتٌ: «تمهلي». بينما هو يديرُ نظراته حوله ليرى هل هناك شيء مريب، لم يكنْ من المعقول أن يكون هناك أحد في هذه المجاهل يريده شخصياً بشر، ولكن هناك دائماً خارجون عن القانون وقطاع الطرق، ومعتدون في الأراضي الخالية المجاورة، لطريق الحج، فإذا وقع بأيديهم لا شك أنهم سوف يجردونه مما عنده، ويتركونه عارياً.

ورغم ذلك عندما اقتربت السفانة من القلعة ظهرت خالية، ولكن عبد الرحمن انتبه أن هناك نوعين من آثار الحوافر: نوع يُظهر أن هناك جماعة صغيرة من الفرسان أتوا من الشرق الغربي، والنوع الثاني يُظهر اتجاههم إلى الجنوب، لقد أتوا وذهبوا قبل أن يصل إلى هناك،

تاركين الصخور المتهدمة إلى الأرانب البرية وثعالبُ الصحراء التي تصطادها.

وأدار عبد الرحمن السفانة، بعيداً حول القلعة إلى ناحية الحائط الذي يُحيطُ بها، وعندما اقتنع بأنها خالية، دخل على فرسه من باب الحائط الضيق، كان بحاجة إلى الماء. فمنذ ستُ ساعات تقاسم هو وفرسه ما تبقى في جرته من ماء وداخل الحائط نبتت بقع من الحشائش البرية، وبعض الزهيرات، وفي الوسط نبتت خمس نخلات تحمل التمر.

وانفتح مدخل خزان الماء وسط تلك النخيلات، وصهلت السفانة بشوقٍ من جديد. ونزل عبد الرحمن من على فرسه واقترب من طريق الخزان، كانت الأحجار الدائرة حوله متهدمة ومتساقطة في وسطه، لكن بعمق حوالي ثمانية أقدام، وفي وسط الأحجار وجد الماء. كانت السماء زرقاء وصور النخيل الماثلة تنعكس على صفحة الماء النقية، كما انعكست ناصية السفانة البيضاء على الماء، فتبخرت بلطفٍ قرب أذن سيدها تُعلن أنها عطشى.

«بعد هنيهة»، داعب عبد الرحمن وجه الفرس بينما استدار ليأخذ القِرَب من السرج. ثم خلع عباءته وكوفيته وحذاءه، ونزل إلى الحفرة بالقِرَب. وكانت السفانة تنظر إليه من فوق بتلهف مظهرةً اهتمامها وموافقتها. وفتح القِرَب وجلس القرفصاء على الأحجار المتبعثرة ليملأها. فدخل الماء إلى القرب الجلدية بخرير لطيف.

ولما انتهى من ملء إحدى القرب أخذت السفانة تصهل بقوة. فرفع رأسه ليرى الفرس تهز رأسها، وتدير عينيها إلى ناحية القلعة، وجسمها يضطرب بانزعاج.

اعترى عبد الرحمن قلق، لا شك أن الفرس رأت شيئاً غريباً، وهو لا طاقة له الآن في هذه الحفرة، فرمى بالقرب خارج الخزان وزحف إلى فوق.

وكان اللجام الطويل قد انزلق من على رأس السفانة، وتدلى خارجٍ مدخل الخزان، فتعلق به. «إلى فوق السفانة» وبينما هو يتعلق باللجام من حفرة الماء ظلّت الفرس ثابتة، وهي لا زالت تدير عينيها إلى اتجاه الخطر.

وفي أول نظرة لم يرً عبد الرحمن أي شيء مزعج داخل الحائط. لكن دون أن ينتظر رؤية الخطر، وقفز بدون لباس على ظهر الفرس، وأخذ سيفه المُعلق على السرج. «تمهلي، تمهلي!» وجمعت الفرس كل قوتها كأنها فوق نار، مستعدة للقفز إلى أي اتجاه بإشعار منه. كانت ترتعد بينما عيون عبد الرحمن تجول كالسهام حول أبواب القلعة ونوافذها الفارغة.

وفوراً وقع بصره على خيال وراء الباب. وفي أول وهلة، ظنً أن ذلك حيوان، ذئب أو ضبع، أو أي حيوان على أربعة أرجل. فأخذ قوسه.

وإذا بصوتٍ متكسر يقول: «إرحم، بالله إرحم!».

فاكتشف أن ذلك الخيال إنسان.

وأخذ عبد الرحمن سهماً وجعله في قوسه مستعداً للرمي، بينما أطل داخل المبنى. وارجع الفرس حوالي ست خطوات باتجاه باب القلعة، بحركات من ركبتيه، وضربات

صغيرة بيديه على ظهرها.

وصاح الصوت الضعيف من الداخل: «بالله أنا تحت رحمتك».

وأمكنه أن يرى في ظلام المبنى، جسد رجل مسكين ضعيف، عيونه البيضاء تلمع وسط وجه ملتحي. كان الرجل يمشي على يديه وركبتيه، كأنه حيوان.

ومد يده الضعيفة قائلاً: «إرحم، إرحم».

واهتزت السفانة بانزعاج، بينما كان عبد الرحمن ينظر إلى هذا الشكل الخيالي تحته، ثم صاح «من معك هناك؟».

وأجاب الرجل كأن به ألماً شديداً، أو كأنه همس ضعيف: «لا أحد، لا أحد». وأرجع عبد الرحمن القوس إلى صندوقه، وأخرج سيفه من غمده، ونزل من فوق السفانة.

«أرجو رحمتك، أنا تحت حمايتك!» وبينما الرجل يتكلم ضم يده الضعيفة إلى صدره مرعوباً من منظر السيف العاري، وتراجع مستصغراً فوق الأرض.

لقد استل عبد الرحمن سيفه احتياطاً حتى لا يكون ضحية خدعة، فدخل من باب القلعة بتحفظ، وهو ينظر في الظلام إلى اليمين، وإلى اليسار، وكانت الغرفة فارغة في كل اتجاهاتها. وعندما رأى الرجل فوق الأرض تأكد أنه ليست هناك خديعة. «إرحم! إرحم رجلاً لم يبق به إلا رمق ضعيف في الحياة!».

كان في الصوت لجة وتقطع وجهد، وكانت عيون الرجل مفتوحة في الفراغ. واستدار بضعف محاولاً أن يجمع يديه ورجليه لينهض، لكنه لم ينجح في محاولته، كما أراد أن يقوم ويلمس عبد الرحمن، وذلك في عرف البادية علامة على أنه يجعل نفسه تحت حمايته، لا شك أن هذا الرجل من البادية.

وتقدم عبد الرحمن، فلاحظ أن على وجهه ورأسه دماً يابساً. لم يراه من قبل في ضوء الغرفة الخافت.

«السلام عليك ورحمة الله، تعال يا عم».

وانحنى عبد الرحمن ومسَّ يد الرجل الضعيفة المرفوعة إليه. وقال له: «استرح لحظة ولا تخف سأذهب لآتي بالماء».

وخرج عبد الرحمن، وكانت السفانة تنتظره على الباب، وبينما هو يمرُّ داعبها فوق أنفها وهمس لها بكلمات لطيفة في أذنيها، فاستدارت وتابعته بنظرتها، وذهب ليأخذ قرابه المملوءة بالماء ويلبس ملابسه وحذاءه. ثم تبعته إلى باب القلعة وهي غير مرتاحة.

وشرب الرجل الجريح الماء بتلهف ومشقة. وصبَّ عبد الرحمن شيئاً منه على يده، وبدأ يغسل لحية الرجل البيضاء من دمها اليابس. كان هناك جرح في رأسه وعدة ضربات فوق جسمه النحيف العاري.

لا شك أن السفانة شمت رائحة الدم، لأنها أخذت تنظرُ من خارج الباب وتهزُّ رأسها وتصهل، ولكنها لم تتحرك من موضعها.

وبينما كان عبد الرحمن يغسلُ الدم، سأل الرجل بلطف: «ماذا جرى لك يا عم؟».
واهتز صوت الرجل كأنه صياح مملوء بالألم وأخذ يحكي قصته:
«اللصوص الخارجون عن شريعة الله والعباد هجموا عليّ أنا الرجل العجوز، الذي كنت ذاهباً في طريقي إلى أهلي، وأخذوا كل ما كان عندي: جملي الذي كنت أمتطيه، وكل مالي حتى الملابس التي كانت على جسدي».
ومسح بيده، ذراعيه وصدره العاريين كأنه يشتكي: «ولما اشتكيت بهم إلى الله ضربوني وتركوني هنا لأموت».
وتكلم عبد الرحمن بلطف، محاولاً أن يأخذ بخاطر النفس المسكينة بيديه وبصوته قائلاً: «لا تزعج نفسك يا عم، لي لباس أسترك به».
واستلقى العجوز وهو يتنفس بصعوبة، وينظر بعيون باهتة مفتوحة إلى وجه الشاب اللطيف.
ثم قام عبد الرحمن وخرج ليأخذ برنوسه من وراء السرج وكوفيته من حيث تركها. ثم رجع وفتح البرنوس وأخذ الرجل العجوز ولفه فيه، ثم بل الكوفية وربط بها جرحه.
وقال الجريح بصوت خافت: «الله يرضى عليك!». ثم تابع بكلام أكثر خفوتاً... كأنه مطرُ الربيع. وأغمض عينيه متمتعاً ببرودة الكوفية على رأسه المحموم.
ونظر إليه عبد الرحمن لحظات ثم قال له: «خذ راحتك، يجب عليّ الآن أن أعتني بفرسي». ثم قام وخرج إلى حيث كانت تنتظره السفانة، فأزال عن ظهرها السرج ووضعه مع مؤونته وأسلحته وراء حائط القلعة.
وارتعش جسم السفانة كله عندما شعرت أنها خفيفة بدون سرج.
وتبعت عبد الرحمن إلى الخزان. لم تكن ذاقت الماء بعد.
داخل الخزان كانت قربتان لا زالتا ملقاتين فوق الأحجار، فنزل عبد الرحمن وملأهما.
وقال للسفانة: «إشربي أيتها الجميلة - إشربي». وهو يداعب وجهها مداعبات أصبح معتاداً عليها، وغطست فمها في الماء، وأخذت تشرب بينما تطايرت قطرات الماء. فأخذ عبد الرحمن قربة أخرى وشرب هو كذلك. وعندما ارتوى صب الباقي في قربة الفرس. ثم نزل إلى الخزان مرة ثانية وملأ القربة.
كانت السفانة ترعى الحشائش القليلة داخل الحائط عند خروج عبد الرحمن من الخزان، فمر بها... ثم أخذ القرب داخل القلعة.
هنالك كان العجوز ممدوداً بهدوء، لم يكن يتحرك فيه شيء إلا عيناه وهما تنظران إلى وجه الشاب الطويل ذي العينين اللطيفتين.

رجل الصحراء

وسأله الرجل بغتةً: «هل ذهبوا، هل ذهب الأشرار؟».

وأشار عبد الرحمن برأسه قائلاً: «إن الهضاب خالية وليس بها إلا قطعان الغزلان».

فأجاب العجوز: «خذ حذرك، ربما يرجعوا ويفعلوا بك ما فعلوا بي!» كانت عيونه مفتوحة، ونظره غير طبيعي. فانحنى عبد الرحمن ووضع يده على تجاعيد جبهته فوجدها حامية. «إن بالعجوز حُمّى».

وقدّم إليه القربة مرة ثانية وقال له: «إشرب» فشرب الرجل عدة جُرعات ثم قال شاكراً: «إن هذا طيب لحلق ساخن».

فقال له عبد الرحمن: استرح، سأذهب لأجمع الحطب وأشعل به ناراً». ثم خرج.

كان الجوُ بارداً، وسيكون الليل أكثر برودةً، وسيحتاج الجريح إلى دفء النار، وكلماته الطيبة سوف تكون أنساً لعبد الرحمن في وحشته.

وكان عبد الرحمن قد رأى بعيداً عن حائط القلعة، عدة شجيرات صنوبر يابسة. فخرج ليجمعها بينما توقفت السفانة عن الرعي وتبعته، فأشار إليها بالرجوع وقال: «ارجعي وكلي ما دام هناك نور، إنني سوف أغيب طويلاً».

طبعاً لم تفهم السفانة كلام البشر، لكن فهمت إشارته، فعندما أشار لها بالرجوع، رجعت مطيعة لترعى الحشائش المبعثرة، ومن وقت لآخر ترفعُ رأسها وفمها ملآن لتتأكد من أن عبد الرحمن لم يبتعد عنها.

وكسَّر عبد الرحمن شجيرات الصنبور اليابسة وجعلها بين ذراعيه، ورجع بها إلى القلعة، فرماها على الأرض، وقال للعجوز بصوت يملأه الفرح: «بعد حين ستكون لنا ناراً نجتمع حولها».

وأخرج من جوف السرج كيساً فارغاً، ثم ذهب إلى شجرات النخل الطويلة بقرب الخزان، وأزال عنه ثيابه وحذاءه، واختار إحدى تلك الشجيرات ليتسلق عليها. وجعل الكيس فوق كتفه، وصعد بيديه ورجليه على الجذع المائل. كان التمرُ المدلى من النخل في شكل جيد، لونه ذهبي مائل إلى اللون البُني. ولما وصل إلى النخلة عانق جذعها برجليه، وتدلّى إلى عنقود التمر وقطعه داخل الكيس. واغتنم عبد الرحمن فرصة وجوده فوق النخلة. وتطلع ببصره إلى البادية حوله، فلم يرَ إلا صحراء قاحلة. ونزل من النخلة، ثم لبس ثيابه، وحمل الكيس فوق ظهره واتجه نحو القلعة التي أخذ الظلام يرخي سدوله عليها. وكم كان عجبه حينما رأى الجريح نائماً على جنبه فوق الأرض، فأشار العجوز إلى بطنه قائلاً: «سأخفف على نفسي المرض هنا». لا شك أنه بقي دون أكل مدة طويلة لدرجة

أن بطنه صار يؤلمه، ألماً لا يقل عن ألم جراحه الأخرى.

فحثه عبد الرحمن قائلاً: «كل». ووضع كيس التمر إلى جانبه، وعندما تأكد أن بإمكان العجوز تناول أكله، ذهب إلى إشعال النار.

كان في جانبٍ من سقف الغرفة ثقبة كبيرة، نتجت عن تهدم سقف القلعة، فأزال عبد الرحمن الحطام من ذلك الركن، وفرش الأرض بالحشائش اليابسة، ثم قطع بخنجره أخشاب الصنوبر التي أتى بها، وأخذ من أكياس سرجه الحجر والحديد، وأنحنى ليشعل النار. فتطايرت الشظايا، وأشعل الحشيش اليابس، وأخذ يرمي بخشيبات صغيرة فوق النار إلى أن أخذت تلتهم الأخشاب الكبيرة.

وانفتح وجه العجوز المتجعد على فم فارغ من الأسنان، وابتسامة ضعيفة وقال: «هذا نجم، إن نارك كنجم المساء فوق الصحراء».

وأشار عبد الرحمن إلى الثقبة في السقف والدخان الخفيف يخرجُ منها وقال: «بعد قليل سترى عدة نجوم من فتحة خيمتنا».

كان عبد الرحمن فرحاً جداً بوجوده مع الرجل الذي أشرف على الهلاك، ويراه الآن وقد بدأت تتحسن حالته شيئاً فشيئاً، فانحنى ليدُسَ يده تحت جسمه الضعيف وقال: «اتركني أعينك لتقترب من النار».

وحمل العجوز ببرنوسه، ووضعه قرب جمرات الصنوبر الملتهبة. فقال العجوز وهو مغمض عينيه: «طيب! طيب! - وإن كانت بي الحُمى على أي حال؛ ولكن مع ذلك لا زلت أشعر بالبرد.

وذهب عبد الرحمن ليأتي بشيء من الأكل الذي كان يُخبئه في أكياس وراء سرج فرسه، ثم وضعه على الأرض وقال: «مريسة وخبز وتمر. ولو كان معي وعاء لسخنتُ هذه المريسة مع الماء لنشربها؟». والمريسةُ هي لبن يابس يحملها البدو في الأسفار لأنها خفيفة. وسهلة الاستعمال.

كان العجوز ممدداً على الأرض وعيناه مُغلقتان بسبب ضعفه من جهة، وكدليل على ارتياحه وفرحه من جهة أخرى فقال: «يكفي هذا - هذه مؤونة الصحراء كاملة». وصبَّ عبد الرحمن الماء على يديه من إحدى القِرَب بكثرة ليغسلها، والعجوز ينظر إليه بين جفونه النصف مقفلة فقال فجأة: «إنك لستُ ابن الصحراء، بطريقة استعمالك للماء هكذا!».

لم يكن يؤاخذه بكلامه. ولكن عبَّر على ملاحظته بصوتٍ عالٍ وصريح.

فأجاب عبد الرحمن: «لا، لست ابن الصحراء. ولكن في عروقي يجري دم الصحراء. وأنا جئت لأزور المناطق التي ولد فيها أجدادي».

قال هذه الجملة الأخيرة بثقة فورية، لأنه شعر أن هذا الرجل بإمكانه أن يخبره عن الصحراء. فأجاب العجوز: «إيه نعم».

وانفتحت جفونه، وكأنما عيناه كانتا تريان بعيداً، ولم تكن ترى ما في القلعة المظلمة.

وانقلب صوته من جديد إلى همسات تأتي من بعيد، شيء صغير يأتي من الفضاء الواسع، ومن الخيال الغريب. وقال: «مهما تغيبنا عن الصحراء فإنها تجلبُنا إليها، نحن الذين تجري في عروقنا دماؤها - حتى أنا الرجل العجوز سوف أعيش لأرى الحياة الجديدة تبتدىء مع ابتداء السنة في وادي السرحان، سأرى نخيل الجوف الباسقة وهي ترتفع في صحارى الحمد، سأرى الشمس وهي تطلعُ فوق كثب النفود الحمراء، عندئذ يُمكنني أن أموت!».

وشعر عبد الرحمن بالتجلي الذي أخذ الرجل العجوز فسأله بلطف: «كم طال بُعدك عن بلادك يا عم؟».

فأجاب الرجل وكأنه يكلم نفسه، ويسرحُ بأفكاره: «حوالي عشر سنين، لقد ذهبت إلى الأندلس منذ عشر سنين، ثم جمع أفكاره، وسكت برهة، ودار إلى عبد الرحمن من جديد وقال: «أنا زاملُ ابن علي من بني زنقل. إن الصحراء الوسطى مسكن قومي، لكن الوقت الآن وقت رعي، فإنهم سيكونون في وادي السرحان، وعندما هجم عليَّ قُطاع الطريق كنت في طريقي إلى وادي السرحان».

ثم تنفس الصعداء طويلاً، وأغمض عينيه وتابع كلامه: «أنا عجوز تعب ومريض، أنا ضحية سهلة للظالم وللقوي، ولكني سأرى الصحراء الوسطى مساكن قومي قبل أن أموت - سأرى خيام وادي زوران، وأرى رمال النفوذ الحمراء. وتنهد بعمق وتزحزح كأن به ألماً، ثم استقر من جديد على الأرض الصلبة بدون أن يجد راحة، كان فمهُ رقيقاً ومقوساً كأنه فم حاقد، وتجاعيدُه تجمعت كلها تحت عينيه على خديه، وأظهر ضوء النار الخافت في ظلام الغرفة تعب جسمه وروحه. كان تنفسه الصعب يُسمع عالياً وبانتظام.

وفجأة، فتح فمه وأجرى لسانه على شفتيه، ثم أقفل فمه وبلع ريقه. فقال له عبد الرحمن بلطف: «خُذ شيئاً من الماء يا زامل بن علي، سوف تُبعد شياطين النار عنك» وفتح القربة، وقربها من فم العجوز، وعندما شعر بالماء على شفتيه فتح فمه وعينيه وشرب عدة جُرعات ثم أخذ يسعل بضعف.

قال عبد الرحمن: «يا زامل، أين هو وادي السرحان الذي تُكلمني عنه؟».

فأجاب العجوز: «هُناك بعيداً في الصحراء، على بعد ستة أيام على ظهر جمل».

ورغم تعب العجوز الشديد، كانت لا تزال عنده حاسة الاتجاه، فأشار بحركةٍ إلى الشرق بعد أن أخرج يده من كم برنوسه.

وسأل عبد الرحمن: «ومن يعيش هناك؟».

كان العجوز تعباً جداً، لكنه أجاب: «البدو الرُحل يأتون ويذهبون مع تغير الفصول».

وهز عبد الرحمن رأسه وهو يفكر. لقد سمع حكايات عن وادي السرحان. تلك المراعي الشاسعة التي يمكنها أن تتحمل البدو وقطعانهم أكثر السنة. وقال: «نم الآن ولا تخف».

كان صوت عبد الرحمن خفيفاً كصوت أجنحة طيور ترفرف في حديقة عند المساء.

لكن زامل ابن علي بقي مستيقظاً بجهد وسأل: «قل لي يا بني ماذا تريدني أن أسمّيك إذا أردت أن أذكر اسمك؟».

فأجاب عبد الرحمن: «أنا مسافر».

وقبل أن يستسلم العجوز للتعب والنوم قال: «بارك الله فيك وفي يدك وبارك الله في كل ما تمسه يدك».

وسمعت دقات على الأرض، وإذا بالسفانة تدخل إلى الغرفة، وهي تحاول أن تستأنس بسيدها، لأن الظلام خيم على القلعة، وكانت قوائمها النحيفة ورأسها الأبيض تلمع على ضوء النار. فصهلت بلطف وأحنت رأسها لتمس عبد الرحمن. وبينما اقترب رأسها من العجوز قال بصوت ضعيف: «وبارك الله في فرسك ذي الوجه الأبيض».

قال ذلك وعيناه مغلقتان، ثم غاب في نوم عميق.

وهمس عبد الرحمن إلى السفانة قائلاً: «مهلاً يا حلوة»، جذبها إلى جانب من الغرفة - وأخذ شيئاً من مؤونة الفرس، وهو حَبّ احتفظ به لها وقال لها: «كُلي الآن واشربي من بعد».

وعاد إلى النار ليرمي بعض القطع من الحطب، ثم جلس ليأكل - فأخذ يقطع أطراف المريسة وأطراف الخبز اليابس فيأكلها، ويشرب بعدها جُرعات ماء ثم يأخذ تمرة من وقت لآخر.

وأخذ عبد الرحمن يفكر وهو يأكل - كان عازماً على الذهاب جنوباً في اتجاه اليمن، ولكن الآن، لا شك أن خبر هربه قد وصل إلى حُراس الفنادق على الطرق الرئيسية، إما بطريق الفرسان، أو عن طريق الحمام الزاجل. ربما أن حُراس الحدود أعطوا الأمر لينتبهوا لقدومه. وبما أن طريق الحاج المتجهة إلى الجنوب ضيقة ومُحاطة بالصحاري المقفرة، فسوف يكون الابتعاد عنهم صعباً.

وشعر أن كل الطُرق التي يُسافر الناس عليها خطيرة بالنسبة له. ولكن في ناحية الشرق، توجد الصحاري المقفرة المخيفة، وفي وسطها يوجد وادي السرحان. حينئذ اتخذ قراره. وانتهت السفانة من أكلها، واقتربت منه من جديد - فأدخل عبد الرحمن يده في الكيس. وأعطاها قطعة من المريسة وتمراً، وأخذت الفرس تأكل وتضع أنفها على وجهه وكتفيه، وهو يلاطفها.

ثم قال لها: «كُلي واشربي، وارتاحي الليلة، غداً سنرحل، وإذا كان باستطاعة العجوز الركوب فسنأخذه معنا. سنعبر الصحراء، أنا وأنت، وإذا عرف أنى يوجهنا فسوف نأخذه إلى قومه الذين كلّمنا عنهم، في وادي السرحان».

مسّكن العمر

وفجأة سمعت صرخة واحدة، وخرج عُقابٌ بري من بين الصخور، كأنه سهم في اتجاه السفانة. وطار عمودياً نحو السماء حاملاً في مخالب رجله، بقايا طير مرهبة. وجنحت السفانة بنفسها إلى الوراء، وثبتت في مكانها، لكنّ عبد الرحمن صاح: «عقاب! هذه علامة طيبة!». عقاب يأكل طيراً آخر دليل على أن هناك حياة في الخلاء. كانت هذه إحدى العلامات القليلة التي لاقوها منذ ستة أيام وهم يسافرون في هذه المناطق الصحراوية.

لقد عبروا صحراء الحمد الجرداء كلها، عبد الرحمن، والسفانة، والعجوز، زامل ابن علي. وكان عبد الرحمن يمشي على رجليه كل الطريق، بينما ترك الفرس يحمل زامل، فلقد عبر مسافات الرمال خطوة بعد خطوة، كأنه يقيس اتساعها بخطواته البطيئة. كانت صحة زامل قد بدأت تتحسن شيئاً ما، فهو يكادُ يكون قادراً على السفر. وكان من على ظهر السفانة يعملُ جهده ليريهم الاتجاه. ومن براعته، استطاع أن يوصلهم إلى نقطة ماء في اليوم الثالث من بدء سفرهم، وتلك النقطة لم تكن سوى حفرة بسيطة في وسط الرمال الشاسعة.

لقد خرجوا عن نواحي الماء نهائياً منذ البارحة، وهم الآن يعانون من مشاقّ العطش، كان زامل ضعيفاً جداً وفاقد الوعي معظم الوقت. ورجلاه مربوطتان على ركاب السرج من ناحيتي الفرس، وجسمه مرتخ على عنق السفانة. وبللّ عبد الرحمن شفتيه اليابستين وصاح: «يا زامل لقد وصلنا إلى سفوح الهضاب إلى وادي زوران».

فمنذ ساعتين خرجوا من رمال الصحراء، ودخلوا إلى أرض وعرة، كُلها صخور، وحواجز، وحرّات بركانية، كانت هذه الصحراء لا تقلُ وعورةً عن صحراء الرمال، ولكن، هناك أمل في الوصول إلى ما وراء تلك الأخاديد.

ورفع عبد الرحمن رأس العجوز قائلاً: يا زامل!».

وفتح زامل عينيه وظهر جفناهُ كجفني دمية نائمة وحرك جسمه. كان وجهه مستديراً نحو عبد الرحمن وكأنه لا يدري من هو. لقد صرف البقية الباقية من طاقته وهو يحاول أن يرشده إلى الهضاب التي قال عنها إنها هي بداية وادي السرحان.

ورغم ذلك كله فقد بقي على قيد الحياة، كان فمه يتحرك، وأمكنه أن يقول بصوت خافت: «الماء، أموت عطشاً، أعطني شربة ماء».

فأجابه عبد الرحمن: «انتظر قليلاً يا زامل، بعد برهة سوف نشرب من وادي السرحان».

وقال زامل وهو يلهث: «إني عطشان، يجب أن أشرب»

ثم أغمض عينيه، ووقع على عنق الفرس، وأنّ أنيناً ضعيفاً مرة أو مرتين. وأخذ عبد الرحمن بلجام الفرس قائلاً: «تعالي يا عزيزة وأنت كذلك سوف تشربين بعد قليل».

لقد ضاع عن عبد الرحمن العقاب الطائر في وجه الشمس، لكنه شاهد فوق الصخور المقابلة، البقعة الدامية التي وقع فيها الغراب على فريسته، ووراء تلك الخصور أمكنه أن يرى وادياً صغيراً.

وفي نفس اللحظة التي اكتشف فيها عبد الرحمن ذلك الوادي الصغير من وراء الصخور، رأى شكل إنسان يتحرك. وبالقرب من ذلك الشكل رأى حيوانين: احدهما أسود والآخر أبيض وببصره الثاقب أمكنه ان يعرف ذلك: إنه كلب وكبش.

وأدار عبد الرحمن وجهه إلى زامل كأنه يريده أن يشاركه هذا المنظر الذي يراه، لكن العجوز كان مستلقياً على الفرس كأنه جثة هامدة.

وأخذ عبد الرحمن يمسح بلسانه على شفتيه، واكتشف حينئذ مدى عطشه. وشعر بضعف ودوخة من شدة الحر وكثرة المتاعب التي مر بها. والفرسُ كانت تعاني هي كذلك من هذه المتاعب.

وأخذ عبد الرحمن طريقه بين الصخور منحدراً إلى الوادي، وهو يقود السفانة، لم يكن هناك أثر للماء لكن الوادي كان مليئاً بأنواع من النباتات: أعشاب ذات أشواك، وشجيرات أم غيلان هنا وهناك، وبقع حشيش بني وزهيرات بين الصخور.

لقد أخذوا أسهل الطرق، وقبل أن يجتازوا حوالي ثلاثين قدماً، اكتشفهم الكلب الذي في الوادي، فأخذ ينبح بشراسة، وترك كبشه الوحيد الذي يحرسه في الناحية الأخرى من الوادي.

رفع عبد الرحمن يده للراعي على السفح، كإشارة صداقة وتحية. وأخذ نزوله يتيسر شيئاً فشيئاً فسار يسرع في مشيته، بينما السفانة تتبعه.

وترك الكلب الكبش ونزل يجري إلى الوادي ليلحق بهم. لكن الراعي أوقفه بعنف، فوقف لكنه تابع نباحه بصوتٍ عال.

وصلت رنات صوت الراعي إلى عبد الرحمن بوضوح، فشعر بنعومة ذلك الصوت وشبابه. والصورة التي كانت أمامه كانت كذلك صغيرة ورشيقة، لا شك ان هذا الراعي ولد صغير جاء ليُرجع هذا الخروف التائه، وانزلقت السفانة، فصعد ضباب من الغبار تحت حوافرها، ونزلت الأحجار بصوت صاخب إلى الوادي، فأثار ذلك الكلب الأسود الكبير من جديد، فتقدم إليهم ليتلقاهم. وسمع صوت الراعي مرة ثانية يأمر الكلب: «هنا يا سوقي ارجع!».

لكن الكلب زاد نباحه مع اقتراب الغرباء، رغم أن سيدهُ تبعه ومسكه من جلد رقبته، وعندما اقترب عبد الرحمن من الوادي، اشتدت زاوية الإنحدار، فصعب عليه الحفاظ على توازنه، ووصلوا إلى قعر الوادي بعد انزلاق أعقبه وابل من الأحجار المصحوبة بغبار

وضجيج.

وبعد أن استرجع عبد الرحمن أنفاسه، رفع يده باتجاه السفح الآخر إلى الراعي وصاح: «لكم السلام، وللمسافرين المأوى».

واسكت الراعي الكلب بلطف وصاح: «من أنتم؟».

وأجاب عبد الرحمن وهو يتقدم بالسفانة: «نحن مسافرون نريد وادي السرحان، أنا والعجوز فوق الفرس. نرجوكم بالله أن تعطونا الماء ومحلاً للاستراحة! فالعجوز قريب من الموت بسبب العطش والتعب».

وعندما رأى الراعي الشاب ضعف حالهم، نزل ينحدر بحذر بين الصخور لملاقاتهم.

وقبل أن يصل إلى قعر الوادي صاح قائلاً: «إن خيامي في الوادي الآخر وراء الهضبة. سآخذكم إلى هناك. إهدأ يا سوقي! «هذه الجملة قالها للكلب الذي لا زال يُضايق الغرباء».

وبعد لحظة تردد، تقدم الشاب الرشيق، والاهتمام بالمسافرين يظهر على وجهه الناعم الجميل. تقدم ماداً يده وقال: «دع فرسك لي». وبهت عبد الرحمن. لكنه خرج فوراً من غفوته، لم يكن هذا راعياً، بل راعية. كانت فتاة بدون حجاب وبرأس مرفوع. وتقدمت إليهم تستقبلهم بخفة وقدم ثابتة، كأنها غزالة الجبال.

الحـوراء

وقالت الفتاة: «السلام عليكم» وفجأة شعرت بالتعجب الظاهر على وجه عبد الرحمن، وتذكرت عادات الصحراء القديمة التي نسيتها بسبب اهتمامها بهذين الغريبين، فتلكأت برهة ووقعت عيناها على عينيه، لكنها صرفت بصرها بسرعة. ثم أخذت مرة أخرى بلجام الفرس. وبرأس عال وجهت بصرها إلى بصره من جديد. وأجاب عبد الرحمن بصوت مبحوح بالعطش: «لا! فلا زلت أستطيع أن أمشي وأقود الفرس، دليني على الطريق». وأخذ من يدها اللجام.

لكنها أصرت: «إنك تعب ومريض، اترك لي اللجام».

فهزَّ عبد الرحمن رأسه ممتنعاً وبلع ريقه ليبلّ حلقه وقال: «إني لا زلت قادراً على المشي، دليني على بيت أبيك يا غادة، إن العجوز في حاجة إلى الراحة والماء».

ولما تأكدت الفتاة أنه مصر على الاحتفاظ باللجام قالت: «إن خيامنا وراء تلك الهضبة» وتقدمت أمامهما خطوتين إلى الوادي، ثم استدارت لترى حال عبد الرحمن.

وعندما نزلوا إلى الوادي أنزل عبد الرحمن زامل من على الفرس إلى أحد الجانبين، ورفع الجسد الهامد، وأقامه، ثم ربطه من جديد. وأخذ اللجام وأزال الغبار عن وجه الفرس بلطف، ثم تبع الراعية التي تُراقبهم من وقت لآخر. واقترب الكلب «سوقي» من عبد الرحمن والسفانة على مسافة قريبة وهو يراقبهم بتحفظ، وعندما اقتنع، أسرع نحو الفتاة وهو ينبح على الكبش التائه، الذي اتجه نحو الهضبة ليرعى الحشائش المبعثرة. وأرجعه إلى الطريق، وتقدمت الفتاة ببطء، تنظر من حين لآخر، نظرات قلقة إلى المسافرين المنهوكين. كان الاهتمام ظاهراً على وجهها الناعم البيضاوي الشكل، وترددت مرة أو مرتين عندما رأت عبد الرحمن يصعد وراءها الهضبة الصخرية، وفجأة استدارت واتجهت نحوه قائلة: «أعطني اللجام، ارجع إلى زميلك لتعتني به»، وأشارت إلى زامل الذي مال من جديد الى جهة من جهتي الفرس، كان الحياءُ يظهر في تصرفاتها، لكن صراحتها جعلتها تُثبت شخصيتها رغم حياءها، وهذه المرة تحملّ عبد الرحمن منها أن تقبض باللجام، فلقد غلب صدقها واهتمامها عزة نفسه المتعبة، ورجع إلى زامل على ظهر الفرس وأقام العجوز مرة ثانية، ثم قال للفتاة، خذينا الآن، وأخذ يمشي بجانب السفانة ويده على ظهر زامل ليحتفظ بتوازنه، بينما قادت الفتاة الفرس باتجاه الهضبة.

وبعد صعودٍ شاق ومعوج وصلوا إلى قمة الهضبة وقالت الفتاة: «هناك خيمتي» وأشارت إلى خيمة صغيرة مركزة في قعر وادٍ طويل.

وكان في قعر الوادي قطيع يرعى، مكوّن من حوالي مائة خروف مبعثرة، واتجه

الخروف التائه نحو القطيع وهو يجري على المنحدر. وفي وسط القطيع كلب آخر فقام على أرجله بكل انتباه وحذر، واتجه بسرعة نحو الهضبة وهو ينبح ليهاجم الدخلاء. وأشارت الفتاة بيدها، وأخذت توبخ الكلب قائلة: «هه، يا غول ارجع، ارجع إلى وظيفتك!».

وعند توبيخها هذا أضاع الكلب الكبير شيئاً من شراسته، لكنه تابع اقترابه كأنه مستحي أو متعجب، وأخذ يتحرى الغرباء.

وقال عبد الرحمن: «لطفاً يا غول». ومد يده بلطف إلى الحيوان الحذر لا ليداعبه بل ليترك الكلب يشمهُ على راحته، وأخذ الكلب يشمُّ أصابعه برهة ثم ترك عبد الرحمن يداعب رأسه.

وأخذت الفتاة تنظر، ثم ابتسمت بسرعة، وانفتحت شفتاها معبرة عن سرور خاطف، وقالت: «لك حظ مع الحيوانات، إن كلابي لا يعتادون على الغرباء بهذه السرعة. وفرسك جميلة جداً». قالت ذلك بينما عيناها تنظران إلى السفانة التي ظهر جمالها الكامل رغم أتعاب السفر، ثم أخذ بصرها يجولُ بين السفانة وعبد الرحمن. وكأنّ حب تطلع صبياني دفعها لتراقب عبد الرحمن عن كثب. وفجأة تذكرت نفسها بينما وقع بصرها على بصر عبد الرحمن، وقالت: «عندي الأكل والشرب هناك في خيمتي»، ثم تابعت انحدارها وهي تقود الفرس.

وبينما هم يتحدرون، رفع عبد الرحمن رأسه وأرخى كتفيه المتعبين، إن هذا حسن جداً بعد هذا السفر الطويل عبر الصحراء، ثم وصلوا إلى قعر الوادي، وإلى خيمة البنت المصنوعة من وبر جلد الجمل.

وقالت الفتاة: «سآتي بالماء» ودخلت بسرعة إلى الخيمة ثم خرجت بقربة جلدية بينما فك عبد الرحمن زامل وأنزله من ظهر السفانة، وقالت الفتاة: «انزلوا هنا على معطفي وأشارت إلى معطف راع على الأرض بالقرب من الخيمة.

وحمل عبد الرحمن زامل إلى هناك ووضعه في الظل بعيداً عن وهج شمس الظهر. وأخذ القربة الجلدية من الفتاة، ثم رفع جسم زامل المرتخي في وضع الجلوس ووضع الماء بين شفتيه، كانت عينا زامل مغمضتين، وجسمه مرتخياً كأنه بلا روح، فطفح الماء حول شفتيه المفتوحتين، لكن عبد الرحمن أمال رأسه إلى الوراء، فإذا به يسعل بضعف حتى يكاد يختنق، واهتزت يداه كأنه يحاول الدفاع عن نفسه، وانفتحت أجفانه مُظهرة عينيه الحمراوين. لقد أمكنه أن يأخذ جرعات ماء، أو بالأحرى يترك الماء ينصب في حلقه.

وأخذ يسعل من جديد ويتأوه، لكن طعم الماء زرع فيه حياة جديدة جعلته يطلب المزيد، وفتح فاه للماء كالعصفور الصغير الذي يفتحُ فمه للأكل، لكن عبد الرحمن أخذ يعطيه الماء بتمهل، وعندما انتهى، أخذ القربة من العجوز، وأرجعه إلى وضعه الأول. كان ينظر نظرة جوفاء إلى داخل الخيمة. فمن البديهي أنه لم يسترجع صحته العادية بعد عناء الصحراء.

وقالت الفتاة لعبد الرحمن: «اشرب أنت كذلك».

وأخذ عبد الرحمن جرعة ماء صغيرة، كان فمه وحلقه يشكران هذا السائل الثمين. لقد تعلم في الصحراء قيمة الماء العظمى، وأخذت السفانة تنخر وتشمشم من تحت الخيمة من شدة العطش.

وقف عبد الرحمن وفتح كيس الجلد الذي يحتوي على أكل السفانة، ثم قال: «لم أنسك يا جوهرتي». وشرب مرة ثانية ببطء من القربة، ثم أفرغ ما تبقى من الماء في كيس الأكل، كانت الكمية قليلة، لكنه احتفظ بها للسفانة.

وقالت الفتاة: «شربت أقل من الجميع».

فأجاب عبد الرحمن: «لأن حاجتي أقل من الجميع».

فردت الفتاة: «لم يبقَ عندي ماء، لكن سآتيك باللبن، اقعد وانتظر حينما أذهل لأحلب الشاة».

وأخذت وعاء خشبياً ثم ذهبت بسرعة تفتش عن شاة حلوب.

وأزال عبد الرحمن السرج واللجام عن السفانة وهو ينظرُ إلى الفتاة.

صهلت الفرس من جديد، وشمشمت عبد الرحمن. كانت لا تزال عطشى. لكنه داعبها على وجهها بلطف.

شعر عبد الرحمن كأن حلقه لم يذق طعم الماء. لكنه أحس بالنشاط في وسط هذا الوادي مع الغنم والراعية، بعد وجوده في الصحراء الخالية. ثم نظر إلى زامل من جديد، كان العجوز مغمض العينين، وفمه ولسانه يتحركان بدون انقطاع، ولا يعرف هل هو نائم أو مغمى عليه.

وبعد وقت قصير، رجعت الفتاة وبيدها الوعاء مملوء بالحليب، ووراءها حمل يتبعها. وضحكت على الحمل وهو يثغو بإصرار محاولاً ملاحقتها. وأعجب عبد الرحمن هذا المنظر وهذه الابتسامة على وجهها الحسن. فأخذ يفكر بجمالها وجمال المنظر وراءها.

وعندما اقتربت منه، ظهرت الجدية على وجهها من جديد، اهتماماً براحة المسافرين. فأخذ عبد الرحمن اللبن من يدها وقال: «ليس شكري لك إلا كحبة ريح،، كيف سأجازيك على كل هذا. فأجابت: «ما صنعتُ معكم إلا ما سوف يعاتبني عليه والدي إن لم أصنعه».

ورفع عبد الرحمن الوعاء وأخذ يشرب، كان الحليب ساخناً وسميكاً، وكان سائلاً فرطب فمه وحلقه اليابسين.

ثم انحنى تحت الخيمة ليرى زاملاً من جديد. كانت عيون العجوز مغلقة، ويتنفس بصوت عال، فهمس عبد الرحمن: «سأتركه!، عجباً إنه لا زال حياً، وشرب من جديد، وأخذت السفانة تميل برأسها نحو وجهه كأنها تذكره بنصيبها، فقال لها: «إنك لم تُنسي يا عزيزتي».

كان صوت عبد الرحمن دائماً لطيفاً وناعماً عندما يُكلم فرسه، فجمال وجهها الأبيض وعيونها الحاذقة توحيان لشفتيه بالشعر، وقال: «لك ما تبقى في الوعاء».

وصبَّ ما بقي من اللبن في كيس الأكل، ثم أعطاه للسفانة، فصهلت مرة أو مرتين عندما ذاقت اللبن ثم شربته كله.

كانت الفتاة تنظر إلى كل هذا بصمت، وعندما انتهى اللبن قالت: «خذ راحتك في الخيمة، سأذهب لأخبر والدي بقدومكما وآتي بالماء». وأخذت القِرَب الفارغة.

فسألها عبد الرحمن: «أين هم قومك؟».

فأشارت بيدها إشارة دائرية إلى الهضاب والشعاب قائلة: «ليست خيمة والدي بعيدة وهناك نقطة الماء، سأذهب وأتركَكما ترتاحان هنا، وسوف تحرس كلابي الغنم».

وأوقفها عبد الرحمن برهة وقال لها: «قولي ما هو اسمك؟» فرفعت الفتاة رأسها شامخاً وقالت: «الحوراء، وأبي اسمه راشد ابن طراد». فنظر إلى وجهها وقال: «سوف أتذكرك دائماً ولو لم أرك بعد هذا، الحوراء اسم لطيف وخفيف على اللسان».

فأحنت عينيها خجلاً وقالت: «سأذهب إلى أبي».

وجلس عبد الرحمن بقرب الخيمة، وأخذ ينظر إلى الوادي تحته، ونادت الحوراء كلابها وهي تمشي، وأمرتهم بمراقبة الغنم في غيابها، وأخذت بعض الأكباش تتبعها، لكنها ارجعتها، إلا حملاً منها أصر حتى وصل معها إلى قعر الوادي، وتابعها عبد الرحمن ببصره إلى أن غابت عنه، ثم أخذ يلاحظ ما حوله، كان منظر الوادي جميلاً وهادئاً: الغنم ترعى، والكلاب تحرسها على طرفي الوادي، والسفانة تقلع الحشيش بحوافرها لتأكل ما تبقى من رعي الغنم. وشعر عبد الرحمن بعينيه تتثاقل وترتخي، وأحس بتعب شديد فدخل إلى الخيمة، واستلقى على جلد الماعز بالقرب من زامل، وبعد لحظة قصيرة، كان يغطُ في نومه، مظللاً بالخيمة من شمس العشي.

وادي السرحان

عندما أفاق عبد الرحمن كان المساء على الأبواب، وكانت الكلاب تنبح والأكباش تثغو قريباً من الخيمة.

وبما أنه اعتاد الاحتراس فقد جلس بسرعة وأطل من مخبئه. كان ذلك الوقت هو وقت إرجاع الغنم إلى الخيام للمبيت، وكانت الكلاب تجري فوق الهضاب لتأتي بالخرفان التائهة. ومال عبد الرحمن خارج الخيمة ليرى الفتاة، فرآها فوق التلال مع الكلب تجري وراء الغنم. وبالقرب من الخيمة وقف رجل متكىء على عكازه، أبيض اللحية شكله يوحي بالاحترام والتقدير.

ولما رأى الرجل عبد الرحمن قد استيقظ انحنى له محيياً وقال بصوت رزين: «السلام عليكم!».

أجاب عبد الرحمن: «وعليكم السلام».

بوجه متجعد ظهر أنه رجل عجوز وقور ربما كان عمره ثمانين سنة أو أكثر لكن جسمه كان مستقيماً، وتظهر على جنب أنفه حبة بنية لكنها لم تقلل شيئاً من وقاره.

وقال: «إن الغنم يجب أن تشرب قبل الليل وإلا ما كنت تركتها تجتمع وتوقظك».

أما السفانة فكانت ترعى العشب على مسافة بضع مئات من الأقدام. وعندما رأت عبد الرحمن واقفاً هزت رأسها ومشت إليه.

وقال الشيخ: «لقد أعطينا الماء لفرسك عندما كنت نائماً إنها تعبت من السفر لكنها استعادت قوتها بسرعة».

وقال عبد الرحمن وهو يمد يده إلى السفانة ليُلاطفها وهي تقترب منه: «إنها كنز، السفانة جوهرتي – إنها خدمتني خدمة لا تُنسى في هذه الأيام الأخيرة في الصحراء».

وسأل الشيخ: «هل اجتزت الحمد؟».

أجاب عبد الرحمن: «نعم، أنا والعجوز». وأشار إلى الخيمة التي فيها زامل ثم قال: «إنه رجل بادية كان في جيوش المسلمين بالأندلس، والآن رجع إلى الصحراء من جديد».

ثم انحنى تحت الخيمة ليطل على زامل، كان العجوز لا يزال يغط في نوم عميق لكن وجهه صار أقل إنكماشاً وفمه أكثر ارتخاء، وقال عبد الرحمن: «إنه زامل ابن علي من بني زنقل».

وظهر التعب على وجه الشيخ ونظر إلى زامل من قرب، ثم قال: «إن بعضاً من قومه يخيمون بالقرب من هنا فسيعتنون به إذا وجدوه».

قال عبد الرحمن: وجدته قريباً من الموت على طريق الحج، هوجم من طرف

اللصوص». وقال راشد: «رحم الله من أنقذ غريباً». إن خيمتي مفتوحة لك، وبنو زنقل سيرحبون بك».

كانت الغنم مجتمعة في قعر الوادي، والكلبان يحرسان القطيع من طرفيه وهما ينتظران أمراً من سيدتهما.

وأشارت الفتاة بصوت كصوت الحادي: «يس» فطلع الصوت من شفتيها كأنه موسيقى. . حينئذ أخذت الغنم تمشي في الوادي، والكلاب تفتح لها الطريق، وأتت الفتاة وراء القطيع، وبيدها خروف صغير لا شك أنه ولد في تلك الأمسية.

وقال راشد لعبد الرحمن: «أريد أن آخذ زميلك من هنا، إن خيمتي أو خيام قومه أفضل له لقضاء الليل وأفضل لك كذلك».

فأجاب عبد الرحمن: «لتحمله الفرس»، ثم أخذ السرج ووضعه على ظهر السفانة، وأنحنى الشيخ ليُعين عبد الرحمن على حمل أغراضه وأعطاه حزام السيف الذي وضعه جانباً عندما نام.

احتاط عبد الرحمن في طريقه عبر الصحراء، وستر جواهر مقبض خنجره بغطاء من الجلد صنعه من إحدى القرب الفارغة. كان مقبض الخنجر وحده يساوي كل أملاك شيخ من شيوخ الصحراء. وهذا وحده جدير بأن يفضحه.

وعندما تجهزت الفرس انحنى عبد الرحمن فوق زامل. كان العجوز يغطُ في نوم عميق فحمله وأجلسه على ظهر السفانة، وأخذ يفيق لكنه كان دائخاً وضعيفاً، فاضطر عبد الرحمن أن يقبضه لكي لا يقع. وقال الشيخ: «لو كان على الفرس لجام لقدتها بينما تمسكه أنت».

فأجاب عبد الرحمن: «إنها لا تحتاج إلى لجام، إمش وهي تتبعك».

وهكذا قاد الشيخ الطريق وراء القطيع المغبر، والسفانة تتبعه. وعبد الرحمن يمشي بالقرب منها ويده على ظهر زامل، ورأس العجوز يتأرجح بمشيتها.

ومشت الغنم بانسياق ووراءها الفتاة وكلبها، لكن السفانة ومرافقيها كانوا يتبعون ببطء.

وتابعوا الوادي ثم طلعوا فوق الهضبة ونزلوا إلى وادٍ آخر، ثم نزلوا مع منحدر صخري طويل ووصلوا إلى هضبة مرتفعة، تطلُ على وادٍ عريض طوله عدة أميال. وفي الوادي على سفح الهضبة رأوا دائرة خضراء من النخل. وفي وسط الدائرة خزان ماء كأنه جوهرة في عش أخضر، تلك هي الواحة.

وهناك حوالي ستة خيام مركزة بالقرب من النخيل، مكونة من ثياب مخططة بالأسود والأحمر والأبيض. وعلى مسافة من تلك الخيام، مجموعة أخرى أصغر حجماً. وبينها رأوا الناس تتحرك، النساء، والأطفال، وفي الناحية الأخرى من النخيل، رأوا الجمال والغنم والخيل - هذه خيام بدو الصحراء وقطعانهم بالقرب من نقطة الماء التي هي مركز للحياة.

وسرعان ما كانت الراعية وقطيعها ينزلان إلى الوادي تحتهما، وحولهما سحابة من الغبار، وبعد سير طويل قاد الشيخ السفانة إلى حافة الجرف. وهذا المنحدر كان قائماً ومتكسراً، كان هو المنحدر الأخير، وهنا وجد عبد الرحمن صعوبة في الحفاظ على زامل فوق السرج. لكنهم نزلوا بتحفظ وبطء إلى أن وصلوا إلى السفح بدون أن يقع أي حادث مزعج، وعندما وصلوا إلى النخيل كان الشيخ راشد ابن طراد يلهثُ من التعب، لكنه حافظ على وجاهته كاملة، وكان هو الذي يقود الجميع في الطريق.

وفي داخل الخيام جلست النساء وهن كاشفات الوجه، ينظرن إلى الغرباء بكل حرية. وجرى نحوهم عدة أطفال كلهم فضول.

وقادهم الشيخ إلى أقرب خيمة في الواحة، وهي خيمة منفردة وكبيرة، وعقل السفانة بقرب مدخلها. وبينما هو يتحني باحترام ليدخل الخيمة قال لعبد الرحمن: «هذه واحة قعر الغار، إن خيمتي هي مسكنك ما دمت معنا، ادخل وخُذ راحتك مع زميلك، إن النساء سيقُمن بخدمكتما». ورفع عبد الرحمن زاملاً عن السرج وتقدم راشد ورفع باب الخيمة ليفتح له الطريق.

كانت الخيمة مفروشة بأثاث متواضع في مستوى شيخ من شيوخ البادية. ففي جهة فرشت بساط مرتفعة فوقها مخدات، فأشار راشد إلى عبد الرحمن ليتقدم إليها. ووضع عبد الرحمن زاملاً فوق المخدات. وتكلم العجوز بكلام مبهم ثم اتكأ كأنه سقط، وراح في نوم عميق.

وقال راشد: «سآمر بسقي فرسك والاعتناء بها. فهز عبد الرحمن رأسه وقال: «سأعتني بها بنفسي. إنها تعرف يدي».

وخرج من الخيمة فوجد ثلاثة أطفال: بنتين وولداً، واقفون بجانب السفانة، وكان في يد الولد الذي عمره حوالي ثمان سنوات، قطعة من شيء ما يقدمه للفرس لتأكله. وعندما رأى عبد الرحمن والشيخ يخرجان من الخيمة، تأخر إلى الوراء بحياء.

وأدارت السفانة وجهها وصهلت بفرح عندما رأت سيدها. وكما أنها أدركت خطر ومشاق الطريق عبر الصحراء، فإنها أدركت الآن أن وجودها في الواحة يعني الراحة والسلامة، لا شك أنها احست بالخطر المحدق عندما هربوا من الشام، وعندما شعرت بضرورة السرعة والسرِّية والاختفاء، في الوقت الذي كانت كل الأيدي تعمل ضد الرجل الذي تحمله، والآن فقد أصبح كل ذلك في عداد الماضي، كما يشهد على ذلك هدوء الخيام، وتقديم الأكل في يد الطفل.

أخذ عبد الرحمن يمشط شعر ناصية الفرس المغبرة، ويقول كلمات لطف لها. وأزال عن ظهرها السرج والمؤن، وأخذ الكل داخل الخيمة بالقرب من المخدات. ثم خرج، وقال لراشد، سآخذ فرسي للماء وأحنى الشيخ رأسه انحناء خفيفاً بطيئاً يتناسب مع حرمة سنه وقال: «سوف تجد الأكل جاهزاً عندما تنتهي». وقاد عبد الرحمن السفانة إلى نقطة الماء بين

النخيل بينما تبعه الأطفال الصغار، كانت الغنم لا زالت تشرب بضجة حول بركة الماء، والشياه تثغو بدون انقطاع، وقبل أن يصل إلى الماء رأى عبد الرحمن الراعية الحوراء بين الأشجار. كانت واقفة وسط غنمها تشبع ظمأها، ودارت الحوراء نحوه لتراه عندما ظهر مع الفرس لكنها لم تقل شيئاً، ولم تبد أية إشارة أنها عرفته، نظرت إليه نظرة سريعة، ثم رجعت إلى أشغالها من جديد.

واستنشقت السفانة الهواء بلطف، ثم صهلت بتلذذ، عندما خرجت من بركة الماء. وأخذ عبد الرحمن الفرس إلى آخر البركة بعيداً عن الغنم، كان الماء قد احمر بالوحل بسبب الغنم، لكن الفرس أدخلت فمها فيه وشربت.

أدخل عبد الرحمن يده في الماء، لكن الطفل الذي كان يتبعه قال له: «هناك عين ماء حيث القرب مملوءة!».

وكان خزان ماء صغير قد حفر في الصخر بطريقة طبيعية، بعيداً عن البركة في الجهة الأخرى وراء مجموعة نخيلات، وعندما اقترب منه عبد الرحمن رأى العين التي يخرج الماء منها من تحت الأرض بعيداً كما تأتي المياه بصورة طبيعية، ويخرج من هذا الخزان إلى البركة الكبيرة التي يقع مستواها على حوالي قدم تحت مستوى الخزان، وإذا امتلأت البركة فان الماء يبلعه الرمل المحيط بها الذي لا ينتهي عطشه.

وأحيط هذا الخزان العلوي بسياج من القضبان، ليحفظها لاستعمال، وقفز عبد الرحمن فوق السياج، ثم جثا على ركبتيه، وأخذ يشرب من الماء النقي، كان طعم الماء معدنياً بعض الشيء، لكنه كان بارداً ومنعشاً للغاية.

ورفع عبد الرحمن غطاء رأسه، وفتح ثوبه عن عنقه وكتفيه، ثم أخذ الماء بيديه وصبه على رأسه وكتفيه وساعديه ليغسلهم من الغبار وأوساخ الطريق، لكن حركة قريبة منه جعلته يدير رأسه، فإذا بالسفانة تتبعه وتقفز فوق السياج.

فقال: «لا يا عزيزتي، هذا ليس لك!».

لم يكن هناك شيء في الوجود لا يمكنه أن يقتسمه مع فرسه، حتى مشربه لكن هذا الخزان حفظه البدو لشرب الناس، وهو ضيفهم، ويجب عليه أن يحترم رغباتهم.

ورجعت الفرس إلى البركة، بينما تابع عبد الرحمن غسل كتفيه وعنقه بالماء، وبعد أن توضأ وضوءاً تاماً، تنفس الصعداء تعبيراً عن ابتهاجه، ثم مسح الماء عن وجهه وعينيه. وصدفة وهو يرى جانباً، إذا ببصره يقع على الحوراء في الناحية الأخرى من الخزان وهي تنظر إليه.

وعندما انتبهت أنه يراها، أزاحت بصرها عنه، ونادت كلبيها للشرب، «سوقي، غول!».

انتهت الغنم من الشرب، وتقدم القطيع بعيداً عن البركة بضجيج كبير والكلبان حوله، ثم ذهب لمكان مبيته في نسيم الليل العليل.

وانتهت العشي وتبعها الغروب، وأرخى الليل سدوله، وغابت آخر خيوط الشمس الحمراء.

كان الهواء مليئاً بحركات الطبيعة، وبنغمات تعبر عن القناعة واليسر، بينما حيوانات البدو تستعد للنوم. لقد حلّ الليل يرافقه السلام على ربوع الصحرا الشاسعة. كان عبد الرحمن يراقب المنظر بعينين مرتاحتين وحواس مطمئنة، هو كذلك يشعر بالسلام، ولأول مرة منذ أيام عدة، شعرت روحه بهذا السلام، كان المنظر جديداً عليه. لكنه بثقته في نفسه وفيمن حوله، أحس كأنه بين أهله وشعر أنه آمن بعيداً عن أيدي اعداءه وأيدي الموت.

ودار برأسه، وأخذ لجام السفانة وقادها، وهو يبتسم للأطفال، ثم عقلها بقرب خيمته، لتقضي الليل وتشاركه قِرى الشيخ.

قبيلة الغجر

اضحى النهار وعبد الرحمن لا زال نائماً في إحدى جنبات خيمة الشيخ الكبيرة، وأخيراً أفاق على ضجيج حركات مضرب البدو: رغاء الجمال، صيحات النساء والأطفال، نباح الكلاب. وتعجب عندما نظر حوله في ظلام الخيمة، فلم يجد زاملاً.

وعندما خرج لم يجد السفانة كذلك. لقد عقل الفرس قريباً من الخيمة قبل أن ينام. والآن اختفت. فأخذ ينظر أمامه قلقاً.

وإذا بصوت طفل يقول له: «السلام عليك! إن الفرس في النخيل بالقرب من عين الماء». إن هذا الطفل نفسه هو الذي قاد السفانة البارحة. وذهب عن عبد الرحمن قلقه وقال: «عليك السلام، ما اسمك؟» أجاب الطفل: «زيد» ورفع رأسه افتخاراً باسمه ومولده ووراثته، كافتخار كل أبناء الصحراء «أنا حفيد الشيخ راشد!».

حينئذ خطر ببال عبد الرحمن شيء وأخذ يتساءل: «هل الحوراء متزوجة؟ ثم قرر أنها غالباً غير متزوجة، لأنها لو كانت متزوجة لما ذهبت لترعى الغنم. ثم أخذ يجول ببصره في الوادي عله يرى الغنم التي ترعاها. لكنه لم يرَ إلا بضع شياه حلوب بقرب الخيام. لا شك أن الفتاة أخذت قطيعها إلى مرعى آخر في الصباح الباكر.

ثم أخذ طريقه مع الصبي وذهبا إلى العين فقال له: «وصديقي العجوز أين هو؟» أجاب الطفل: «مع بني زنقل. وطلبك الشيخ روض لتزورهم أنت كذلك». وأشار الطفل إلى المضرب الصغير الموجود وراء الأشجار.

وخرج من بين الأشجار جمل صغير يتهادى ويتجسس عليهما، فاقترب منهما يستطلعهما، ومشى وهو يتهادى بأرجله بطريقة تثير الضحك، فاقترب من زيد وأخذ يشمهُ ويلحسُ خده، فدفعه زيد غاضباً وقال: «سست! أأنا أمك؟» فقال له عبد الرحمن بجدية محاولاً أن يخفي استياءه: «لا، إنه يعرفك ويعرف من الآن أنك سيده وأنك أنت الذي سوف تعطيه الأكل وتعتني به».

وعندما سمع زيد هذا الكلام انبسطت أسارير وجهه قليلاً. لا شك أنه داعب وربت على الجمل الصغير من قبل، لكنه أراد أن يحتفظ بكرامته مع الغريب.

ورغم أنه لا زال ينظر بعتاب إلى البهيمة الصغيرة اللطيفة، فقد تركها تتبعهما، وأخذت السفانة تصهل وراء النخل.

لقد عقلت هناك بقرب الماء، وهي تضرب الأرض بحوافرها، وتهز رأسها فرحاً بقدوم سيدها، فصاح عبد الرحمن: «هل اشتقت إلي يا عزيزتي!».

وأخذ ينظر إليها بتعجب. ورجع خطوة أو خطوتين لينظر إلى قوائمها: «ما هذا؟!»

شخص ما نظف الفرس تنظيفاً كاملاً هذا الصباح. لقد مشط شعرها بالزعفران مشطاً جميلاً، من ناصيتها البيضاء الحريرية، إلى قوائمها الرقيقة. وكان جلدُها الناعم يلمع كأنه غسل باللبن. وصاح زيد وهو يشير إلى الخيام وراء الشجر: «إن روض بني زنقل هو الذي هيأها! ليس هناك أحد يعرف الاعتناء بالخيل مثلما يعرف بنو زنقل! فسأله عبد الرحمن: «وبنو زنقل هؤلاء من يكونون؟».

أجاب الطفل: «هم يسكنون على حدة، هم قوم...» وقطع كلامه مرتبكاً. كانت فتاة واقفة بالقرب من العين حيث توجد القِرَب المملوءة بالماء، فتاة عُمرها حوالي الثامنة عشرة. كانت تختلف عن جميع نساء البدو، تلبس ملاءة أخاذة وتضع على رأسها غطاء بألوان زاهية ولباساً قاتماً. وكان لباسها الخارجي من ثوب أسود ملقى على كتفها الأيمن بينما كتفها الأيسر عاري تماماً، وفوقه جرة كبيرة مغطاة بالجلد. وعرف عبد الرحمن أنها من بني زنقل بدون أن يسأل.

كانت عيناها براقة، متفحصة، ثاقبة وجذابة، وعندما التقى بصر عبد الرحمن ببصرها فتحت عينيها الكبيرتين وتابعت نظرتها اليه، ثم حنت رأسها لتملأ الجرة من ماء الخزان. كان شعرها الأسود اللامع على شكل خطوط حلزونية، تنزل على قفاها.

وعندما ملأت جرتها أدارت عينيها وهي تفتش عن عبد الرحمن من جديد، لم تكن طريقتها هذه طريقة غنج ودلال، بل كانت جسورة أكثر من اللازم، وصريحة، وأكثر من ذلك متفحصة وفضولية ومثيرة، كانت جميلة بطريقة مدهشة ومتوحشة. واستدارت بتأني، وأخذت طريقها إلى خيام بني زنقل عبر الأشجار، وهي تختال في مشيتها برشاقة، بينما الجرة المملوءة فوق كتفها.

وقال زيد: «هذه أخت روض شيخ بني زنقل». وخرج عبد الرحمن من بين الأشجار لينظر إلى المجموعة الصغيرة من الخيام. فرأى بعض النساء والأطفال والخيل والجمال والماعز وراءهم. تلك هي أول ماعز يراها في الصحراء. لقد كان هذا مضرباً عادياً لرجل بعيد بقليل عن الواحة. لكنه مختلف عن المضارب الأخرى. فمثلاً، نساء هذا المضرب كن يلبسن ملابس ملونة فوق أخرى سوداء مثل ملابس الفتاة التي رآها قرب العين.

ثم رأى شبحاً منحنياً نصفه مختف تحت الخيام، فرفع ذلك الشبح يده الرقيقة مسلماً وقال: «السلام عليك يا مسافر وعلى فرسك ذات الوجه الأبيض». ذلك زامل بعد أن شوفي من مرضه نهائياً، كان صوت العجوز رقيقاً ومهتزاً، لكنه صوت رجل كامل العقل والصحة.

ومشى عبد الرحمن إلى الخيام وفرسه تتبعه وابتسامة السلام على وجهه. وقعد زامل فوق فروة على المقعد في إحدى أركان الخيمة، وهو الركن الذي يجتمع فيه الرجال. وكان معه رجلان آخران يرتاحان في الظل، بينما صعد الدخان دوائر من النار التي بجانبه. وقال عبد الرحمن لزامل: «إني مبتهج لرؤيتك بصحة جيدة بهذه السرعة». أجاب زامل وهو

يستقيم في جلسته: «إنني أعيش لأرى قومي من جديد، وأرى الربيع يبتدىء في وادي زوران، إنني أعيش بمشيئة الله، ومشيئتك!». قال هذا وهو يرتعش ارتعاش عجوز يملأه الفرح والاعتراف بالجميل.

حينئذ قام فجأة رجل شاب كان جالساً عن يمين زامل، ثم دار إلى الخيمة المقفولة وراءهم وأخرج منها لباساً أسود لامعاً. كان من جلد فهد ولا زالت مخالبه لاصقة وأطراف أرجله مفتوحة. وبمهارة لوح بها وبسطها لعبد الرحمن وقال: «مرحباً بك في خيام بني زنقل - أنا روض شيخ هذا المضرب». كان عمره حوالي الثلاثين سنة. شعره أسود كثيف على شكل دوائر فوق رأسه، كأنها أسلاك الدوالي وعيناه سوداوتان لدرجة أن بؤبؤها تظهر كأنه قد اختفى بينهما. وكان كلبان سلوقيان قاعدان قريباً منه. ذلك النوع من كلاب الصحراء النحيفة الصيادة.

وعندما جلس عبد الرحمن شرد بصره يتعجب فيمن حوله. هناك أشياء جعلت هؤلاء الناس يختلفون عن باقي رُحّل الصحراء: اللباس اللامع الأخاذ على ظهور وجلد الفهد، وجلود الحيوانات الأخرى التي رآها فوق البساط. حينئذ تذكر شيئاً. إنه رأى عدة مرات أشخاصاً كهؤلاء في أسواق دمشق الكبرى، كانوا تجار الخيل، وبائعي جلود حيوانات، وسحرة متنبئين بالغيب، وهؤلاء كانوا دار بوشيفال غجر الصحراء. وبنو زنقل كانت قبيلة من هؤلاء القوم الغريبين المشتتين - ألم يقل الطفل زيد إنه لا يوجد أحد يعرف الاعتناء بالخيل كبني زنقل؟ وفهم الخيل علامة الغجري في كل أرض.

وكان البخارُ يتصاعد من إبريق القهوة الذي يغلي فوق النار. فأخذها روض وصب هذا المشروب الأسود في كأس صغيرة من الخشب وقدمها لعبد الرحمن وقال في جدية: «مرحباً بك».

وأخذ عبد الرحمن الكأس وذاقه، كان المشروب مراً بسبب القهوة غير الجيدة الطهي، لكنها كانت كأس صداقة، وجزيرة العرب منذ غابر الزمن، تقدمها للغريب وهذا يعني أنها جعلته ضيفاً، كانت القهوة محروقة لكن عبد الرحمن نجح في شربها بتأن، ونظر إليه زامل وهو يشعُ من الفرح وقال: «رضي الله عنك يا مسافر، جئت بي إلى قومي من جديد!».

وسأل عبد الرحمن يتعجب: «أهؤلاء عائلتك؟».

فقال روض: «إن جميع بني زنقل عائلة واحدة، إن زامل ابن علي من دم أمي». وضحك عبد الرحمن في نفسه مستغربا أنه لم يعرف أن العجوز من غجر الصحراء. وفي حالة العري التي وجد بها زامل في القلعة، كان من الطبيعي أن يعتقده عربياً أصيلاً. ربما أن العرب هم الشعب الوحيد الذي اختلطت بهم قبائل الغجر واندمجوا فيهم تقريباً.

عندئذ مرت الفتاة التي رآها بالقرب من العين بجانب الخيمة المفتوحة - كان في شعرها الأسود غصن طري من زهور شجر أم الغيلان الصفراء، وتتدلى من أذنيها أقراط من الذهب على شكل هلال، تتأرجح بنغم خفيف وهي تمشي.

وقال روض: «يا زين أحضري الأكل للضيف».

وهزت الفتاة رأسها، ثم نظرت إلى عبد الرحمن مرة ثانية بكل حرية، وبدون أي رادع، ثم ذهبت بين الخيام.

وقال روض لعبد الرحمن: «هل تريد أن تشرّف خيمتي المتواضعة وتتغدى معنا؟».

فأشار عبد الرحمن برأسه موافقاً وقال: «أنا ضيفكم».

وتحرك زامل بتلهف من موضعه وأشار بيده النحيفة اشارات الترحيب وقال: «أقعد، أقعد وكُلْ، ان بني زنقل كلهم إخوان، وأنت صديق بني زنقل».

وجلس عبد الرحمن بارتياح، ثم أخذ ينظر حوله. وانتبه بالخصوص وبكل إمعان، إلى رجل ثالث كان جالساً في المقعد المكشوف.

كان الرجل مسناً، ربما أكبر سناً من زامل - رأسه عاري إلا من شعيرات بيضاء مبعثرة. وملامحه قد غيرتها السنون، وحرثت من جديد بمحراث الزمان، وكأنه أرض بقرب بركة تأثرت بحوافر الدواب، لكن عينيه الضعيفتين كانتا حادتين وثاقبتي النظر، تشبهان عيني الفتاة «زين» ومثل عينيها، كانت عينا هذا العجوز تنظر إلى عبد الرحمن باهتمام شديد.

كانت السفانة ترعى بعض الحشائش المبعثرة فوق الأرض، وراء عبد الرحمن، فأخذت تنبش الأرض بدون صبر. فأتت إلى طرف البساط وجذبت كتفه بفمها طالبة انتباهه فقام ليعاتبها بلطف ويلاعبها، وقال لها: سست! تذكري آدابك».

وقال روض وعيناه الحاذقتان تجوبان حول جسم السفانة الكامل: «إن فرسك ليست من الخيل التي تباع في الأسواق». لا شك أنه انتبه إلى كل عضو منها عندما مسحها.

وهز عبد الرحمن رأسه بضجر وقال: «بعض الأشياء لا تباع ولو بالذهب».

قال غجري الصحراء الشاب: «والله لو كنت مكانك لن أبيعها أبداً».

قال ذلك وظهرت أسنانه البيضاء وهو يبتسم إعجاباً بالفرس.

وإذا بالعجوز ذي الوجه المتجعد يتكلم لأول مرة ويقول فجأة: «ان ابن الوالي لا يبيع فرسه. وانحنى، وتقدم نحو عبد الرحمن، وقال مرة ثانية بتأن، وهو ينظر في عيني عبد الرحمن: «ابن الوالي، ان آثارك بديهية وراءك».

وأشار روض بيده إشارة احتجاج واعتذار قائلا: «سامح عمي».

إن الضيف في جزيرة العرب لا يسأل ولا يطالب أن يتكلم عن نفسه إذا اختار أن يخفي شخصيته. وفي الحقيقة يمكن للضيف إذا اختار ذلك أن يقيم أياماً ثم يرحل بدون أن يقول من هو ولا يسأله أحد عن ذلك. وتغافل عبد الرحمن عن الاعتذار بابتسامة وقال بخفة: «إن عمك يقرأ الغريب بفرسه. لا شك ان ابن الوالي يستحق فرساً كهذه، ولكن سيدها ليس إلا سائحاً في الصحراء. وأومأ روض موافقاً برأسه: «مثلنا نحن». ولوح بيده إلى الأفق وقال: «الله خلق الأرض كُلها للإنسان، فليستعمل ما خلق الله».

ثم جاءت الفتاة زين تحمل طبقاً خشبياً كبيراً مملوءاً بالأرز الساخن واللحم وفوقه سمن

ذائب. وعندما انحنت أمامهم أخذت أساورها الفضية تطن فوق ذراعها العاري، وفي اللحظة التي انحنت بيدها بالقرب من عبد الرحمن، وصلت إلى أنفه رائحة العطر، وهو خليط من رائحة الزعتر الشديدة، ورائحة الورد الحلوة، وعندما ذهبت الفتاة بقيت رائحتها تعبق وراءها.

لقد تعجب عبد الرحمن من عطرها هذا كما تعجب أن يرى الأرز في الصحراء، وهذا الأرز من النوع الثمين أتى بعيداً من أرض العراق، وهو ترف بالنسبة لأبناء الصحراء، وهذا يدل على أن هؤلاء الغجر ليسوا فقراء رغم خيامهم المتواضعة.

ولوح روض لعبد الرحمن والآخرين ليتقدموا إلى الصحن الساخن وقال: «كلوا». وكان مع الأرز نوع من الخبز الخشن الذي يطبخ فوق الرماد الساخن، ثم جلسوا مستديرين حول الصحن، وقطعوا الخبز أطرافاً استعملوها ليغرفوا بها الأرز واللحم. كان الأكل حاراً لذيذ المذاق، عطر بمهارة بالحشائش البرية. واعطى روض قطعاً من اللحم لكل من السلوقيين بالقرب منه. ثم سأل بغتة عبد الرحمن: «هل تريد أن تأتي للصيد معي».

فأجاب عبد الرحمن: «بكل فرح!» إن عبد الرحمن كان مهتماً اهتماماً شديداً بعادات بني زنقل، ولقد سرته فكرة الذهاب إلى الصيد مع روض.

لقد أحب عبد الرحمن في هذا الشيخ الشاب صراحته الفظة.

وقال روض: «طيب! سنذهب للصيد عندما ننتهي من الأكل».

الصيد

وبعد الأكل أرجع عبد الرحمن إلى خيمة الشيخ السرج والقوس والسهام، بينما كان روض ينتظره وهو راكب على ظهر جواد أسود كبير. وكان رمحا صيد طويلين معلقين على ظهر الشيخ الشاب، وكلباه السلوقيان بالقرب منه ينبحان بدون انقطاع.

قال روض وهو يثني على تلهف كلبيه: «ليغسلا خصميهما في الدم!» كان ذلك القول فألاً حسناً في بداية الصيد. وأدار جواده الأسود وخرج من الخيام بسرعة هائلة. وتبعه عبدالرحمن على السفانة.

وعبرا الوادي الفسيح والفرس تسرع بخفة بجانب الجواد، بينما بقي السلوقيان يتبعاهما عن بعد. وبعد الوادي تسلقاً عقبة كأداء توصل إلى الهضاب، وعندما وصلا إلى المنحدر، قاد روض الطريق فوق جواده الأسود، وسر عبد الرحمن بذلك.

وقال بصوتٍ عال: «ليتني لم اخذ الفرس معي، فإنها لم ترتح بعد من مشاقها عبر الصحراء».

ضحك روض وقال: «أنت لا تعرف فرسك، إن حوافرها أخف من نسيم الصباح، إيه!». ثم قاد فرسه عبر آخر عقبة صخرية وعرة قبل أن يصل إلى قمة الجرف.

وبعد لحظة قصيرة كانت السفانة فوق القمة وراء الجواد الأسود بدون أن يدفعها عبدالرحمن إلى ذلك.

وضحك روض مرة أخرى وضرب جوانب الجواد ضربة خفيفة بكعب حذاءه. فوثب الجواد الضخم مسافة فوق الأرض المستوية، والفرس تتبعه عن كثب كأنها ظله.

وعبرا ودياناً أخرى وأخاديد وهما في صعود مستمر، وصارت الطريق أكثر انحداراً حتى أن الصخور كانت تنقلع وتتناثر من وراءهما.

وقال روض: «والله أود أن أرى فرسك تجري على أرض سهلة، لا أريد أن أراهن أن جوادي يمكنه أن يغلبها».

ولم يجب عبد الرحمن بشيء. لكن عندما صعداً إلى قمم الأخاديد اخذ ينظر وراءه إلى الوادي العميق. لقد ازداد ذهوله بجمال المنظر كلما علا وظهر وادي السرحان أكثر وضوحاً. وأمكنه أن يرى من بعيد خيام الرجل الصغيرة في مناطق ظنها أرضاً قاحلة. ولم يكن الوادي الذي نصب فيه قوم روض وقوم الشيخ راشد خيامهم، إلا زاوية صغيرة من وادي السرحان. ورأى عن يساره عدة قطعان من الغنم ترعى في المنحدرات. ولمح عن يمينه غير بعيد، قطيع غنم منفرد ظن انه قطيع الحوراء. ثم غاب عن بصره للحظة قصيرة، عندما عبرا وهدا. ثم عندما طلعا من الوهد فوق قمة الهضبة تأكد فعلاً أن ذلك القطيع قطيعها.

بل أمكنه أن يلمح جسم الراعية النحيل وحدها، كانت قد صعدت هي وقطيعها على هضبة مجاورة لا تقل علواً عن الهضبة التي يقف عليها هو وروض.

ثم أومأ إليها عبد الرحمن وسأل روضاً قائلاً: «هل هذه بنت راشد بن طراد؟» وعندما أكد روض ذلك قال متسائلاً: «أليس من الخطر أن تأخذ فتاة كهذه قطيعها بعيداً هكذا عن الخيام؟» لكن روضاً أبعده عن هذه الفكرة بقوله: «سوف لن يصيبها أي أذى، فالذئب أو الفهد ربما سرق كبشاً أو كبشين، لكنه لن يمس الفتاة، فالغنم في حاجة إلى الرعي، وهذه السنة كانت أمطار الربيع متأخرة، ألم تُلاحظ أن الحشيش قليل وبني اللون؟ لهذا يجب أن تذهب بعيداً لترعى قطيعها».

ثم أدار جواده في اتجاه الفتاة وقال: «ربما نجد الذئب أو الفهد قريباً من هنا حينئذ يمكننا أن نصطاد في هذه الناحية!».

وعبرا التلال في اتجاه الفتاة وقطيعها فرآهما كلباها، وأخذا ينبحان منذرين، وعندما اقتربا من القطيع أمر روض كلبيه بالمكوث بجنبه. ونادى: «السلام عليك يا ابنة راشد ابن طراد». وابتسم، فلمعت أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر.

وقال عبد الرحمن: «سلام الله عليك».

فأجابت الفتاة: «وعليك السلام». كانت تتساءل عن سبب وجودهما هناك وشعرت بشيء من الحياء للاجتماع بهما، ومس روض رمحيه المعلقين على كتفيه وقال: «جئت أنا ومسافر لنصطاد أعداء قطيعك. هل لك علامة تدلين بها عن أي قاتل للغنم في هذه الناحية؟».

وهزت الحوراء رأسها وقالت: «قبل قليل نبح كلبي وراء تلك الصخور، لكنني لم أرَ شيئاً ورجع كلباي راضيين. كانت الفتاة تضع تحت عصابة رأسها عسالج من زهور أم غيلان الصفراء على الطريقة التي تبنتها الفتاة الغجرية زين. وعندما رآها هكذا لم يجد عبدالرحمن بداً من أن يقارنها بزين. فالفتاتان كانتا تختلفان عن بعضهما كاختلاف الصباح عن الظهر، فجمال الفتاة الغجرية كان جمالاً وحشياً، لكن مقارنة الحوراء لا يستخف بها، فجمال الراعية الرشيق، وجاذبيتها جعلتها كالضحى في بهائها، وعندما رآها عبد الرحمن، شعر بالاطمئنان كما كان دائماً يشعر عند انشقاق الصباح على الصحراء الشاسعة. وتدريجياً وبطريقة غير محسوسة تغير ظلام الأرض والسماء إلى حب وحياة. هكذا الآن وقفت الحوراء كأنها ضوء مشرق، وفوقها زهور أم غيلان كأنها التاج. فكانت بقوامها ووجهها جميلة كجمال الصحراء.

وضحك روض مرة ثانية معبراً عن روحه العالية، بينما وثب جواده تحته مرحاً، وقال: سآتي لك بجلد عدوك وأرميه لك على الأرض لتجلسي عليه».

هذا وعد للحوراء. ثم صفر لكلبيه منادياً لهما وأمر جواده بالسير.

واندفع وراءه عبد الرحمن فوق السفانة. لم يودع الفتاة ولم تودعه. لكنه قبل أن يبتعد

بحوالي مائة قدم، استدار بدون شعور فوق سرجه، كانت الحوراء واقفة تنظر إليهما، فرفع يده مودعاً لها، وحينها رفعت يدها ملوحة. ثم تسلقا الصخور والغنم الشاردة تهرب منهما، وتغير المنحدر فازدادت وعورته وكثرت صخوره، ووجد الجواد والفرس صعوبة في التسلق وفوقهما راكباهما وابتعد عبد الرحمن عن روض قليلاً ليترك السفانة تختار طريقها، فاختارت أوعر المسالك كأنها مخلوقة من مخلوقات الجبال، وهي تقفز فوق المطبات الرخوة، وفجأة وجد نفسه على القمة والنجد العالي الممتد تحته.

ثم لحقه الكلبان وبعدهما الجواد الأسود الذي يمتطيه روض، وقال الغجري الشاب بصوت غير مفهوم: «هه» وهو يلمح إلى السفانة بإعجاب. لقد غلبت الفرس جواده في الوصول إلى القمة وظهر عليه الارتياح. وفجأة أخذ رمحيه من على ظهره ورمى بأحدهما لعبد الرحمن، واحتفظ بالثاني مستعداً بيده اليمني، ثم قال: «سوف نصطاد الآن». وأشار روض برمحه ومس جواده مرة أخرى بعقبي قدمه كما أشار عبد الرحمن للفرس بالتقدم كذلك، وان كان لم يرَ شيئاً لأول وهلة، ثم اكتشف قطيعاً من الغزلان الرشيقة تجري على بعد ثمن ميل، ووقفا جامدين بين شجيرات صغيرة، فلم تنتبه لهما الغزلان، وعندما رأى الكلبان الطريدة أخذا ينبحان بلهفة ومددا جسمهما النحيلين استعداداً للانقضاض. فصاح روض بابتهاج دافعاً الكلاب والخيل لتتقدم، وبدون أي إلحاح من عبد الرحمن، تقدمت السفانة عن الجواد الذي تبعها بخطوات واسعة، كانت الأرض مستوية ومتماسكة وملساء، مكونة من تراب بركاني أسود شبيه بالحصى، وبعض الجلاميد السوداء والجزر الصغيرة في الصخر، تقطع استواء الامتداد في بعض المحلات، بينما نبتت شجيرات صغيرة في بقع متباعدة، لكنه كان بالإمكان تجنب الصخر والقفز فوق الشجيرات، لهذا لم يتدخل الكلبان لا في هروب الفريسة ولا في متابعة الصيادين.

كانت هناك أربع غزالات هربت وكأنها مخلوقات خفية تصعد في الهواء. وانقطع الكلبان عن النباح ليحتفظا بنفسيهما للجري متقدمين الفرسين. وضحك عبد الرحمن من أعماق نفسه، ووقف قليلاً فوق السرج ليزيح ثقله عن رجليه، كان رأس الرمح يشق الهواء أمامه، بينما السفانة تجري بسهولة وبدون اجهاد، لم يكن جرب سرعة الفرس بعد لكنه يعرف مدى قدرتها فشعر بثقته بها تنتفخ في حلقه كأنها نشيد النصر.

ثم لمح الجواد المسرع وراءه وأمامه الكلبان يجريان وراء الطريدة، وصاح عبد الرحمن في أذن السفانة قائلا: «اسرعي يا عزيزتي اسرعي!» ولأنها تعلمت أن تطيع أوامر سيدها، فقد استجابت له. وفعلاً ازدادت بسرعة ضربات الحوافر، ومرت الشجيرات والصخور من جانبيه بسرعة البرق.

وصاح روض في جواده قائلاً: «يا للعار! أتتركني اختنق في غبارها؟» ونظر الجواد الكبير إلى الفرس، وحاول الجواب عن التحدي، فقوس عنقه الطويل واستجمع قوة بدنه، ولمدة وجيزة استطاع أن يتبع السفانة جنباً لجنب، لكنها لم تكن إلا لحظة قصيرة، فبرغم

سرعة الجواد، ورغم مجهوده الكبير فقد كانت للفرس طاقة مخزونة، تستجلبها عند الحاجة، جعلتها بطلة في الركض. ثم تباعدت المسافة بينها وبين الجواد.

وصاح روض مرة ثانية في جواده: «يا للعار!».

لكن جواده وصل إلى أقصى طاقته، كان لا يزال له ثبات كبير أكثر مما عند أي جواد آخر في سباق طويل، لكن لم تكن له طاقة للمزيد من السرعة، وابتعدت عنه السفانة أكثر فأكثر.

وانحنى عبد الرحمن على عنق السفانة واخذ ينشدُ في أذنها أناشيد المدح قائلاً: «آه عليك يا نجمة الصباح، ويا بهاء الظهر، ويا تألق الغروب»، وتذكر من جديد صديقه زيداً الذي أعطاه الفرس، فشعر بالفخر يملأ قلبه لكونه عنده صديق كهذا، إنه لم يمتط في حياته فرساً أو جواد كالسفانة.

كانت تركض بسرعة، فعبرا السهل ثم صعدا الأخدود الصخري ووصلا إلى نجد عال مستو نبتت فيه شجيرات صغيرة، وكانت الغزالات الأربع تعدو وهي مجتمعة يقودها غزال واحد، واقترب عبد الرحمن وهو فوق السفانة من الغزلان، بينما كان الكلبان يجريان بالقرب منه. أما روض فابتعد إلى الوراء إذ لم يعد بامكانه المساهمة في هذه المرحلة من الصيد.

وفجأة استدار إلى اليمين الغزال الذكر الذي كان في المقدمة، وكانت الغزلان الثلاثة التي تتبعه، سوف تدور معه، لكن في ذلك الوقت أخذ الكلبان السلوقيان في النباح، فكان نباح الكلاب على أعقاب تلك الغزلان حافزاً لها على السير قدماً. فهربت إلى الأمام، وبذلك انقطعت عن طريق قائدها.

وهمز عبد الرحمن بركبته السفانة فدارت تتبع الغزال الذكر ودار معها الكلبان بكل طاعة وتركا الطريدات الثلاثة لمتابعة الغزال الواحد.

وعندما وجد الغزال نفسه وحيداً ومطارداً، حاول أن يرجع إلى الغزلان الثلاثة، لكن الكلبين تعرضا له عن شماله وقطعا عليه الطريق، فلم يكن له خيار إلا أن يتابع سعيه قدماً بدون أمل هارباً من حياته، لكن مطارديه صاروا قريبين منه الآن. وكانت رقعة من الأدغال في طريقهم جعلت الغزال ينحرف تجاه عبد الرحمن وكان ذلك كافياً ليجعل السفانة تسرع بجانب الضحية. فسارت الفرس والغزال يسرعان الواحد بجنب الآخر، كأنهما على ميدان السباق. لكن الغزال قد خسر السباق كما ظهر في عينيه المرعوبتين.

وكان بامكان عبد الرحمن أن ينحني ليمس ضحيته، وقبض بشدة بيده اليمنى على الرمح لكنه لم يستعمله، فلقد ذهبت عنه فجاة لذة الصيد. وشعر بالشفقة على الحيوان البائس كما كان يشعر بها نحو كل كائن حي يقاسي الشدائد أو يخاف أو يهرب لينجو بحياته.

لكن الكلبين اقتربا ولم يكن لهما شفقة أو رحمة، وتقدم قائد الكلبين من الغزال متلهفاً

للقفز عليه ولعابه يسيل، وفي نفس الوقت وقف عبد الرحمن فوق سرجه وضرب بالرمح من على ظهر السفانة، كانت ضربة رحمة أكثر مما هي ضربة صياد، ولم يكن يريد أن يعض الكلبان لحم الغزال قبل أن يموت، ودخل الرمح خفيفا في جانب الحيوان، ثم سحبه بقوة، جعلت جسمه يميل إلى الوراء. فاذا بالدم الأحمر القاني يتدفق وراء رأس الحربة.

وفي الحين وقع الغزال على الأرض لأن الضربة كانت في قلبه. لكنه قاوم لفترة وجيزة ثم تقلب على ظهره، بينما هجم عليه الكلبان ليأخذا لحمه، لقد صار جثة هامدة.

وعندما وصل روض كان عبد الرحمن قد نزل من فوق فرسه، وأخذ يمسح رأس الرمح لينظفه، بينما السلوقيان مطروحان على بطنهما بالقرب من الطريدة الميتة وهما يلهثان، فقد كان الإنهاك ظاهراً عليهما.

وقال شيخ الغجر: «حسناً فعلت! حسناً فعلت!» لكنه لم ينظر إلا نظرات خاطفة إلى الكلبين وإلى الضحية وإلى عبد الرحمن، لقد كانت السفانة هي التي استحوذت على تفكيره، فثبت عيونه الثاقبة عليها وهو يفحصها باستحسان.

كانت الفرس الشامية واقفة بابتهاج ورأسها مرفوع، ورغم أن رائحة الدم نفرتها وجعلتها محترسة، فإنها ظلت واقفة بانضباط، كانت مناخيرها السوداء متفتحة، وتنفسها هادىء، وعميق وبدون تعب، لقد سبقت الغزال وسبقت الكلبين وسبقت الجواد، وظهرت كأنها لم تتعب قط.

ونزل روض من فوق جواده وأخذ يجس صدر السفانة وجنبيها ويقول: «اسم الله عليها! هذه فرس للشيخ، فرس للوالي، بل فرس للسلطان!».

وأخذ عبد الرحمن يحكُ عنق الفرس بافتخار وعطف، ثم قال بدون انتباه: «إن مطاردة واحدة ليست امتحاناً كافياً للفرس».

وهز روض رأسه معارضاً: «إن الجواد هو الذي كان ممتحناً، كنت أظنه سريعاً، لكنها تركته وراءها كما يترك الصقر معصم سيده!» لم يكن في هذه اللحظة ممكناً إخفاء فضائل السفانة الفائقة على الغجري، وخطر ببال عبد الرحمن أن روضاً تعمد الذهاب إلى الصيد ليجرب طاقة الفرس، ولسبب ما كان شيخ بني زنقل الشاب مهتماً اهتماماً شديداً بها. لكنه شعر بأن روضاً صديق يمكن الثقة به.

ونظر عبد الرحمن إلى عيني روض وقال: «أنعم الله على الأسد بالقوة وأنعم على الفرس بالسرعة، وأنعم على الإنسان بيد أخويه».

ونظر إليه روض نظرة إخلاص وقال: «إن بني زنقل قوم لا ينسون». ثم ذهب وحمل الغزال الميت فوق ظهر الجواد، ليذهب به إلى الخيام.

التنبؤ

وفي تلك الليلة أقام بنو زنقل حفلة، وأصر روض على عبد الرحمن أن يكون ضيفهم، واجتمع الرجال والنساء والأطفال، وعددهم يناهز العشرين، فجلسوا فوق الرمل تحت نجوم السماء، على شكل حلقة دائرة بالنار، وهم يأكلون لحم الغزال المشوي، وكان مع الجمع رجلان من القبيلة، لم يكن عبد الرحمن قد رآهما قبل ذلك، كما كان هنالك روض وزامل والعجوز، الذي قال عن عبد الرحمن إنه ابن الوالي. كان اسمه هشام. وباقي الجمع كان مكوناً من النساء والأطفال. ولم يكن بنو زنقل مسلمين كاملي الإيمان، لأنهم لم يكونوا يتورعون عن شرب الخمر. فقبل أن ينتهي اللحم، أخرج روض قربة من جلد وقدمها لعبد الرحمن، كان فيها شراب نحل مخمر. ورفض عبد الرحمن أن يشرب فلم يلح عليه روض، لأن شرب المسكرات ينافي شريعة الرسول. فشرب الشيخ ثم قدم القربة للرجال ليتداولوها فيما بينهم. وقال بكل بساطة: «كان آباؤنا يشربون الخمر منذ عهد نوح، أكانوا كلهم على خطأ؟».

وذهب طفل مسرعاً إلى الخيام، ثم رجع وبيده آلة طرب، فأعطاها بتلهف لروض، وضحك روض وأطلق العنان لضحكاته، وضرب نغمة على وتر واضح، كان اسم الآلة الربابة يستعملها رجل الصحراء من قديم الزمان.

وصفقت الأيدي بكل فرح، ووقفت فتاة ترقص وتبعتها أخرى، بينما أخذت الفتيات الأخريات يصفقن أو يضربن على فخذهن، ووضع روض الربابة، في حضنه وأخذ يعزف لحناً بدائياً على سلم موسيقي لا يزيد على ست نغمات، كانت موسيقى جافة تصحبها نقرة تفور الدم في الشرايين، وتحدد سرعة الرقص.

وكانت الفتاتان أقرب منهما إلى الطفولة، فهن غير ناضجات في الشكل وفي الحركة، لكنهما كانتا ترقصان برشاقة وخفة لا شعورية، كان الرقص متأصلاً في دم الرجل. لهذا ظهرت النشوة على وجه الكبير والصغير، بينما هزات الرؤوس وتصفيقات الأيدي تساير وزن الموسيقى. ورقصت الفتاتان وعزف روض لمدة ساعتين، حتى انتهت الفتاتان فجأة من الرقص، وانطرحتا على الأرض بدون نفس. وكان زامل ابن علي يصفق بفرح وسرور، لقد أصبح يختلف تماماً عن ذلك البائس الذي رآه عبد الرحمن بالقلعة وهو قريب من الموت، وصاح قائلا: «انني كنت افتقد هذا النشاط، لقد رأيت نساء ورجال مائة قبيلة يرقصون وذلك من هنا إلى جبل طارق، وأرض الاندلس عبر البحار، ولكن في الأخير اشتاق قلبي إلى قومي، بل حتى إلى اطفال بني زنقل. ثم استدار إلى روض متسائلاً: «قل لي يا شيخ الا يزال قوم الصحراء يحتفلون بالمعزبة ذلك الاحتفال الذي يُقام في الربيع في

وادي السرحان؟».

وهز روض رأسه قائلاً: «بعد عدة أيام يا عم فإن القبائل قد اجتمعت الآن، فلسنا ننتظر إلا مطر الربيع، لينشر الخضرة والبهجة على الأرض».

ووضع زامل يده على كتف عبد الرحمن بتلهف وقال: «يجب أن ترى هذا يا مسافر يوم السلام في وادي السرحان، ذلك اليوم الذي يترك فيه كل الأعداء عداوتهم، ويأتون هنا للاجتماع والتسلية، فيقومون بمسابقات في تجربة مهارتهم في القوة، وركوب الخيل بالرماح، وسباق الجمال والخيل».

وخطر بفكر عبد الرحمن خاطر، فلمح إلى روض - ففهم الشيخ ما بباله وابتسم بدهاء وقال: «في ربيع كل سنة تجتمع القبائل هنا في وادي السرحان. وحينئذ يقومون بسباق الخيل، فيقارنون بين أسرع خيل من كل قبيلة، ويمنحون كثيراً من الشرف والذهب للمتفوقين». وهز رأسه مرة ثانية مجيباً نظرات عبد الرحمن المتسائلة وقال: «نعم، وأنا لذلك أجريت جوادي مع فرسك إنني لم أرَ في حياتي مثلها!».

وقال عبد الرحمن: «إن فرسي لن تهدد خيلكم، فسوف لا أدخلها للسباق».

وظهر مع ابتسام الدهاء على وجه روض ظل لطيف وقالك «وما الخطر من نجاح فرسك؟ ألست ضيف بني زنقل، سوف نكسيها ذهباً بأنفسنا إذا تأكدنا أنها ستشترك في السباق».

وهز عبد الرحمن رأسه مؤكدا قراره: «سوف لا أدخلها للسباق».

وفتح روض ذراعيه باسطاً يديه، وهو يقبل قراره هذا وقال: «الخيار لك» وفجأة، وبأدب، غير موضوع الكلام فقال لزامل: «يا عم ان الاحتفال بقدومك لا يسمى احتفالاً حتى ترى امرأة من بني زنقل ترقص يا زين؟» وأخذ الآخرون ينادون اسمها: «يا زين».

وقامت الفتاة للرقص ورمت برأسها إلى الوراء، فانسدل شعرها على ذراعيها العاريتين المتزينتين الرقيقتين، ووقفت جاثمة، ثم أخذ جسمها يتحرك على دقات موسيقى روض. وابتعدت عن النار وأخذت تدور راقصة.

وأخذ روض يعزف على الربابة، وفي الوقت نفسه، كان طبل ينبض بدقات كدقات قلب، أتى به أحد الأشخاص، فوضعه بين رجليه وبدأ يضرب عليه بيده المفتوحة.

فالطبل والربابة كانا ينتجان موسيقى بدائية لا تصنّع فيها كرمال الصحراء، تتحرك بتموجات كتموجات كثيباتها، وكان سحر الموسيقى يملأ الجو في دائرة حول النار، إن هذه الموسيقى قد هزت مشاعر الرجال منذ ذلك العهد القديم، الذي أخذت فيه النساء ترقص حول ضوء النار الخافت، وجعلت نفسها مشتهاة.

أما زين فكانت امرأة من نار، كانت جمالاً حياً يتحرك. ساقاها تتموجان بايقاع باهر في الليل، وخصرها وشاح قرمزي في دوامة، ويداها وذراعاها تثيران النار والليل والرمال والسماء، كانت تتمايل وتدور وتنزلق، كأنها في مطاردة لا نهائية مع جدول الموسيقى

الملتوي التي تأتي من الربابة. كان في رقصتها سحر. وبدت كأنها غموض ووهم لا نهاية له. ولم يكن يشدها إلى الأرض على مدار حلقة حول النار، إلا ضربات الطبل المترددة: فكان ذلك الطبل هو الذي يذكرنا أنها امرأة عوضاً عن حلم باهر.

ورقصت، ولم يعرف أحد كم طال رقصها. كانت الحلقة حول النار مكاناً منفصلاً عن الزمان، وأخيراً عندما انتهت من الرقص بدوران سريع ومتراخ غاصت من جديد في صفوف النساء الجالسات فوق الرمل، وتركت الليل في نشاط كأن شبحها لا زال يرقص في الظلام، أو كأنها لم ترقص هي نفسها، كانت كأنها جنية أو عفريت خرج من الأرض ورجع إليها من جديد.

فجذب زامل يد عبد الرحمن وقال: «يا مسافر ستذكر هذا عندما تصير عجوزاً مثلي، ستذكر رقص فتاة من بني زنقل في هذه الليلة!» كان يتكلم كمن فقد وعيه افتخاراً بقومه.

وقال روض: «وان شاء الله سترقص ابتهاجاً بفوز بني زنقل في السباق».

وسمع صوت يقول: «إن الفرس ذات الوجه الأبيض ستنتصر. فرس الرجل الغريب».

كان ذلك الصوت هو صوت هشام الغجري العجوز المتجعد، الذي كان جالساً بقرب زامل. كانت عيناه الغارقتين تحدقان بشدة في وجه عبد الرحمن.

وقال روض: «يا عم إن ضيفنا قال إنه سوف لا يشرك فرسه في السباق».

وهز العراف الغجري رأسه المنحني وقال: «الفرس ذات الوجه الأبيض هذا قدرها وقدره، وأشار إلى عبد الرحمن بسبابته المعوجة بآثار السنين وقال: «لا مناص لأحد من قدره».

أخذ روض يجول بنظره بين هشام وعبد الرحمن، وقد أثار اهتمامه بوضوح ثم قال بتأن مستقصياً عبد الرحمن: «إن لعمي مواهب خارقة في التنبؤ كما لكثير من أفراد قومي، دعه يخبرك عما يخبئه لك المستقبل.

كان في عيني هشام الغارقتين ميزة من ميزات الإخضاع، وفجأة شعر عبد الرحمن بأن العجوز يمكن حقاً أن يتنبأ بالمستقبل، وكما أن الناس كلهم يريدون أن يعرفوا مصيرهم فإنه هو كذلك شعر بهذه الرغبة وقال: «فليخبر».

واقترب روض من العراف قليلاً وقال لعبد الرحمن: «اقترب منه».

واقترب عبد الرحمن وجلس قبالة العجوز. كان يتوقع من الغجري أن يقرأ كفه، أو يقرأ إشارات يكتبها فوق الرمل، لكن هشاماً لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أخذ يد عبد الرحمن ووضعها بين يديه، وبدأ يحدق بدون وميض في وجهه وتحولت النار من شعل إلى جمرات فخيم الظلام على الرجال. وجثم هشام على الأرض ووجهه في ظل النار. وعندما تكلم ظهر صوته عميقاً كأنه يأتي من بعيد، بعيداً عن ضوء النار. كان صوته منخفضا وفي حلقه صفير لكن كلامه واضح وقوي كصوت الريح يأتي من بعيد.

وقال: «إن قدرك راكب معك يا مسافر. فالطريق طويلة، أراها خلفك وأراها أمامك.

وظل الموت راكب معك إلى بعيد، بعيد جداً!».

وبدون شعور أوقف عبد الرحمن تنفسه، وتغير صوت هشام إلى همس عندما قال: «أرى الشروق والغروب والصحراء. أرى الفرس ذات الوجه الأبيض تجري والسيف خلفها. أرى الماء، الماء الكثير، وأرض وراءه. أرى الأعلام والسيوف، سيوف كثيرة براقة مشرعة كأنها في ساحة قتال، وأصوات تصيح: «عشت! عشت!».

كأنهم يكلمون زعيم جيوش!» وأطلق هشام يد عبد الرحمن. لقد انتهى تنبؤه. وتبع هذا الكلام هدوء كامل، وشعر عبد الرحمن بدقات قلبه تنبض بقوة، فكلمات تنبؤ هشام الأولى روعته، فعلاً كان ظل الموت يسافر معه، لكن كلمات العجوز الأخيرة ظهرت كأنها خيال جامح. لكن كيف اقترب الغجري هذا القرب كله من الحقيقة، إن لم يكن ذلك ضرباً من الإلهام.

ثم برز جواب في خاطره فسأل هشام: «قل لي يا عجوز ، هل رأيت في تنبؤك لون الأعلام؟».

فهزَّ هشام رأسه بوقار: «كانت أعلاماً بيضاء».

بيضاء! فذلك لون أعلام عائلة عبد الرحمن. أما لون أعلام أعداءهم فهي سوداء. لا شك أن هشام خمّن شيئاً عن هويته. ربما رأى أحد الخلفاء السابقين ولاحظ شبه العائلة في وجه عبد الرحمن، وبما أنه يعرف اضطهاد العباسيين للأمويين فإنه خمن الباقي. حتى هنا في هذه الصحراء لم يكن بوسع عبد الرحمن أن يُخفي نفسه.

وحاول عبد الرحمن أن يُظهر الامبالاة بما جرى، فقال: «معنى هذه الأشياء يفوق إدراكي».

وقال روض متأملاً بصوت عال: «أرض عبر الماء، ربما هي الأندلس». لا شك أنه أخذ هذا التنبؤ بجدية، ثم ظهر في صوته تعجب وشيء من الرهبة حينما قال: «وستصير زعيم جيوش».

وهز عبد الرحمن رأسه وقال: «لست بتابع أية نجمة حرب».

ونظر هشام مرة أخرى إلى عبد الرحمن وقال له: «سوف تتذكر قولي عندما تفوز الفرس ذات الوجه الأبيض في السباق».

عندئذ اقتنع عبد الرحمن أن تنبؤ الغجري خال من الحقيقة، فالسفانة سوف لن تفوز في السباق لأنه لن يشركها. فتنبؤ هشام للمستقبل كان محض خيال بناه على تخمينه الذكي أن عبد الرحمن هو ابن من بني أمية.

وتضايق عبد الرحمن لهذه الفكرة الأخيرة، فهذا يعني أن سره لم يبق مختفياً كما أراده أن يكون، فوقف حينئذ ليودعهم شاكراً لهم حسن ضيافتهم.

ووقف روض أيضاً وقال بصوت عال ليسمعه الجميع: «يا مسافر لقد أكلت اللحم والملح مع بني زنقل، وجلست ضيفاً بقرب نار بني زنقل، أنا روض أقول إنك أخ لبني

زنقل! فعين الله ترعاك».

وعلا صدى أصوات الكبار والصغار من حول النار قائلين: «رعاك الله! رعاك الله!» عندئذ فهم عبد الرحمن ما أراد روض فعله بقوله هذا.

لقد كرر على مسامع قبيلته عبارات الضيافة، فعبد الرحمن صار ضيفهم، لهذا فسلامته صارت مقدسة عندهم، ولن يلحقه شر ما دام مع بني زنقل.

وعندما استدار عبد الرحمن للذهاب، رأى زين جالسة مع النساء بالقرب من ضوء النار، فعندما كانت ترقص لم تنظر إليه، أما الآن فهي تلاحظه، كانت شفتاها تعبران عن ابتسامة لطيفة، ورأسها مرفوع بافتخار، فهي تعرف النار وتتجيد الرقص عليها، بالإغراء الذي يوحيه جمالها. وعندما ترك الجمع واتجه عائداً إلى الواحة وخيام الشيخ راشد، كان لا زال يتخيل شبحها المشرق من وراءه.

وعندما رجع وجد السفانة حيث عقلها على طرف أشجار الواحة، فأراد أن يرويها مرة أخرى قبل أن يتركها ترتاح الليل، لم يكن يتوقع أن جلوسه مع بني زنقل سيطول كل هذا الوقت.

فربت على وجهها وقال: «عزيزة». ثم فك عقالها، فحكّت أنفها على خده وفتشت عن يديه طالبة الأكل، فضحك ووضع يده على عنقها ليحكه بلطف، لكنه عندما وقعت يده على عرفها، وقف بتعجب، فشعرها الطويل جدل ظفائر.

وقال متعجباً: من فعل هذا؟ فعرفها لم يتركه ظفائر عندما ذهب عند بني زنقل، وأخذ يُفكر، فهذا لا يمكن أن يكون عمل الأطفال، عندئذ لمح شبحاً نحيلاً يتحرك نحو البركة، وباندفاع مفاجىء صاح متسائلاً: «الحوراء! الحوراء» فتلكأ الشبح بين الأشجار لحظة ومشى بضع خطوات ثم وقف وانتظر.

فقال عبد الرحمن: «هل أنتِ الحوراء؟».

لم تجب، لكنه عندما اقترب رأى فعلا الفتاة الراعية. كانت تحت ظلال النخيل في تلك الليلة القمرية. فعرفها من شكلها كما عرفها من وجهها.

وقال: «انتِ التي ظفرت عرف فرسي».

فأجابت الفتاة مفسرة: «الأن، لأنها كانت وحيدة، وجدتها هنا عندما جئتُ إلى خزان الماء. فجلست معها، ولعبت معها لحظة، ثم ظفرت شعرها، هي لطيفة جداً».

وأخذ الفرس إلى ضفة البركة حيث كانت تتلألىء النجوم، كأنها سماء أخرى تحت أرجلهم، وأحنت السفانة رأسها لتشرب فأومضت النجوم تحت تموجات الماء حول فمها، ووقفت الحوراء بقرب النخيل تراقبهما.

وقال عبد الرحمن للفتاة: «سوف أتذكرك دائماً كلما رأيت ماء كهذا. سوف لن أنسى مدى حياتي انك أنت الأولى التي أعطيتني الماء بعد أن عبرت الحمد».

ولم تجب الحوراء. كان وجهها مختفيا في الظلال تحت الشجر، كما أن الظلام جعل

من أفكارها لغزاً صعب الحل.

وانتهت السفانة من الشرب فرفعت رأسها الأبيض مفتشة عن عبد الرحمن، وفجأة تحركت الحوراء وقالت: «يجب أن أذهب الآن وأنسلت بخفة بين الأشجار، وبسرعة لم تترك لعبد الرحمن المجال أن يقول لها: «تصبحين على خير».

وكان فم السفانة بارداً ومبتلاً على وجه وعنق عبد الرحمن فقال لها: «تعالي يا عزيزتي لنذهب وننام نحن كذلك، يجب أن نستيقظ باكراً في الصباح، غداً سنقول للشيخ راشد، إننا نحن كذلك سنذهب لنرعى غنمه».

القاتلة رفيقة القاتل

تأخرت الأمطار المتوقعة في تلك الأيام، فذهب عبد الرحمن إلى الهضاب المجاورة لوادي السرحان ليرعى القطعان، ووفاء بوعده؛ عرض على الشيخ راشد خدمته. وفي أول وهلة رفض الشيخ أن يتركه يرعى قطيعه قائلاً بأن هذا لا يليق بالضيف. لكنّ عبد الرحمن أصر على موقفه، وبما أن الشيخ وجد نفسه في حاجة إلى من يعينه في الرعي، فقد قبل عرض عبد الرحمن على مضض.

وفي أول يوم من رعيه، مكث عبد الرحمن بقطيع جماله بالقرب من الخيام، لأنه لم يكن من الضروري للجمال أن تبتعد كثيراً للتفتيش عن أكلها الخشن. لكن في تلك الليلة، رجعت الحوراء وقد فقدت غنماً من قطيعها كان قد تاه فقتلته الذئاب. وفي اليوم التالي ذهب عبد الرحمن معها عندما أخذت من جديد القطيع إلى الرعي.

وكان من المفروض أن يكون هذا الترتيب مؤقتاً فقط، فسرعان ما ينزل المطر من جديد وينبُت الحشيش بالقرب من الخيام، وينتشر الخضار، عندئذ، يمكن للغنم أن ترعى قريباً من الواحة. لكن السماء لم تمطر. وأصبح من الضروري أخذ الغنم بعيداً فوق الهضاب. وهكذا وجد عبد الرحمن نفسه مع الراعية كل يوم.

ففي كل صباح كان يستيقظ باكراً ويذهب مع الحوراء لرعي الغنم، يصحبهما الكلبان، ويذهبوا جميعاً بالقطيع فوق الهضاب. وعند انقضاء النهار يرجعان مغبرّين عطشانين للراحة وللماء من جديد، ثم ينامان في الخيام طيلة الليل.

وربما بدا لأناس آخرين، أنه من الغريب أن يخرج شاب وشابة، في كل يوم للرعي وهما لم يلتقيا إلا منذ مدة قصيرة، وعبد الرحمن نفسه الذي كان يرى النساء أكثر تقيداً، ما كان يقبل بهذا في حياته الماضية. لكن هُنا في الصحراء، كان من الأشياء العادية، فالبدو يعطون نساءهم الحرية التامة، وتصرف بنت الشيخ كالحوراء لن يكون إلا بعيداً عن كل تأنيب.

وكانت السفانة تذهب مع عبد الرحمن، فقويت واستراحت بعد محنتها عبر مجاهيل الصحراء. كان الرعي قليلاً، لكن عبد الرحمن يحمل دائماً معه كفاية من الماء في القرب، فازدهرت السفانة في هذه الحياة المتقشفة والمريحة في نفس الوقت.

كان عبد الرحمن يومياً مع الحوراء، لكن بطريقة ما كانت تظهر الراعية كأنها تزداد تحفظاً بحضره. والغريب أن عبد الرحمن نفسه شعر بشيء من هذا التحفظ فعندما كانت الغنم مشتتة في المرعى كان هو والحوراء على مرأى من بعضهما، لكنهما كانا بعيدين كل البعد، وبهذا كل واحد منهما كان متحفظاً بعزلته وسرية أفكاره.

ومرت الأيام بدون أي حادث، وكأن الذئاب المغيرة فوق التلال عرفت وجود رجل بأسلحته يحرس القطيع، فبقيت بعيدة عنه.

وفي كل يوم يبتعدان أكثر فوق التلال، وكانت الرحلة الصباحية والمسائية طويلة على الغنم، لكن لم يكن منها مناص.

وقال راشد يوماً معتمداً على حكمة سنينه الطوال وصدق معتقداته: «ستمطر السماء قريباً».

لو لم يكن هناك أمل في نزول المطر عن قريب، لرحلت الخيام كلها إلى مراعي أخرى. ورغم قلة المرعى، فقد كانت الواحة هي التي تربطهم بهذه الناحية. فماء البركة كان أحسن ماء في المنطقة وما انقطع قط، فبالنسبة للحيوانات لم يكن لوجود الماء مشكلة، لكن المشكلة كانت في وجود الكلأ والعشب.

كانت هضاب السبق تقطع شمال الواحة متقطعة وعرة تقع بين منحدرات ملتوية ووهاد، وفي الأيام الأخيرة من أيام الجفاف، كانا يرعيان القطيع في هذه الهضاب. وهناك التقى عبد الرحمن بالقاتلة رفيقة القاتل كما سماها روض بعد ذلك. كانت الغنم مجتمعة، ترعى على طول جانب من إحدى الشعاب، تحرسها الحوراء وكلباها، بينما كان عبدالرحمن فوق الهضبة راجلاً ليطل على أوسع منطقة ممكنة.

كان مشهد الوادي هادئاً في ذلك الوقت، وبقيت الغنم مجتمعة إلى جوانبه، بينما نام الكلبان على بطنهما كما تفعل كلاب الرعي، كانا يقظين ومستعدين لكل الأوامر.

كان الوادي هادئاً، لكن المرتفعات ظهرت وعرة ومقفرة. وفكر عبد الرحمن من مركزه المطل أن الغنم لا يجب أن تتعدى ذلك المكان. واندفع فوق قمة الأخدود ليكتشف أطراف الوادي، وحمل في يده رمحاً طويلاً وعلق على ظهره قوسه وكنانة من السهام. وانقطعت الطريق في إحدى المحلات، حيث نشأت صخور عالية قطعت استمرار الأخدود. فاضطر أن ينزل من القمة ويدور حول ذلك النتوء الصخري. وعندما رجع للقمة من جديد اكتشف أن آخر الوادي تحته ممر ضيق.

كان الجو حاراً ومضايقاً. فذكره بيوم من أيام الزوبعة في وسط الصحراء. فمسح جبينه بيده، وأخذ ينظرُ إلى السماء، كأنه يبحث عن شيء.

كان في الأفق سديم، ولم تكن هناك غيوم، وعندما نظر تحته من جديد رأى حيواناً يتحرك بخفة بين صخور الوادي، وحيواناً آخر يتبعه فأخذ يحدق بتعجب فلمح فهدين صغيرين ليسا أكبر بكثير من جروين.

رآهما ينظران إلى الغنم، وإلى بعض الخراف التائهة، التي ترعى مسافة لا تقل عن ١٥٠ قدم منها. وكانت الحوراء والكلبان مع معظم الأغنام في وسط الوادي، غير شاعرين بالخطر. ومد عبد الرحمن قوسه بهدوء وأخذ سهماً حديدياً من كنانته، فلم يكن يصدق أن يكون جروا الفهود وحدهما، ومع ذلك لم يشاهد فهداً كبيراً معهما.

وعندما صوب السهم في القوس استعداداً للرمي تردد لحظة، وهو لا يدري ماذا يفعل. إذ لا يستحق الفهدان الصغيران الضرب بهذا السهم. وتأكد أنه لا بد أن يكون هناك حيوان أكبر وأكثر خطراً، مختبئاً في مكان ما، لكنه لم يره بعد.

وفجأة جعله تحرك أحد الفهدين الصغار يشد العزم، فجثم الفهد بتلهف وراء صخرة وجمع نفسه وعيناه محدقتين على غنمة قريبة منه، وكان لعبد الرحمن خبرة كافية بصيد فصيلة النمر ويعرف طرق تصرفاتهم. ورغم صغره كان الفهد مستعداً للهجوم. فلم يبق لعبد الرحمن الوقت إلا ليشد السهم ويتركه ينطلق. وفكّر لا شعورياً وهو يترك وتر القوس أن يصوب السهم منحدراً في اتجاه الوادي. وظهر الفهد كأنه يقفز لتلقي النشاب.

وضرب السهم الفهد الصغير في جنبه، فأخذ يصرخُ من الألم والتعجب، وهو يعض السهم الذي دخل في لحمه، ثم وقع فوق الصخور يتخبط في دمه.

وبصرخة وحشية مليئة بالغضب والقوة خرجت أم الفهد من مخبئها. كانت غائبة عن بصر عبد الرحمن تحت مجموعة من الصخور فقفزت حوالي ست قفزات قبل أن تصل إلى ابنها الجريح.

وأخذ الغنم رعب كبير. فهربت كلها وهي تثغو إلى وسط الوادي. واتجه الكلبان نحو الفهود ليدافعا عن القطيع.

وأخذت أم الفهد ابنها الجريح من قفاه واتجهت به إلى الصخور، فوجه عبدالرحمن بسرعة سهماً آخر، لكنه أخطأها، أما الفهد الصغير الآخر فقد هرب.

وأخذ عبد الرحمن يصيحُ ويلوّح بيده آمراً الكلبين أن يرجعا: «ياه! ارجعا!». لو ظفر بهما الفهد لقتلهما.

وانتزع عبد الرحمن حربته وفتش عن طريق ينزل من جوفه.

فوصل الكلبان إلى الصخور، لكنهما وثبا بعيدين عندما وثبت الفهدة في اتجاههما، كانت سريعة، لكن الكلبين أسرع منها، وبدون خوف كانا يهددانها مكشرين عن أنيابهما، ولم يتركا لها الفرصة، حتى تستولي على أحد منهما، متحاشيان مخالبها الهائلة بأعجوبة وبشيء من الحظ والبراعة.

وأخذت الحوراء تجري لتنقذ كلبيها وهي تصيح: «سوقي! غول!».

فصرخ فيها عبد الرحمن قائلاً: «ارجعي! يمكن للكلبين أن يقتلا وأنت كذلك!». وأخذ قوسه من جديد لرمية أخرى.

وعندما سمعت الفهدة صوت رجل، استدارت تتحقق من مكانه، فتعجبت لوجود عدو آخر هناك، لأنها لم تكن قد انتبهت له قبل ذلك. فاستدارت ووثبت بين الصخور. وتبعها الكلبان ينبحان بجنون وغضب.

واقتربت الحوراء غير منتبهة لما حولها قلقة يائسة على كلبيها وهي تصيح: «سوقي! غول!».

وعبد الرحمن يصرخ بصوت أجش: «الحوراء!» وأخذ الرمح واندفع مسرعاً إلى حيث يمكنه النزول إلى تحت، وقذف رمحه في اتجاه الوادي، وتبعه بقوة وهو يصرخ: «الحوراء!» وفرسه تنزلق بين الصخور وتتماسك لتخفف من سرعة انحدارهما. وأمكنه القبض على قوسه بيده، بينما قاد فرسه باليد الأخرى، لكنه في آخر الخمسة عشر قدماً من الوادي، انزلق ووقع على الأرض، وتدحرج بينما أخذ وابل من الحجارة المتناثرة يقع عليه، ووقعت كنانته من على ظهره وتناثرت السهام، فانتزع سهماً منها وأخذ الحربة كذلك.

وصاح «الحوراء!» وهو يجري نحوها.

كانت الحوراء تلهثُ عندما وصل إليها وقبض بذراعها وقال: «الكلبان سيقتلا ابتعدي». ودفعها بعنف إلى الوراء، بينما تقدم هو خطوتين حاملاً الرمح والقوس والكنانة.

وكان ركام من الصخور المتكسرة مجتمعاً تحت الجرف، وبين تلك الصخور، كانت الفهود واقفة، فأخذ الكلبان الغاضبان يتقدمان ويتأخران نحو الفهود وهما ينبحان بدون انقطاع.

في أول وهلة لم يستطع عبد الرحمن أن يعين مكان الفهود. وفجأة رأى الأم جاثمة على صيد، وهي تزمجر بحقد على الكلبين منتظرة بعينين ملتهبتين اقترابهما لتثب عليهما.

فأوقع عبد الرحمن حربته وكنانته على الأرض عند رجليه، ووتر سهماً، لم يكن الفهد يبعد عنه إلا حوالي خمسين قدما، فصوب سهمه على رأس الفهد وأطلقه. فارتطم رأس السهم الحديدي بالجرف حوالي شبرين فوق ظهر الفهد فتطاير السهم أطرافاً متناثرة، فأخذ الفهد يخدش الصخر حيث ارتطم السهم. وقد برزت مخالبة مستعدة لأن تنهش أي شيء يقترب منها.

وفي الحين، أعد عبد الرحمن سهماً آخر. وانتظر لحظة ليثبت نفسه مغيراً رجله إلى وقفة أركز. ثم أعد القوس ووتر السهم، وصوبه، ثم أطلقه.

فأصاب السهم الفهدة بين حنجرتها وكتفها، وكان ألماً وناراً هيجت غضب الفهدة إلى درجة الجنون، فوثبت باندفاع وهي تزأر نحو الكلبين.

وهذه المرة لم يساعد الكلبين الحظ، فأخذ واحد منهما يصيح ألماً عندما هشمت مخالب الفهدة ظهره، ثم انتصبت ومخالبها بارزة، وأنيابها متكشرة، لضرب الكلب الآخر. وبينما انتهت من تحطيم الكلب إصابها عبد الرحمن بسهم آخر من مسافة لا تزيد على ثلاثين قدماً.

عندئذ استدارت بكل قوتها نحوه، واقتربت بسرعة كبرى، لم تترك له المجال إلا لرمي قوسه والتشبث بحربته ومن حسن حظه كان رأس الحربة في اتجاه الفهد، فجثم عبد الرحمن على ركبته، ويده، وغرس مؤخر الحربة في الأرض منتظراً وثبة الفهدة، وثبت فنزل جسمها المسرع على رأس الحربة الحديدي.

فدخلت الحربة في صدرها، كان عمقها كبيراً بسبب قوة الوثبة.

ومال عبد الرحمن جانباً. وانطبح على الأرض، وتدحرج، ثم وقف على رجليه، فاخرج خنجره من غمده، لكن ماذا عساه أن يفعل بالخنجر؟. إنه سلاح ضعيف في يده ضد الوحش الضاري، لم يحتج إليه، لقد تكسر الرمح، لكن بعد أن دخل رأسه في جسم الفهدة، فسقطت تلتوي على الأرض وهي في آخر رمق، محاولة أن تقاوم رأس الحربة المتكسر في جسمها وهي لا تزيد جسمها الدامي إلا اتساعاً. وبينما عبد الرحمن يراقبها، اخذت قوتها تضعف، ووحشيتها تخف عن وجهها. وفجأة اهتزت بتشنج ووقعت على الأرض جثة هامدة.

وجمع عبد الرحمن قوسه وسهامه، لقد صعب عليه تصديق موت الفهدة، فمنذ لحظات كانت رهيبة في قوتها ووحشيتها.

ووجد الحوراء بقربه، ووجهها شاحب لهول الحادث وهي تقول: «أأنت بسلام!» وتنظر نظرات رعب، تارة إلى عبد الرحمن، وتارة إلى جثة الفهدة الضخمة، وقالت: «كنت ستقتل».

وأجابها: «وكنت ستقتلين».

فقالت معاتبة نفسها والدموع في عينيها: «ما كان يليق بي أن أجعلك تُخاطر بحياتك. كان بوسعك أن ترميها من فوق القمة بأمان».

كان كلامها معيناً لها على تهدئة أعصابها.

وأخذ عبد الرحمن بذراعها النحيف مواسياً وقال: «كنت سخيفة بجريك وراء الكلبين، لكنك شجاعة كذلك «فهزت رأسها، واستندت إليه وهي منهوكة من شدة التوتر، ثم قالت: «والكلبان كيف حالهما؟».

فالكلب الذي ضربته الفهدة كان واقفاً على أرجله لكنه صار أعرج، أما الآخر فكان مستلقياً على الأرض لا يزال على قيد الحياة، لكنه مجروح جراحاً عميقة وغير قادر على الوقوف، وقد يكون من الرحمة القضاء عليه وعلى آلامه، وهز عبد الرحمن رأسه مؤكداً خشية الحوراء عليه.

فأخذت تبكي بكل قواها: «غول! غول!». وانحنت بلطف على الحيوان الجريح وسألت: «أليس له أمل؟».

فوضع عبد الرحمن يده على كتفها النحيف المرتعش وقال لها بلطف: «إن جروحه داخلية، ألا ترين، أنظري الدم يخرج من فمه».

وإذا بصوت يقول: «مسافر! أعندكم مشكلة؟

فرفع عبد الرحمن بصره في اتجاه النداء. إنه روض ومعه رجل آخر من بني زنقل يحملان الحراب والأقواس للصيد، وكانا قد خرجا من إحدى الشعاب الضيقة التي تؤدي إلى الوادي.

عندما اقترب الشيخ الشاب رأى جثة الفهد وقال: «آه! التقيت بها قبلنا، لقد تبعنا

آثارها وشبليها بين الصخور كل العشي».

وأشار عبد الرحمن إلى حطام الصخر تحت الجرف وقال: «إن شبليها هربا في ذلك الاتجاه، أحدهما ضرب بسهم، وسوف يكون من السهل متابعته».

وذهب الغجري الآخر يفتش بين الصخور، بينما انحنى روض على جثة الفهدة يتأملها وقال: «القاتلة رفيقة القاتل».

وأخذ برأس الحربة المتكسر وقلّب جثة الفهدة.

وقال: «فعلت كصياد من بني زنقل. فتلك الحربة لم ترم، لكنك مسكتها ضد وثبتها، ويا لها من وثبة لتدخل الحربة في كل هذا العمق!».

فأجاب عبد الرحمن ببساطة: «لم يكن لي خيار، لقد هجمت عليّ الفهدة بكل قوتها، ولم يكن بوسعي إلا استعمال الحربة».

وسمع صياح وزئير واضطراب بين الصخور، لقد وجد رفيق روض الشبل الجريح فضربه بالرمح فقتله، فأخذ الكلب سوقي يهتز وهو منتصب على ثلاثة أقدام، لكن الشبل الجريح قتل بسرعة.

وأشارت الحوراء إلى الكلب الجريح وسألت روضاً: «ما مدى خطورة جروحه؟» فهز روض رأسه وقال: «ليس بالإمكان انقاذه، اتركيه معي سأقتله عندما تذهبين وأمكث هنا كذلك لأسلخ الفهدة لك يا مسافر».

فأجاب عبد الرحمن: «احتفظ بالجلد لنفسك». وشكر لروض وجوده هناك ليقضي على الكلب، لقد كان يعرف مدى تعلق الحوراء بكلبها ولم تكن له نفس ليقوم بهذه المهمة بنفسه.

ورفع روض رأسه وقال: «استمع، الرعد، أظن انني سمعته قبل هذا».

وسمع عبد الرحمن كذلك صوتاً بعيداً للرعد فقال: «المطر! فيوم العاصفة الذي مر علينا بالصحراء ابتدأ هكذا».

وهز روض رأسه بوقار وقال: «المطر، وأخيراً أتى، فلنرجع القطيع إلى الخيام».

أخذ عبد الرحمن والحوراء يجمعان الغنم. بينما الكلب غول يئن ويتذمر عندما رآهما يبتعدان عنه، وأخذت الحوراء تبكي من جديد لفراقه، وعندما ابتعدا مسافة قصيرة سمعا أنيناً واحداً تبعه سكون تام.

كانت سياقة الغنم بدون معونة الكلبين عملاً شاقاً. حاول سوقي أن يقوم بعمله لكن رجله العرجاء لم تساعده.

وكانت السفانة تنتظر عبد الرحمن مع القطيع، كانت ضجرة ومتلهفة عليه. لا شك أنها لا تزال منزعجة من المعركة مع الفهود، فهدأها بيد لطيفة، وكلمات ناعمة.

وعندما تركوا الوادي الضيق وامتطى عبد الرحمن ظهر الفرس العاري كانت السفانة بسرعتها وبفهمها كأنها الكلبة الراعية، فطوقا جانبي القطيع جاعلين الغنم مجتمعة، بينما

قادت الحوراء وكلبها الأعرج سوقي مقدمة القطيع.

لم يكن هناك شك أن المطر سينزل، لقد توقف صوت الرعد نهائياً، لكن الغيوم السوداء أخذت تتحرك بسرعة نحو التلال، وهبت ريح باردة، ليست كتلك التي تأتي مع عاصفة الرمال، بل منعشة، وتقريباً مقشعرة، ولحظات بعد ذلك بدأت نقط المطر تتساقط.

وقبل وصولهم إلى الخيام، هطل المطر بغزارة، فارتوت رمال الصحراء، وظهر على الغنم وهي تثغو شعور جديد مليء بالفرح والإثارة، لم تكن هذه زوبعة عابرة، بل كان قدوم الأمطار المنتظرة باعثة الحياة، حينئذ خف ما بقلب الحوراء من حزن قريب على تلف كلبها.

فصاحت لعبد الرحمن بسرور وهو يمتط فرسه بالقرب منها وقالت: «فعلا هذا هو المطر».

كانت مبتسمة وكان وجهها المبلول في غاية الجمال.

المرزبة

وهطل المطر عدة مرات في الأسبوع الذي تبع حادث الصيد، فكان وابلاً لطيفاً ودافئاً، ومتسرباً إلى كل شيء، وأتت الحياة مع المطر لهذه الصحراء. فنبتت الزهور، حيث لم تكن إلا الصخور والحشائش الذابلة، وأخضرت الأرض، وانتشرت حياة جديدة على الحشرات والحيوانات، كأنها خرجت من تحت الأرض، فكان الجو وقت فرح ورخاء، حين كانت القطعان ترعى في المراعي الجديدة بدون أي حادث يشوب راحتها.

واجتمعت القبائل من كل صوب حول نقط الماء المتجمعة احتفالاً بالمرزبة، وقت السلام والتباري، وكانت هذه هي العادة في وادي السرحان منذ أجيال مضت.

ورغم أن الغزو الإسلامي، وحروب افريقية، والأندلس، أخذت الكثير من الرجال من خيامهم الصحراوية، فإن الباقين أتوا عبر مئات الأميال، واجتمع حوالي ألفي شخص في شعاب وادي السرحان لموسم التجارة والمباراة الحبية السنوي.

ففي هذا الموسم تمنع كل الضغائن والمنازعات منعاً كلياً، ويمكن للأعداء الألداء المشي بالقرب من بعضهم والاجتماع، ولا يضر الواحد منهم صاحبه ما دام الوقت وقت معزبة. ولا يجرؤ أحد على مخالفة هذا العرف، وإذا خالف فعقوبته الموت بالإجماع.

وكانت واحة الشيخ راشد هي مركز الجمع. فماؤها كان أحسن ماء على أميال كثيرة منها.

وظهرت خيام جديدة بالقرب من الواحة، رغم أن معظم الغنم والجمال تركت ترعى في الشعاب المجاورة، لأن عددها كبير، ويصعب جمعها في مكان واحد.

وبقي بنو زنقل بعيدين عن مركز الخيام. وتضاعف عددهم خمس مرات، ورغم أنهم كانوا قبيلة صغيرة، فقد كانت الروابط قوية بين بعضهم البعض، وكانوا قبيلة غنية بسبب مهارتهم في فنون ومهن عدة، كما كانوا كذلك بارعين في التجارة.

وفي كل يوم كانت تقام ألعاب ومباريات لإظهار القوة والمهارة في سباق الجمال، ورمي الرماح من فوق الجياد، والمصارعة، والصيد بالصقور، والصيد بالخيل، وألعاب أخرى متعددة، لكن أهم حادث في الجمع كله هو سباق الخيل، فذلك هو ذروة الجمع، فالجمل مثلا، هو أفيد حيوان لساكني الصحراء، لكن الجواد أكثر نبلاً منه، وهو مركز حب ابن الصحراء.

وكان سباق الخيل علامة على قمة المرزبة ونهايتها، فهو مفتوح للجميع لكن، لا تدخله إلا الحيوانات المختارة، وعند دخول كل جواد يترك صاحبه صرة ذهب، وكل الصُرر المجموعة يأخذها الفائز في السباق، لكن أهمية السباق كانت أكثر بالفوز بكل ذلك

الذهب، فالتنافس يكون شديداً في هذه المناسبة، وكل قبيلة تقدم جواداً من أحسن جيادها للسباق.

وفي هذا الوقت، كان عبد الرحمن يتابع واجباته الخفيفة في رعي قطعان الغنم مع الحوراء. وبقي على هامش الجمع مختفياً يلاحظ الألعاب، لكنه لا يشارك فيها، وفي الحقيقة لم يتغير شيء في بيت الشيخ راشد، رغم ضجة الجمع الدائرة حوله، فالعجوز كان من أشراف القبيلة المحترمين، ويحسن ضيافة كل من يزوره في خيمته، بدون أن يقلل شيئاً من وجاهته.

وفي اليوم الذي تقرر فيه سباق الخيل، وقع شيء غيّر مجرى الأحداث في طريق عبد الرحمن، كان بجانب بركة الواحة مع الغنم يوماً عند الغروب.

وكان زائرو البركة كثيرون، والحيوانات تغدو وتروح. وعندما ارتوت الغنم، جاء روض من خيامه ومعه اثنا عشر جواداً.

وعدة رجال من قبيلته بينهم زامل ابن علي، الرجل الذي أنقذه عبد الرحمن في القلعة، فصاح روض من كل قلبه: «يا مسافر، تعال وانظر إلى جياد بني زنقل التي ستدخل غداً السباق».

وأشار إلى جواد بني مفعم بالحيوية، كان حيواناً نبيلاً وجميلاً مهيئاً تهيئاً رائعاً، وكأنه شعلة من نار. لم يكن عبد الرحمن قد رآه قبل ذلك. ولا شك أن بني زنقل أتوا بهذا الجواد إلى الخيام من المراعي البعيدة.

وجلك روض جانب الجواد البراق وهو يقوده بنفسه إلى الماء وقال: «اسمه مدهم البتار! إنه أسرع جواد في قبيلتنا، غداً سيمتطي مصير بني زنقل ظهره في السباق. وقال عبد الرحمن متمثلاً بمثل قديم: «إن أسرع الجياد الجياد البنية اللون، عسى أن يكون النصر حليفه غداً، وتفحص الجواد عن قرب، كان حقاً جواداً جميلاً، لكنه في قرارة نفسه يعتقد أن لا فرس يقارن بالسفانة.

وقال زامل: «ستنتصر لو اشتركت فرسك غداً، فرسك ذات الوجه الأبيض، بارك الله فيها».

وفجأة قطع حديثه، وحدق إلى ما وراء عبد الرحمن وقال: «إنه هو! سارق القلعة!» وأخذت شفتاه ترتجفان وجسمه يرتعد هيجاناً.

ونظر عبد الرحمن الى ما حوله، فرأى من بين القادمين الجدد إلى البركة أربعة رجال مع الأفراس ورابعهم يقود جواداً أسود.

وقال: «هاوا جن! قف مكانك». وشد الجواد الأسود فجأة خطامه لكن سيده جذبه. وحاول أن يتأخر لأن روائح جياد غريبة أثارته لكن الرجل شده بقوة وهو يقهقه.

وصرخ زامل: «ذلك هو، اللص الذي سرقني في القلعة، وأخذ جملي الذي كنت امتطيه، وأخذ كل مالي الذي كان معي حتى ملابسي، وتركني للموت! إنه هو، والآخرون

الذين معه لصوص كذلك».

ووضع روض يده على ذراع زامل المرتعد مطمئناً إياه وقال: «هدىء من روعك يا عم، هدىء من روعك». وفي أول تحفز أخذ بمقبض خنجره، لكنه تذكر أين هو وتراجع فوراً.

ونظر صاحب الجواد الأسود بوقاحة إلى عبد الرحمن وابتسامات الاستهزاء ظاهرة على شفتيه. كان واضحاً أن الرجل عرف العجوز. أما ابتسامة الهزء فإنها كانت تعني روضاً كذلك. الواقف بالقرب من زامل.

ونظر إليه روض نظرة متجهمة، لكنه حافظ على لطافة كلامه وقال: «أنا روض شيخ بني زنقل، مرحباً بك في البركة هنا، فالوقت وقت معزبة».

فرفع الرجل رأسه عالياً وهو يضحك ضحكات غجرية وقال: «أنا حسن، حسن اللص!».

لقد كان نهب القوافل عملاً جاري المفعول في جزيرة العرب، إذ أن طبيعة الصحراء الجرداء تجعل أي شغل آخر مستحيلاً وقبائل بأكملها كانت تعيش على المكوس التي تأخذها من التجار الذين يمرون بأرضها، لكن الفرق كبير بين أخذ المكوس من قافلة غنية، وبين مهاجمة عجوز وحيد، وسلبه كل ما لديه وتركه للموت. لهذا يجب دائماً الأخذ بالاعتبار أقرباء المهاجم.

ورغم ذلك فالوقت كان وقت معزبة، والأيام أيام سلام والغضب يبقى في القلب مخفي ولا يسمح بأي نزاع، وكان اللص حسن يعرف ذلك، فانتهز هذه الفرصة ليظهر استهزاءه. وروض شيخ بني زنقل كان يعرف ذلك، فقبل أن ينتظر دوره. وهدأ الجواد الأسود في يد سيده، وانحنى ليشرب. كان عطشاناً، لكنه رغم ذلك قطع شربه مرتين، ورفع رأسه معبراً عن عدم ارتياحه من جياد غريبة. وضحك اللص حسن وقال: «لله دره». ثم قال لروض: «يا شيخ، هل ستشارك بنو زنقل في السباق غداً؟».

وأجاب روض: «نعم، سنشارك».

فضرب حسن على كيس ثقيل معلق بحزامه وقال: «هذا طيب! عندي ذهب هنا، كثير من الذهب، وبنو زنقل ذوو مال، هل سيراهنون غداً بجواد أدهم ضد جن؟». وألقى نظرة احتقار إلى جياد الغجر التي كانت عند الماء.

وهز روض رأسه موافقاً وقال: «ان بني زنقل قوم مراهنون».

فقال حسن: «إذن إلى الغد».

وغادر روض وقومه البركة مع جيادهم. وفي الناحية الأخرى من البركة، كان عبدالرحمن لا يزال يسقي الغنم، بينما ترك حسن وزملاؤه الثلاثة خيلهم تشرب. وأخذ عبدالرحمن يلاحظ حركات الجواد الأسود وطباعه. ومن رغبة حسن أن يراهن في السباق، كان بديهياً أن هذا الجواد قوي وسريع بلا شك، وفي الوقت الذي درس فيه عبد الرحمن الجواد كان يدرس سيده كذلك، لقد كان رجلاً قاسياً شديداً، يضحك لآلام ومصائب

الآخرين، هذا الرجل الذي سرق زامل وضربه بالقلعة، ورغم أن عبد الرحمن وفي ذلك المساء، عندما انتهى عبد الرحمن من عمله، توجه إلى خيام بني زنقل ومعه السفانة، كان الرجال جالسين بعد العشاء حول النار، وبعد تبادل السلام والتحية، تكلم عبد الرحمن فوراً في موضوع زيارته.

قال لروض: «يا شيخ، لقد غيّرت رأيي في موضوع السباق غداً». ولم يظهر أي تعجب على وجه روض. لكنه أبدى اهتماماً قوياً وقال: «إذن». فقال عبد الرحمن بكل صراحة: «ليراهن بنو زنقل ذهبهم على السفانة، كل الذهب الذي عندهم فإنها لن تغلب».

فأجاب روض: «الك ثقة قوية بفرسك يا مسافر. وكانت عينا حسن السوداوان مليئة بالأسئلة وحب الاستطلاع، وهو ينظر إلى السفانة على ضوء النار ثم قال: «ولي ثقة قوية بها كذلك».

وطمأنه عبد الرحمن قائلاً: «أعرف هذا: إنها فرس الجبال وهي أسرع من الآلاف فلن يغلبها قط فرس الصحراء!».

وابتسم روض ابتسامة الرجل الذكي عندما تأتي المناسبة. وقال: «انك كواحد من بني زنقل يا مسافر، إنني أثق بك وأؤمن بفرسك، وأتذكر كذلك تنبؤ عمي هشام. غداً سيمتطي مصير بني زنقل ظهرها.

وقال عبد الرحمن: «وراهن مع اللص حسن، فإن لم يكن لك ذهب كاف يكفي مراهنته فان عندي ذهباً أكثر.

وأجابه روض: «عندنا الذهب» وحينما قال ذلك ازدادت ابتسامته معبرة عن جرح شرس.

السباق

وكعلامة على طريق السباق، ركزت على الأرض رماح معلق عليها أطراف ثوب ملونة، كانت المسافة حوالي تسعة أميال، الطريق وشكله بيضاوي يبتدي وينتهي قرب واحة قعر الغار. ومسافتها طويلة ووعرة، يصعب فيها قيادة حيوان بكل سرعته. وفي بعض الجهات على طريق السباق، توجد حرات من الصخر البركاني المتكسر ومطبات طبيعية، وكل هذا يكون بمثابة اختبار لسرعة وقوة الجواد المتماسكة.

ودخل السباق ستة عشر جواداً، جل القبائل ممثلة فيها حتى القلة القليلة من الجياد التي تمثل أفراداً بعينهم كالسارق حسن، لهم مناصرين، فكان لحسن أنصار عديدون من قبيلة رولا، وهي قبيلة عنيفة ومقلقة من قبائل الصحراء الشمالية، فكثير من هؤلاء راهنوا بأموالهم وعدتهم على الجواد جن. وحسن نفسه راهن بكل ذهبه مع بني زنقل اعتزازاً وعجرفة. ورأى روض ذلك وكان له ذهب أكثر مما بامكان لص أن يجمعه، ورأى في السباق سباقاً فردياً بين الجواد الأسود جن والسفانة ممثلة بني زنقل.

وابتدأ السباق عند الضحى، وأتي بالجياد إلى خط الانطلاق، بينما طلعت الشمس عالية فوق الجروف التي تحف بالوادي.

قال روض لعبد الرحمن وكانت كلماته هذه هي الأخيرة: «أرجو لك ولفرسك حظاً سعيداً، لا أطلب منك إلا أن تقهر هذا اللص حسن، ومساء، سنحتفل بك في خيام بني زنقل احتفالاً لم يسبق له مثيل».

ووعد عبد الرحمن قائلاً: «تأكد بأنه سوف يقهر ما لم يعترضنا حادث».

وعند هذا القول أخذ عبد الرحمن السفانة إلى نقطة الانطلاق.

كانت الفرس في حالة ممتازة، قد ارتاحت نهائياً من عناء عبورها الصحراء.

وكانت معنوياتها عالية كمعنوية الفنان عند ابتكاره، إنها تعرف معنى السباق، لقد قورنت قبل هذا بالعديد من الجياد السريعة، فلم يغلبها احدهم قط.

وأخذ عبد الرحمن مكانه في أقصى الشمال من خط الفرسان، في سباق المسافات الطويلة كهذا لا يعقلُ اختيار مكان في وسط الخط، وأراد كذلك أن يبقى بعيداً عن مجال ازدحام الخيل. وكان جن الجواد الأسود مختلفاً عن الجياد الأخرى، وأثار ارتباكاً وفوضى من حوله بتأخره ومشاكسته. مظهراً طبعه الحاد، لكن أفراد قبيلة رولا المتوحشين جلسوا على جانبي الطريق وأخذوا يصيحون ويهتفون مفتخرين بطباع الجواد الذي اختاروه.

ووقفت السفانة بكل لطف عند خط الانطلاق، لكنها كانت تتحرك بخفة على قائميها الأماميين، مظهرة استعدادها للجري، وعبد الرحمن شعر بقوتها اللينة، وعرف أنها على

استعداد للسباق، وكان من جملة المتفرجين روض، وجماعة من بني زنقل، وزين الفتاة الغجرية، وحمرة الإنفعال ظاهرة على وجهها.

وفجأة، تمنى عبد الرحمن لو يعرف أين هي الحوراء في هذا الوقت، إنه لم يرها منذ الصباح. وفي تلك اللحظة عندما كان ينظرُ إلى الجماهير، وقع العلم الأخضر فجأة مشيراً إلى ابتداء السباق. فتبعت تلك الحركة ضجة كبرى من آلاف الأصوات. ووثبت الجياد مسرعة.

وبينما عبد الرحمن ينظر جانباً، كانت السفانة على أتم استعداد. فرأت العلم الأخضر وفهمت معنى ذلك. فخفة الشكيمة في فمها، لم توقفها عن سعيها. وتقدمت بوثبتها الأولى بحوالي خمسة عشر قدماً، ثم صارت تعدو منفردة بعيدة عن باقي الجياد.

وفوجيء عبد الرحمن بهذا العدو، لكنه أخذ يحزمه سريعاً، عندما ابتدأت السفانة في وثبتها الأولى. وعندما نزلت على الأرض من وثبتها، وهي تعدو، كان عبد الرحمن ثابتاً على السرج فوق ظهرها، مستعداً للسباق الطويل.

كان قد خطط للسباق قبل ابتداءه. ففي البداية حاولت الفرس أن تسرع في عدوها فتركها وشأنها. وتفجر مجهودها الأول عن سرعة هائلة، لا يمكن لفرس أن يحتفظ بها طيلة المسافة. حتى أن نشاطها هذا دفع الجياد الأخرى إلى أقصى طاقتها، فأسرعوا بصوت كأنه الرعد، وانطلقوا على أول طول مستوي من طريق السباق. وبقي المتبارون مجتمعين طيلة نصف الميل الأول، وعند ذلك أخذوا يتفرقون، لكن السفانة كانت تتقدم بأمتار عديدة أقرب منافس لها.

وعندما استدار عبد الرحمن وراءه، رأى جن الجواد الأسود من بين المنافسين له. وفر، وفي نفسه انشراح «طيب!» فذلك مبتغاه. وعندئذ كانت السفانة قد ثبتت في عدو لطيف، سريع ليس كسرعة البداية، غير انه يبتلع المسافة ابتلاعاً، لا شك أن اللص حسن كان يتمنى أن تجهد السفانة نفسها لابتداءها بهذه السرعة الهائلة. وأخذ عبد الرحمن يضحك في قرارة نفسه عندما رأى الصخور والأعشاب تمر أمامه مرور البرق.

ووصلوا إلى العلم الثالث، عندئذ صارت الطريق صخرية وعرة، فقاد الفرس بكل حذر على هذا الامتداد وهو يضبطها قليلاً خوفاً من أن تتعثر أو تؤذي نفسها، وكان يسمع من وراءه أصوات الحوافر تتبعه. وفوق الهضاب المجاورة جماعات المتفرجين في نقط متفرقة وهم يلوحون بأيديهم.

وتجاوزوا العلم الرابع الذي يبعد حوالي ثلاثة أميال عن بداية السباق. ثم وصلوا الى أرض رملية.

وخمد حينئذ صوت الحوافر، بينما تسمع صيحات المتفرجين البعيدة كأنها تسبح في الهواء الطلق، وأخذ عدو السفانة يخف قليلاً لأن حوافرها صارت تغرق في الرمل. لكنه عدو لم ينقطع ولم يضعف، وحيث أن الرمال عرقلت الجياد الأخرى كذلك، فلقد حافظت

السفانة على تقدمها، وكذا مرت على العلمين الخامس والسادس.

واقترب المتسابقون من العلامة التي تشير إلى نصف الطريق، والتي تدل كذلك على دورانها. ونظر عبد الرحمن وراءه من جديد. لم يكن قريباً منه أو متحدياً للسفانة إلا ثلاثة جياد. أما الآخرون فكانوا مشتتين بعيداً وراءه كأنهم قافلة. ومن الثلاثة المقتربين من جن الجواد الأسود.

والعلم السابع كان يشير إلى ابتداء أوعر مسافة في الطريق، كان مركّزاً في آخر الوادي، والطريق هناك تلتوي وتتجه أفقياً نحو سلسلة طنف من الحجر الرملي.

حينذاك وضع عبد الرحمن كل خبرته في الفروسية تحت التجربة، فهذه المنطقة تحتاج إلى الكثير من الحذر والتوازن، وقد تنزلق الفرس بسهولة وتنتهي بذلك مشاركته في السباق، فلهذا لم يرد أن يخاطر ولو قليلاً بالسفانة.

فأخذ يهدىء من تلهفها بيده وصوته قائلا: «مهلاً!، مهلاً!». وترك المجال للجياد الأخرى يربحون هذه المسافة، إذا أمكن لهم ذلك، لقد كان تخطيطه أن يترك الجياد الآخرين يربحون هنا وخاصة الجواد جن.

وأخذ الجواد الأسود يفوز فصار في مقدمة الخيل كلها، وهنا ظن حسن أنه وجد الفرصة المناسبة، فقاد جواده فوق الطنف بتهور.

ولم ينظر عبد الرحمن وراءه، لكنه شعر باقتراب الجواد من السفانة، فأخذت ضربات حوافر جن تقترب شيئاً فشيئاً، وصيحات حسن يحثه على الإسراع، وعندما اقتربوا من قمة الجرف حيث تأخذ الطريق في النزول، لحق الجواد الأسود بالسفانة، فادار عبد الرحمن فرسه عن حافة صخرة كبيرة عرضها حوالي خمسة عشر قدماً، بينما غاص الجواد الأسود جانباً نحو المنحدر.

ومال الجواد الضخم في المنحدر على جانبه، لكن حسن شد رأسه جانباً وشده بدون أن يضيع وقته. عندئذ أخذ ينظر وراءه ويضحك، وبدأ يشعر في فمه بطعم النصر.

وقال عبد الرحمن للسفانة يهدئها ويكبح جماحها: «مهلاً! مهلاً». فالهدف لا يزال بعيداً. والسباق الحقيقي سيتبدىء عندما يصلون إلى الأرض المنبسطة من جديد.

وأخذ فرسان آخرون يحاولون التقدم بكل تهور، ويجازفون بالكل لربح مؤقت، وينزلون بأفراسهم على المنحدر الصخري نزولاً طائشاً. ولحق ثلاثة آخرون من الفرسان بالسفانة وسبقوها.

لكن عبد الرحمن لم يأبه بهذا التأخر، فالسفانة كانت كنزاً له، وسوف لا يخاطر بها مخاطرة لا مبرر لها. إنه لا زال يشعر بالثقة التامة بقوتها على الاحراز على المقدمة في الوقت المناسب.

وعندما اقترب من آخر المنحدر اكتشف براعة حكمته، فقد وقع من على الصخور جواد بني وقعة يرثى لها، ورمى براكبه على الأرض، وأشفق عبد الرحمن ان يرى الفرس

والرجل يقعان هكذا، لكن لم يكن في الإمكان الوقوف لإعانتهما. وحينئذ صار بعيداً عن الطنف وقريباً من العلم التاسع، وكانت أمامه أرض منبسطة قاسية ومثالية للسعي، ولم يبق لهدف السباق إلا ثلاثة أميال.

وأخيراً، استعد عبد الرحمن لأن يطلق لفرسه العنان قائلاً: «الآن، يا عزيزتي الآن!» وكان أمامه فرسان على بعد خمسين قدما: فرس بني وجواد كميت. وأمام الفرسين بحوالي مائة قدم، كان حسن وجواده نجن.

وأخذ عبد الرحمن يصيح: «أسرعي، يا ريح الهضاب! أسرعي يا جوهرة التلال!».

وجثم على عنق السفانة، وأخذ يغني في أذنها أهازيج التشجيع. ولم يحتاج لاستعمال أي سوط أو حافز سوى صوته، وضغط بركبتيه ويده، ففرسه لا تحتاج إلى أي سوط، كل ما تحتاجه هو صوت سيدها، وقوة حماستها. فهي لن تتحمل أن تكون متأخرة في السباق.

وظهرت وكأن شعلة تشتعل داخلها، فقوائمها البيضاء تلمع مع شمس الضحى، وعنقها تقوس من شدة الجهد. كانت كلها جمالاً ورشاقة، لكن الجمال والرشاقة هما أمران ثانويان الآن، فظهرت وكأن طبعها تغير، وكبر حجمها من شدة الإجهاد فانقلبت شجاعة وقوية.

واندفعت نحو الفرس البني والجواد الكميت، كأنها ظل عقاب يهوي. فالتحقت بالأول ثم بالثاني في أقل من مائتي خطوة على السهل. ولم يبق أمامها سوى جن الجواد الأسود، وبعده الهدف المنشود.

وأخذ عبد الرحمن يصيح: «أسرعي يا جميلة! أسرعي يا لهيب الضحى!».

واندمجت روح عبد الرحمن بروح السفانة وشعر بقوتها، فارتعش لذلك الشعور، إنه وقت اختبار أصالتها، وبرهان ثقته فيها، وجاء وقت الوفاء بوعده لبني زنقل، وإلا فلن يفي أبداً.

واستدار اللص حسن وراءه فرأى الزوبعة قادمة نحوه، فضرب بالسوط جواده الأسود ووخزه بعقبي قدمه، وصاح فيه آمراً. لكن هيهات، لقد كان من الأفضل له أن يسبق قدوم الشمس في الصباح، إن اقتراب السفانة منه كان لا يقاوم. وعبد الرحمن يصيح: «أسرعي، يا أجنحة الرياح! أسرعي يا سهم الشمس!» واقتربت الفرس من حس، فأدار الجواد الأسود عينه الوحشية جانباً، فرآها قادمة، وفي أذنيه ترن شتائم وتهديدات راكبه، والسوط يضربه المرة تلو الأخرى، وأخذت الرغوة تتطاير من شكيمته، والعرق يتصبب على جانبيه، كان يعدو بسرعة أكثر مما تعود من قبل، ورغم ذلك أخذت السفانة تلحقه، وأخيراً، صارت بجانبه.

وصاح عبد الرحمن صيحة شراسة بحسن، في الوقت القصير الذي كان فيه بجانبه، وقال: «يا لص، انك لا تسرق الآن عجوزاً وصيداً في القفار!» ثم أخذت السفانة تسبق جن.

وظهرت أسنان حسن كأنها أسنان ذئب، وهو يصرخ في فرسه ويضربه بكل جنون،

لكن الجواد أعطى كل طاقته في الأميال الأولى من السباق. وأجهد أكثر مما يتحمل.

وتابع عبد الرحمن تشجيعه للسفانة «اسرعي يا معجزة النهار! اسرعي يا ضياء النجوم !».

لقد طرب عبد الرحمن نشوة لقوة السفانة المتناهية، واستدار فرأى جن يبتعد وراءه بعشرات الأمتار، أما باقي الخيل فتأخروا، ولم يبق لهم أمل في الفوز، فأخذت الفرس الشامية تسرع وحدها. ولم يعد عبد الرحمن ينظر وراءه.

ورأى أمامه الهدف، والجماهير الملوحة بأيديها. وصيحات المتفرجين تعلو شيئاً فشيئاً، ومناديل وألبسة بني زنقل الزاهية، ترفرف مشيرة إلى خط النهاية.

وكانت السفانة غير متعبة، إنها تزداد قوة باقترابها للنصر، وعرفها الأبيض يرفرف في ريح كان من صنيعها، وحوافرها تدك الأرض، وتتطاير بقوة جديدة بعد كل وثبة.

وعلت أصوات المتفرجين إلى رعد من الهتافات، فالعرب قبل كل شيء يحبون الخيل، وفرس كهذه جذبت اعجاب الجميع حتى المنهزمين. وتعدت الفرس الشامية الخط النهائي للسباق وحدها وبدون منافس.

وابتهج بنو زنقل ابتهاجاً كبيراً، وفتح روض طريقه في وسط الجماهير، ليقدم الثناء للفارس والفرس. وأبصر عبد الرحمن الفتاة الغجرية زين، كانت شفتاها متفتحتين على ابتسامة دافئة له، وقد غمرت وجهها الفرحة.

لكن الحوراء، أين هي؟ لقد حاول عبد الرحمن أن يجدها بين الناس ولكن بدون جدوى.

ليلة النصر

وتضاعفت فرحة بني زنقل بعد السباق، فتراكم عليهم الذهب والجمال والغنم والخيل، كثمرة انتصار السفانة. وفي تلك الليلة، أقاموا حفلة كبيرة في الخيام تخليداً لهذا النصر، فشووا عشرين خروفاً فوق النار، وفتحوا باب ضيافتهم للجميع. وأنتهى الحفل، وأخذت القبائل تتفرق لأن سباق الخيل أقيم في آخر يوم من أيام المرزبة، فأزيحت عدة خيام في ذلك العشي وبدأت القبائل الرحل تتحرك شمالاً إلى مراعي الصيف الجديدة. وكان حسن اللص أول الناس الذين رحلوا ومعه القليل من متاع الدنيا، وبما أنه جرد من كل أصدقاءه نتيجة رسوبه في السباق فلم يرد أن يلتحق به بنو زنقل بعد انتهاء الأيام الحارة.

وتهلل بنو زنقل ابتهاجاً بنتيجة السباق، لكن لم يفرح أحد فرح زامل ابن علي، فقد عوض روض للعجوز الأشياء التي سرقها منه حسن في القلعة، واستعاد زامل كرامته وعزته بتعويض ماله.

وأخذ يثرثر مع عبد الرحمن قائلاً: «إن فرسك كنز يتمناه الملوك، بارك الله فيك وفيها، بارك الله فيك وفيها، رعاكما الله! ان حياتي وشرفي هبة منكما!» فأجاب عبد الرحمن: «إن مشيئة الله وعدله أرادت أن تفوز السفانة ويرجع لك مالك».

وتنفس زامل الصعداء لأهمية الموقف، وقال: «إنني مدين لك بالكثير، أتمنى لو كنت شاباً وقوياً من جديد، لأجازيك بأية طريقة من الطرق عن خيرك الكثير» وسمع روض الكلام فقال: «لا تخف أبداً يا عم، فإن لك أقارب شباباً وأقوياء» ثم التفت إلى عبدالرحمن وقال: «إن كل قومي إخوان لك، إن لك أصدقاء حيثما ركزت خيمة لبني زنقل».

وفي احتفال النصر تلك الليلة، جلس عبد الرحمن في موضع الشرف بالقرب من روض، فأكلوا وشربوا وتكلموا كثيراً، ولم ينقطع بنو زنقل عن مدح السفانة، فسوف يتذكرون هذا السباق سنين طويلة.

وفي غمرة الاحتفالات سأل روض عبد الرحمن هذا السؤال: «هل فكرت في تنبؤ هشام أن الفرس ذات الوجه الأبيض ستفوز في السباق؟».

فأجاب عبد الرحمن: «نعم، تذكرت ذلك». وفي الحقيقة فقد فكر عبد الرحمن عدة مرات في كلام العراف.

وجس روض أفكار عبد الرحمن قائلاً: «وهل تذكرت باقي كلامه؟ أرض عبر الماء وأصوات تهتف بك كقائد جيوش».

وهز عبد الرحمن رأسه وقال: «لا أفهم ذلك الكلام».

وفتح روض يديه معبراً عن صغره بالنسبة لهذه الأشياء الكبيرة وقال: «وما يدريك؟ أحياناً ندفع إلى قدرنا دفعاً، والنهاية قد تكون بعيدة عن البداية».

وبعد الاحتفالات جاء وقت الرقص، وحضرت نساء بني زنقل.. كان مزاجهن مندفعاً ومتهللاً، فقمن بنشاط فرادى وجماعات، ليرقصن للرجال الجالسين حول النار. وسطع الليل بدوران ألبستهن الزاهية، وتشجعت لموسيقى الطبول والمزامير والرباب، وبتصفيقات الأيدي الكثيرة التي كانت تتابع تموجاتهن الرشيقة السريعة. ومن موضعه بجانب روض رأى عبد الرحمن وجوهاً كثيرة بين الجماهير المتحركة حول النار، كان الرجال جالسين في جهة والنساء في جهة أخرى. وأخذ ينظر إلى النساء محاولاً أن يتعرف على وجه واحد من وجوههن، لكنه لم يجد ذلك الوجه، رغم أن بصره التقط نظرة الفتاة الغجرية البراقة.

وازداد جو الاحتفال نشاطاً، وقويت نغمات الطبول والمزامير والرباب، وارتفعت الأيادي بصيحات الرقص المرة تلو الأخرى.

وصاح أحد من الحاضرين: «يا زين» فتبعته أصوات متتالية: «يا زين يا زين!» وقامت الفتاة مرة أخرى للرقص. واندمجت الراقصات الأخريات في حلقة المتفرجين كأنهن يعطين اشارة ما، ورفعت زين ذراعيها فوق رأسها، وتوقفت الموسيقى، وانتهت الأيدي من التصفيق، وحفظت الراقصة توازنها لحظة، ثم رفعت معصميها وأخذ مزمار وحيد يبث نغماته الحزينة على هامش ضوء النار، موسيقى خفيفة ومؤثرة. كانت تلك الموسيقى تحتضن الفتاة كأنها شيء حي، فاهتز جسمها على تموجات الموسيقى حتى صارت هي والمزمار كأنهما شيء واحد.

وضاعت بداية رقصتها في الظلام. وتحركت برشاقة متناهية، فكان تمايل جسمها كتمايل اللثام عندما تهتز حاملته. وكان ساقيها وذراعيها وخصرها وفخداها في حركة متواصلة. ورغم ذلك لم ينقطع انسجامها فكانت تطفو كأنها في الهواء ولا تحتاج إلى شيء يحملها. لقد كان شكلها اندماجاً بين الحركة والجمال.

وكانت كل العيون مستغرقة في النظر إلى رقصتها، كل العيون إلا عيني عبد الرحمن. بعد ابتداء الرقص بوقت قصير، لمح وراءها بين ظل المتفرجين شبح الحوراء. الفتاة الراعية، واقفة على هامش الجمع، وكان أكثرهم جالسين، كانت تنظر إلى الراقصة الغجرية نظرات اعجاب وامتنان. وبينما كل الآخرين ينظرون إلى زين، كان عبد الرحمن ينظر إلى الحوراء.

وفجأة ضرب صُنْج، فكسر تموجات الرقص البطيئة. وتبع ذلك ضربات الطبل بسرعة متزايدة وطنين. فوثبت الراقصة وهي تهتز، وفي لحظة صارت مزيجاً من النار والانفعال، وكلها حياة!

وامتلكها دمها الغجري امتلاكاً كاملاً، كانت كوحش ليس له سيد إلا الموسيقى. ودقات الرباب تعطي حياة جديدة لارتجاف رقصتها.

لهيب! لهيب! أنت زين تلعب أمام عبد الرحمن كجنية وثبت من جوف النار. وتلمع معاصمها وكواحلها المتعوجة، ببريق أساور وخلاخل من فضه، وتحترق بانفعالات براقة في تغيرات الألوان الباهرة من أسود إلى فضي إلى قرمزي، بينما ترتمي عليها ألسن من الظلال تحت نور القمر والنار، وهي تدور وترقص.

كانت رقصتها موجهة لعبد الرحمن مباشرة، قبالته ومن أجله، ورجلاها الحافيتان تدوران فوق الرمل وساعداها الخفيفان يغزلان نقوشاً في الظلام، وجسمها مستسلم استسلاماً كلياً للرقص، وعيناها الواسعتان ترميان عليه نظرات من نار وقتاً تلو الآخر. فهو الفائز في السباق، مسك ختام المعزبة، وهذا الحفل كان حفل انتصاره ومجده.

ورقصتها كان من أجل عبد الرحمن، لهذا فهو مضطر أن ينظر إليها، ورغم ذلك كثيراً ما يشرد ببصره في اتجاه الظلام، حيث تقف الحوراء. ورأى الفتاة الراعية جامدة، تتأمل المنظر كباقي المتفرجين، ورغم ذلك وباختلاف الآخرين لم يكن على وجهها أي نشوة. وفي نظر عبد الرحمن، كانت تبدو شاحبة، بل كانت مذهولة، ورغم بعد المسافة، فعندما التقت عيناهما ظن عبد الرحمن أنه رأى في عينيها استياءاً، بل وكأنهما تعبران عن استنكار شديد في نفسها. عندئذ لوح جسم الغجرية الجذاب بينهما، كانت زين في خفة رقصتها الهائجة. ومر الوقت مرور الخيال، وتصاعدت الموسيقى البدائية، حتى صارت كأنها دقات قلب تدفع بالدم وتدوخ المشاعر. وصارت زين مزيجاً من امرأة ونار تدور. ولحق ذلك نوبة نهائية من الموسيقى، وانفجاراً لولبياً من نار انتهت به الرقصة. وخفق هواء الليل عوضاً عن خفقات الموسيقى، وانطرحت زين على الرمل الرطب وهي تلهث، وذراعاها ممدودتان.

وانفجر المتفرجون بهتافات عميقة وصاخبة: «يا زين! يا زين!» كان بنو زنقل معتزين بجمالها ورشاقتها المثيرة، فكانت هذه لحظة انتصارها هي كذلك.

وبقيت زين منطرحة على الأرض لحظة، ثم قامت بخفة على رجليها، وانسلت إلى موضعها وسط النساء، وهتافات الجماهير تتبعها.

وقال روض لعبد الرحمن بكل اعتزاز: «إن أختي من بين النساء، كالسفانة من بين الخيل». لكن عبد الرحمن لم يسمعه إلا بصعوبة، فلقد استدار بسرعة ليرى زين، لكنه لما رجع ببصره نحو مكان الحوراء من بين المتفرجين، وجدها قد ذهبت.

وأجاب عبد الرحمن روضاً موافقاً: «أختك ليست من هذا العالم في رقصتها». وتنفس ثم قال: «أطلب منك المعذرة الآن، يجب أن أذهب لبعض الأشغال». ثم وقف بسرعة، وتقدم في دائرة حول المتفرجين، وعيون روض تلحقه بتعجب، ثم وثب إلى وسط المتفرجين في ضوء النار مشعوذ، وفي يديه السكاكين، فأخذ انتباه الشيخ الغجري، والتفت الجمهور كله اليه.

وأسرع عبد الرحمن وراء المتفرجين إلى المكان الذي كانت تقف فيه الحوراء. كان الليل مضاء بنور الهلال. وعيناه لم تتعودا بعد على النظر في الظل، فأمامه ظلام الواحة يخفي

كل شيء. فلم يستطع أن يرى الحوراء، لكنه شعر أنها ذهبت في ذلك الاتجاه فأخذ يجري.

وبينما هو يجري، رأى شبحاً غامضاً يتحرك بين النخيل فصاح: «حوراء، انتظري!».

لكنه وجدها قد اختفت بين النخيل. عندما وصل إلى حيث رآها، فصار يناديها باسمها: «حوراء، حوراء!» وهو يفتش عليها في ظلال النخيل، لا يمكن أن تكون قد ابتعدت كثيراً.

ثم استدار مذهولاً عندما رأى شكلاً نحيفاً على نحو ست خطوات منه، واقفاً ومختفياً وراء نخلة مائلة. فقال عبد الرحمن: «هل أنت الحوراء؟» ووجد يدها في الظلام، فاحتضنها بشدة بين يديه. وكانت أصوات الاحتفال تأتي من بعيد، من خيام بني زنقل، والسكون مخيم تحت النخيل، وشعر عبد الرحمن بسرعة تنفسه العميق وتنفس الحوراء، وقال: «الحوراء بحثت عنك كل النهار، كل النهار!». ولم تجب. نتقدم نحوها فوجد يدها الأخرى وقال: «الحوراء، بحثت قبل السباق وبعد السباق ولم أجدك! ورأيتك الآن في الحلقة حول النار».

عندئذ تكلمت وقالت: «البنت الغجرية، كانت ترقص لك».

فأجاب: «نعم، رقصت لي وللجميع».

وقالت بصوت هادىء وبدون حماس: «لقد فزت في السباق لها ولبني زنقل بعد أن سمعتك تقول سوف لن تدخل فرسك في السباق». ولم تكن بكلامها هذا تتهمه، وانما كانت تقول ما تعتقد أنه الواقع.

فأمسك عبد الرحمن بذراعها وقال: «لم يكن ذلك لها أبداً! إنني أدخلت الفرس للسباق لكي أفوز باللص حسن، لكي أغلبه وآخذ منه ما سرق من العجوز في القلعة. لا للفتاة الغجرية». وخرجت الكلمات من فمه باندفاع، وأسرعت الكلمات تقول ما لم يبق له انضباط في قلبه هو: «إن كنت أدخلت الفرس في السباق من أجل أحد، فمن أجلك أنت. من أجلك أردت أن أفوز، لكي تعتزين بي! حتى ذلك الشعور لم اكتشفه، حتى وجدت نفسي أفتش عنك طول النهار ولم أجدك».

كان يقول لها ما تحب أن تسمعه، فما كان وجهها الشاحب الحاد المتلهف عليه. ورغم ذلك، تابعت صراعها معه ولكي تبعد عن نفسها بقية الشك، وقالت: «لماذا لم تقل لي كل هذا عندما كنا بمفردنا مع الغنم في الصحراء، كنت أود أن أسمع هذا حينذاك».

فهز رأسه وقال: «إنك لا تفهمين أن ذلك من أجل سلامتك أنت كذلك».

عندئذ هزت رأسها منكرة عليه منطقه قبل أن تعرفه، وقالت: «إني أعرف أن لك سراً يا مسافر، ولا يهمني مهما كان ذلك السر، لقد فات الوقت الآن لكي أتراجع عن حبك، فمشاكلك مهما كانت هي مشاكلي»

وأذاب صدقها اللطيف العذب قلب عبد الرحمن وقال: «حوراء! حوراء! . . .»

وخرجت الكلمات من فمه بمرارة ويأس: «أنا عبد الرحمن، آخر من بقي من بني امية، مروان الخليفة المقتول هو عمي، والخليفة الجديد أعطى جائزة لمن يأتي له برأسي، فالآن أنا رجل مطارد حيثما كنت في أراضي الخلافة الشاسعة».

وانسلت من بين ذراعيه قبل أن يتمكن من ايقافها ووقعت عند رجله على ركبتيها وقالت: «مولاي! مولاي! أنا غير جديرة بك».

فرفع وجهها نحوه بيديه ونادى: «الحوزاء» فتواضعها أذابه من جديد. وشعر أن الوقت الذي ولد فيه اميراً وربيٌ فيه في القصور، قد ولى منذ زمان بعيد، وأحس بسحر بديهي ودقيق يدب في أعماقه، سحر أخذه إلى الزمن البعيد. فاليوم تلو الآخر، وبدون أن يشعر بذلك اخذت هذه الفتاة كل مشاعره. ورآها الآن كلها نور، حتى في تواضعها، وأراد أن يعبر لها عن شعوره هذا ويطمأنها للأبد.

أراد أن يقول الكثير، فاضطرب لسانه، ولم يجد ما يبدأ به الكلام. فتنفس الصعداء. وقال ببساطة: «احبك يا حوراء، أعرف انه لا حق لي في ذلك، ولكني احبك».

فأسلمت شفتيها له من جديد، وكان الليل منعشاً، دافئاً، ولطيفاً حولهما، وهما واقفان معاً تحت ظلال النخيل.

السـر

وازدهر الحب بسرعة في وادي السرحان في ذلك الربيع الطري، وخطب عبد الرحمن الحوراء أسبوعاً بعد ذلك، وبينما ولدت الحملان، وتفتحت الزهور النادرة بين صخور الصحراء، وبينما كانت الأرض لا زالت مشبعة بالرطوبة والدفء والسرور، احتفل عبدالرحمن والحوراء بزواجهما في حفل بدوي بسيط. كان عمر عبد الرحمن لا يتعدى تسعة عشر سنة، أما الحوراء فكان عمرها ستة عشرة سنة.

كانا في تمام نضجهما في مجتمع البادية، حيث متطلبات الحياة قليلة والتهيؤ للنضج بسيط.

وتزوجا في الواحة، وبارك زواجهما الشيخ والد الحوراء، وكان بنو زنقل لا يزالون في المناطق المجاورة، فحضروا حفلة الزفاف، وهنأ روض عبد الرحمن بزواجه، وقدم كهدية العرس خيمة جديدة وجمالاً لحملها، وكانت زين مبتسمة بين المتفرجين، غير مظهرة شعورها، ورغباتها الخفية، فصاحت بتبريكاتها وتمنياتها بسعادة الزوجين.

وبعد ذلك تفرقت القبائل، وانتقلت أسرة راشد ببطء إلى مراعي أخرى. لم يتجهوا شمالاً كما اتجهت جل القبائل، ولكنهم ذهبوا إلى الجنوب الغربي في اتجاه الكرك. وتلك المنطقة مكونة من هضاب منتشرة ترتفع بتدرج غرباً من وادي السرحان، إلى مرتفعات صوان، وهناك كان الجو معتدلاً ولطيفاً، والمراعي كافية، ونقط الماء مملوءة بالأمطار الجديدة.

ومرت الأيام والأسابيع، وشعر بها عبد الرحمن كأنها إكليل صيف لا ينتهي، ففي كل يوم منها يغمره السرور، وتمتلكه بهجة وروعة منعشة. بعد أن كان هارباً وحيداً يصطاده الأعداء، فقد وجد المأوى والعائلة والبيت.

وفوق كل شيء أنعم الله عليه بالحوراء، صارت الفتاة الراعية عزيزة عليه لدرجة أنها ملأت حياته كلها. فصار يحس انه لم يمض وقت، لم يكن يحبها فيه. وتتابعت الأيام إلى أسابيع، والأسابيع إلى شهور، ولم تقل كثرة المراعي ولا المياه فوق المرتفعات، وبقيت خيام راشد في مكانها، وهم يتمتعون بهذا التغيير الطيب حتى ينتهي الصيف، ويأتي الجفاف، ويضطرهم إلى الرجوع إلى وادي السرحان ومياهه التي لا تنضب.

لقد كانت الأيام أيام مجد لعبد الرحمن. وأعطيت له وللحوراء كل امتيازات العروسين. فكثيراً ما كانا يتركان الغنم في رعاية خدم العائلة، وينسلا بعيدين إلى جبل أو واد يتمتعان فيه بالوحدة.

وفي أحد الأيام ذهبا جنوباً إلى منطقة جبلية تسمى جبل الإثريات. كان عبد الرحمن

راكباً السفانة، والحوراء فوق فرس أخرى، وأخذا معهما خيمة صغيرة للنوم، وجلد خروف للغطاء. ففي الظاهر ذهبا في هذه الرحلة القصيرة للصيد لكنهما في الحقيقة أرادا أن ينفردا ببعضهما.

ورمى عبد الرحمن بقوسه وعلا في الهضاب. واستقر الليل في فرجة صغيرة في معقل جبلي، وكان الوادي تحتهما يتفتح على متاهات أرجوانية، بينما الليل يرخي سدوله.

فأعطيا الأكل والماء لفرسيهما، وجلسا معاً على جلد صوف واسع بالقرب من نار صغيرة، بينما خيم الظلام حولهما. لم يكن بشر قريباً منهما على بعد عشرين ميلاً. وأدنى عبد الرحمن فمه من أذن الحوراء وهو يحتضنها في احدى ذراعيه وقال: «لو جئت إلى هنا قبل هذا الوقت لشعرت بالوحدة. ولكني الآن دنياي كلها معي» وقربت الحوراء خدها إلى شفتيه وقالت: «لو تعرف كم كنت وحيدة من قبل». فأجاب: «ولن تكويني وحيدة بعد اليوم».

فهمست وكأنها تقول سراً تعرفه: «لا، لن أكون وحيدة بعد اليوم».

ثم قامت وابتسمت ابتسامة حلم، وهي تنظر إلى لهيب النار الأحمر أمامها، ثم سألت بلطف: «ومتى ستتزوج بنساء أخريات يا سيدي؟».

فأجاب: «أبداً! أبداً!».

وقالت: «وإذا لم يرزقك الله مني بنين».

فأجاب بهدوء: «ولو بدون بنين!». ثم أخذ يحدق بعيداً في وهج النار، فالكلام عن الأطفال جعله يفكر في أشياء كثيرة: في قتل عائلته بأسرها، وفي الحكم بالاعدام عليه هو نفسه، وفي عائلة أمية كلها من حماية الدولة، ففي الحقيقة لا يدري أيود أن يكون عنده أطفال أم لا.

ولم تكن الحوراء ترى وجهه، وهي كذلك تنظر إلى النار، لكنها كانت تسبح في خيال آخر، فصارت ابتسامتها أكثر عمقاً وقالت: «ان كلمة أبداً تدل على وقت طويل أو أطول مما يمكنني أن أتخيله، أعطني جواباً أحسن من هذا».

فأجاب: «جواب على ماذا» كان قد نسي للحظة موضوع كلامهما.

فقالت: «جواب على متى ستتزوج امرأة ثانية. أعطني جواباً أحسن وأقول لك سراً». كانت تريد أن تقول شيئاً، فتوهج وجهها بالسر الذي تخفيه.

فقبل المزاح وهو في نفس الوقت يشعر أن شيئاً ما يدفعها لهذا المزاح. فقال: «طيب سآخذ امرأة ثانية عندما تأخذ الصحراء البحر».

ففكرت في جوابه بتأن، وهزت رأسها توهمه بالموافقة. ثم جمعت أنفاسها وكأنها تستجمع شجاعتها، وقالت بصوت خافت لا يكاد يسمع: «وأتمنى أن يكون جنينك الذي أحمله في بطني، ولداً، لتكون سعيداً وفخوراً به.

ولم يجب عبد الرحمن بأي شيء، لكنها شعرت بذراعيه تشدها إليه، وبنفسه العميق

والقوي يخرج من أنفه.

فسألته بقلق: «ألست مسروراً؟» فشعورها بتواضعها بالنسبة له جعلها تضيع ثقتها في نفسها وترتعب.

فأجاب: «نعم!».

لما أعلنت له هذا الخبر، هاجمته مشاعر كثيرة، أهمها كان الشعور بالابتهاج. فامتلأ فوراً باغتباط عميق، فنسي كل تخوفاته، ونسي تفكيره أنه كان من الأحسن أن لا يكون له عقب.

فأخذ يقول: «يا حلوتي! يا حلوتي! وكله لطف يصعب عليه تعبيره، لطف يصعب عليه قياسه.

وأشرق وجه الحوراء وقالت: «سيكون ذكراً يا مولاي، أنا متأكدة أنه سيكون ذكراً».

فأجاب: «نعم سيكون ذكراً».

وقالت: «وسيكون أميراً، وسأكون فخورة بابني، وسنخفي نبله عن الناس ولن يدري بذلك إلا نحن، وربما في يوم من الأيام...».

لم تتم كلامها. ولكن عينيها عبرتا عن آمالها وأحلامها نحو جنينها.

فهز رأسه وعلق بلطف على تمنياتها، وقال: «ماذا يهم أن يمشي في طريق العظمة والقوة! ألا يمكن أن يكون سعيداً هنا؟».

فأحنت رأسها وقالت: «سامحني. إنني لم أرده أميراً إلا من أجلك، أفكر في اليوم الذي ستسأم من هذه الحياة وتفضل أن تبتعد عنها».

فأدار وجهه نحوها وقال: «في ذلك اليوم ستسأم الشمس من رؤية هذه الأرض في كل صباح.

وهكذا في واد منعزل من جبل الإثريات، امتلكت عبد الرحمن فرحة كبيرة، فرحة يشوبها شيء من القلق. كان القلق عميقاً جداً، لكن فرحته كبيرة لدرجة أنه لم يتأثر إلا بها. وكل ما كان يهمه هو حبه للحوراء. وبهجته بقدوم ابنه إلى الوجود.

ورغم ذلك، فبعد مضي الليل، ولحظات الفجر الأولى، أيقظ ذلك القلق عبد الرحمن من نومه، بعد أحلام مزعجة وكوابيس. استيقظ وجلس، وأوقف نفسه لحظة، وأخذ ينصت بينما وضع يده على مقبض سيفه.

وكانت الحوراء نائمة بجانبه على بساط داخل الخيمة الصغيرة، فشعرت بحركاته واستيقظت، وهمست في الظلام: «ما هذا؟».

فأصغى وقتاً طويلاً، لم يكن حولهم إلا هدوء القفار المتواصل.

ثم أجاب: «لا شيء يا حبيبتي، حلم فقط». وقبلها في الظلام، ثم عادا لنومهما.

انتقام حسن

واستيقظ عبد الرحمن على رائحة الخشب يحترق، ومع تلك الرائحة شعر في أنفه برائحة القهوة، فقبل كل شيء ظن أن الحوراء قد استيقظت وأخذت تهيء الفطور. لكن، كم كان عجبه عندما جلس ووجد الحوراء لا زالت نائمة بجانبه على الغطاء.

فأخذ بمقبض خنجره وفتح مدخل الخيمة. كان الصباح باكراً، والشمس لم ترتفع بعد فوق القمة المشرفة على واديهم الصغير، وعلى بعد مائة قدم منه، كانت النار الصغيرة التي أيقظته رائحتها كان هناك رجل متربعاً بالقرب من النار وأمامه جواده.

فزحف عبد الرحمن خارج الخيمة متعجباً ومندهشاً. فالقى نظرة عجلى عبر الشعب فلم يرَّ شخصاً آخر. كان الرجل الذي بقرب النار مستديراً بظهره ناحيته. وكانت السفانة مستيقظة، وقد وقفت بالقرب من الخيمة، فصهلت مرحبة عندما رأت سيدها. واستدار الرجل الذي كان بقرب النار، فاذا بعبد الرحمن يكتشف أنه روض. فذهب إليه وقال: «سلام عليك يا شيخ».

فأجاب روض: «وعليك السلام يا أخ بني زنقل».

فعرف عبد الرحمن بجوابه هذا أن هناك شيئاً غير عادي، وأشار له الغجري بالجلوس قرب النار وقال: «ستهيىء القهوة بعد قليل».

فقال عبد الرحمن: «مرحباً بك في مخيمنا الصغير» ورغم أنه عرف أن الحقيقة تختلف عما يسأل، استطرد قائلاً: «هل زلت بك قدمك نحونا في الظلام؟».

فهز روض رأسه وقال: «لا يا أخي، قال لي الشيخ راشد أين ذهبت واقتفيت أثرك طوال الليل».

فقال عبد الرحمن: «إذن كنت تفتش عني».

فجاب روض وعلى وجهه أمارات الاهتمام: «نعم كنت أفتش عنك، يا مسافر أنت صديق وأخ لبني زنقل، ولا أريد أن أضيع الوقت، إن أربعين من الفرسان يتعقبوني على بعد حوالي اليوم من السفر، هؤلاء فرسان الخليفة أبي العباس يفتشون على شخص من بني أمية اسمه عبد الرحمن، محكوم عليه بالإعدام».

وفي بضع دقائق، ومع هذا الكلام إنهار عالم عبد الرحمن الصغير بين عينيه. وتحولت كل أحلامه حطاماً في لحظة واحدة.

وتابع روض قوله: «ان اللص حسن هو الذي أتى بهم، فلقد سمع بأن الخليفة يفتش عن عبد الرحمن هذا وتذكر ملامح بني أمية، وتذكر السباق كذلك».

ثم قال روض بلطف كبير: «إنهم يبحثون عنك، يقولون إنك أنت عبد الرحمن».
وهز عبد الرحمن رأسه وقال: «نعم، أنا عبد الرحمن».
ولم تبد على روض أية علامة تعجب، كان أسلوبه في الكلام هادئاً كأنه يعرف ذلك منذ زمن بعيد.
وابتسم عبد الرحمن ابتسامة مرة، وهو ينظر في الفناء وقال: «إذن انتقم حسن».
والتوى فم روض كأنه ينفث سماً وقال: «لقد فات الوقت على حسن ليفكر في الانتقام، فقد أخطأ وابتعد عن مخيم رجال الخليفة فقبض عليه بنو زنقل عندما كان بمفرده، حسن قد مات، لكن الفرسان سيتابعون بحثهم عن عبد الرحمن». واستيقظت الحوراء. واتجهت نحو الرجلين وعلى وجهها خليط من الحياء والتعجب، وشيء من الخوف من شر ترتقبه.
وقال روض مسلماً عليها ومشيراً إلى الشرق المنير: «لقد طلع النهار علينا بقدومك» فأجابت الحوراء: «السلام عليك يا شيخ» ورحبت به بلطف، لكن القلق كان ظاهراً في عينيها. ولم تطمئنها التعابير الظاهرة على وجهي الرجلين.
ونظر عبد الرحمن إلى زوجته الشابة، ولم يدر ما عساه أن يقول لها. وصعدت مشاعره إلى حنجرته، فشعر كأن يداً على عنقه تريد أن تخنقه. ثم عرف أن أحسن طريقة هي أخذ الحزم بسرعة. فاستجمع قوته وقال: «إن فرسان الخليفة يبحثون عني، لقد أتى روض بالخبر».
فجحظت عينا الحوراء وأبيضت شفتاها وقالت: «أين هم؟» وأخذت تنظر إلى الأفق وهي مرتعبة كأنها ترتقب ظهور الفرسان المروعين. فأشار روض بيده إلى الشمال الشرقي وقال: «إنهم لا زالوا على بعد مسيرة يوم ثم سيلزمهم البحث عن هذا المكان».
فأخذت الحوراء بيديها يد عبد الرحمن وقالت: «سنذهب من هنا ليس لدينا وقت كاف، فهناك أماكن يمكننا الاختفاء فيها، أماكن بعيدة، لن يعثروا علينا».
ونظرت إلى روض كأنها تستغيث به. فبنو زنقل يعرفون أسرار نقط الماء في مجاهل الصحراء - أسرار لا يعرفها أحد غيرهم».
فأومأ روض برأسه وقال: «نعم، لا شك أن هناك أماكن يمكن الاختفاء فيها لوقت ما».
وحدق عبد الرحمن في عيني روض وقال: «إنك تعرف أنه ليس هناك أي مكان للاختفاء، الآن، فلقد وجدني مرة وسيجدونني مرة أخرى. وكل من يساعدني سيقاسي أمر العذاب».
وشدت الحوراء بيديها على يد عبد الرحمن - وأصابها اليأس وقالت: «وماذا ستفعل؟».
ونظر عبد الرحمن في اتجاه السفانة وقال: «سأذهب أنا والفرس».
فارتفعت الحوراء بين ذراعيه وقالت: «لا، لا! لنذهب معاً، خذني معك فأخذها بين

ذراعيه وضمها بشدة وأزال شعرها الأسود الأشعث عن وجهها وهمس قائلاً: «سأذهب من أجلك. ومن أجل طفلنا!» فأخفت وجهها في صدره وقالت: «لا».

فقال: «وفمه على أذنها»: «بل نعم، سيكون ذكراً كما قلت. سأنطلق بعيداً وسيولد هو في سلام – وسيعيش في بيت بني أمية من جديد بسببك» فصاحت: «لا». وكبتت صيحة احتجاجها على صدره وهي يائسة من حتمية ما سيقع.

اتخذ عبد الرحمن قراره ودفع بلطف الحوراء جانباً، وتقدم نحو روض الذي كان لا يزال متربعاً بقرب النار. ونظر إليه طويلاً ثم قال: «يا شيخ أنا عبد الرحمن من بيت أمية. إن الحوراء تحمل ابني – وقبل ولادته، حكم الخليفة عليّ بالاعدام وحكمه جار المفعول. لا أحد يعرف هذا إلا أنت وأنا والحوراء. خذها معك اخفيها بين نساء بني زنقل لمدة. وبهذا يمكن لابني ان يولد في سر وأمان».

فأجاب روض: «سيكون ما أمرت. وأنت ماذا ستفعل؟».

وأشار عبد الرحمن بيده نحو الأفق في ناحية الغرب وقال: «أنا والفرس سنذهب معاً. وعندما سيعرف رجال الخليفة أنني ذهبت سيوقفون بحثهم عني في هذا المكان».

واحتجت الحوراء قائلة: «كيف يمكنك أن تذهب؟ فليس هناك إلا الصحاري والقفار – تضيع أو تموت عطشاً في طريقك».

فأخذ روض إبريقاً من فوق النار – وأشار إلى الغرب والإبريق في يده وقال: «على بعد عشرة أميال من هنا ستجد شعباً ونقطة ماء، لا يعرفها إلا بنو زنقل – ستجد في انتظارك أحد رجالنا بفرس جيد لنفسه ومؤونة لاثنين. سيذهب معك ويكون دليلك».

فتعجب عبد الرحمن تعجباً كبيراً منعه لحظة عن الكلام. ثم قال لروض: وكيف علمت بما سأفعله؟».

فهز روض كتفيه وقال: «ان بني زنقل يعرفون عدة أشياء، ألم يتنبأ لك عمي هشام بالكثير ذلك المساء عن النار؟ تعال، وكل الآن معي ولنفترق بعد ذلك». لكن هذا الكلام لم يقض على تعجب عبد الرحمن. وبتعجبه، هذا غمر نفسهُ شيء جديد، شيء يشبه الأمل في وقت حرج كهذا. لقد عرف أن الغجري يؤمن بأن يد القدر تشتغل لمصلحة صديقه، كأنها تدفعه لموعد محتوم. وأخذ يشعر هو نفسه الآن بشيء من ذلك الإيمان.

لكن الحوراء لم تكن تشعر بهذا الأمل – لم تكن تعرف إلا أن زوجها مطارد، وأنه تحت خطر القتل وأنه سيتركها الآن – وحتى إذا نجا بحياته، فربما كان فراقه لها إلى الأبد – فذهبت تهيىء أشياءهما للافتراق وهي تبكي بكاء هادئاً – وتقدموا نحو طريق معوجة عبر الشعاب اليابسة والصخور نحو مكان الموعد ورجع روض مرتين في طريقه فوق الصخور القاسية، وانجرف نحو بعض الشعاب التي لن تترك آثاراً بعد مرورهم. وبهذا سيكون على مطارديهم بذل الساعات لاقتفاء أثرهم – وعندما وصلوا إلى مكان الموعد كان الوقت ضحى.

وتوقف روض على مدخل شعب طويل، وهو أحد الشعاب الكثيرة الموجودة في هذه الأرض الوعرة المقفرة - ولوح بيده فوق رأسه إشارة لشخص لم يرد بعد، وصاح: «نحن هنا». وتقدم بفرسه.

وتبعه عبد الرحمن ومعه الحوراء، لم ير إلا جروفاً ضيقة عليها شجيرات شوكية مبعثرة - ثم ظهر رجل بلباس طويل وعلى رأسه غطاء - وخرج من بين صخور الجرف كأنه شبح. وقادهما روض نحو الرجل.

وقال روض لعبد الرحمن: «هذا بدر. إنه يعرف الأرض كلها من هنا إلى بحر النيل معرفة لا يوازيه فيها أحد. إنه يعرف كل الطرق ونقط الماء السرية في هذه القفار، وسيكون دليلك».

كان وجه بدر أسمراً قاتماً قد لفحته شموس الصحراء الحارة آلاف المرات، كان رجلاً قصيراً، ممتلئاً وسط لباسه الفضفاض امتلاءاً زائداً بالنسبة لعرب الصحراء.

وقال بدر: «السلام عليك يا أخا بني زنقل». وانفتحت شفتاه الضيقتان على ابتسامة كبيرة تشبه تكشيرة لطيفة - كان فكه الأسفل بارزاً شيئاً ما، وأسنان فكه الأعلى الأماميتان مطحونتان فكانت ابتسامة مخيفة، وعيناه بارزتان كعيني عقاب ككل بني زنقل. ونزل روض من فوق فرسه، وأشار للآخرين بالنزول كذلك. وأعان عبد الرحمن الحوراء على النزول، وبدون أن تتكلم شدت نفسها إليه - فالوقت أصبح يمر بسرعة ولحظة فراقهما قد حانت. وتبع روضاً وبدراً وهو يشدها بين ذراعيه.

وانفتح الجرف الصخري الذي كان أمامهم كالحائط على فجوة، وأخذ الممر الضيق يتسع ويستدير، وهناك في خفية وجدوا الجواد المسرج مستعداً للطريق.

وأشار روض إلى ثقبة مظلمة في كهف صغير في الجرف الصخري وقال: «هذه حفرة الماء. لنروي الخيل ونملأ القرب».

وارتوت الخيل، وملأوا القرب. وكان الغجريان يعملان بكل تأن وطمأنينة، حتى ظهر لعبد الرحمن أن المنظر كله خيالي. ولم يقتنع بعد أنه سيترك الحوراء بعد لحظات - فالفتاة الراعية صارت حياته وعالمه. ولم يظهر له أن هناك شيء في الدنيا يستحق أن يهرب ملتجئاً إليه. ورغم ذلك فإنه يعرف أن عليه أن يذهب.

ومر الوقت بدون رحمة فانتهوا من البئر وتركوا الوادي. وقادهم روض نحو الغرب عبر شعاب أكثر وعورة. وأخيراً وصلوا إلى سهل منبسط جاف منفتح بين كديتين في اتجاه الشمال الشرقي.

ووقف روض والتفت نحو عبد الرحمن والحوراء - وودعا بعضهما. فهذه نقطة الافتراق.

وابتعد روض وبدر ليتركا عبد الرحمن والحوراء وحدهما - ونزل الغجريان من فوق فرسيهما ومشيا على الأقدام نحو هضبة قريبة زاعمين أنهما يستكشفان المناطق المجاورة.

ونزل عبد الرحمن من فوق السفانة وتقدم نحو الحوراء. فمشت نحوه بعزم وشجاعة، لكنها عندما احتضنها بين ذراعيه خانتها شجاعتها، وأخذت الدموع تنهمر على خديها وهي صامتة، وقد ضمته اليها.

وقال عبد الرحمن: «يا أعز مخلوق. يا أعز مخلوق!» وضمها إليه كأنه لن يفارقها أبداً. لم تكن هناك طريقة أخرى للتعبير عن حنانه. لم يكن لحبه لها أية حدود.

ووقفا هكذا وقتاً طويلاً، ثم نزل الغجريان من فوق الهضبة وركبا فرسيهما. وجاء وقت الفراق.

وقال عبد الرحمن: «يا حوراء» وأخذ يفكر في أعماق نفسه، لم يجد مواسيا له في وقت كهذا إلا التفكير فيها - ثم قال: «يا حوراء، إن الله موجود لا تشكي في ذلك، إن الله حي! وما دام الله في الوجود فلن يضيع الأمل. سأرجع اليك يوماً ما».

كان يتكلم من أعماق نفسه وإيمانه بأن الله لطيف، وأن للحياة هدفاً، وأن النصر سيأتي لا محالة.

لكن الحوراء لم تشاركه ذلك الإيمان العميق. كانت امرأة، وكانت تحتاجه ليكملها. وفي تلك اللحظة لم تكن تشعر إلا بقلبها يتحطم - ومع ذلك فإنها تابعت كلامه بدون تفكير، واستمدت من قولها شيئاً من المواساة.

وقالت: «إني أحبك. كل ما أعرفه أني أحبك. حيثما كنت سأبقى على حبك وآمل دائماً في عودتك إلي».

وقبلها مرة أخرى وابتلت شفتاه وخده بدموعها. ثم أعانها على الركوب على فرسها. وعندما ركب السفانة قالت له الحوراء: «أدعو الله أن تأخذك فرسك الجميلة إلى أرض السلامة بعيداً عن الأذى. استودعك الله وحبي لك!».

وتقدم عبد الرحمن بالسفانة نحو روض ليصافحه، وقال: «وداعاً يا شيخ، إن هماً يفرج على قلبي أنني أعرف أنك ستعتني بزوجتي وطفلي».

وقال روض: «أقسم بأبي إبراهيم، جعل الله رمال الصحراء تعصف بجثتي، إذا خنت وديعتك! وداعاً يا أمير. وتأكد أننا سنلتقي مرة أخرى».

ونظر عبد الرحمن مرة أخيرة إلى وجه الحوراء، ثم استدار بالسفانة، وتبع بدراً وهو يقوده نحو الغرب. وأخذ روض طريقه مع الحوراء نحو الشمال. وبقي عبد الرحمن يلتفت وراءه من فوق سرجه، وهو يبتعد شيئاً فشيئاً - فلقد كان يعرف أن الحوراء تنظر إليه كذلك.

وأخيراً وصل عبد الرحمن وبدر إلى قمة هضبة بينما كان روض والحوراء بعيدين فوق السهل - فوقف عبد الرحمن على سرجه ولوح بيده، وفي الحين أجابه شكل الحوراء البعيد ملوحاً بيده - ثم قاده بدر عبر الهضبة، وغابت الحوراء وروض عن بصرهما.

المطاردة

وسافر عبد الرحمن وبدر ساعة أو أكثر في سكوت تام، وهما يتحركان على حافة جبل الإثريات الشمالي. كانت الأرض منحوتة بوديان عديدة، ومغطاة بنبات متناثر، وشبه مهجورة. وكان تعجب عبد الرحمن كبيراً، عندما تقدما فوق كدية ورأى قطيعاً من الجمال يرعى في الوادي تحتهم. فأوقف بدر دابته وقال: «لنمض حولهم».

ونظر عبد الرحمن في وجه الغجري كأنه يفتش عن شيء وقال: «انتظر» كان يظهر على وجه بدر الجرأة.

فسأل عبد الرحمن: «ما ثمن رأسي؟».

فأجاب الغجري بسرعة: «عشرة آلاف دينار ذهبية» وأخذ ينظر إلى وجه عبد الرحمن باحثاً عن سبب لسؤاله هذا.

ثم تابع عبد الرحمن كلامه سائلاً: «وما هي عقوبة من يعينني؟».

فأجاب بدر: «الموت».

وقال عبد الرحمن: «ومع ذلك أنت تعينني، ألا تخاف من الموت؟».

فضحك بدر وتفتحت شفتاه على أسنان مكسورة - فأشار بيده حول الأفق وقال: «لا يعرف أحد هذه الصحراء مثل بني زنقل. ومن بني زنقل لا أحد يعرف هذه الصحراء مثل بدر - من هنا إلى خليج السويس. فالصياد لا يمكن أن يقتل طريدته حتى يلحقها»!.

فهز عبد الرحمن رأسه، وتوقف ينظر إلى عيني بدر المتسائلتين وقال: «افترض أنه قيل لرجال الخليفة أين ذهبنا، أيمكننا أن نسبقهم؟».

فأجاب بدر: «بأفراس كهذه من سيلحقنا!» كان جواب بدر يعبر عن ثقته، ولكنه كان لا زال مرتبكاً لأسئلة عبد الرحمن.

فأومأ عبد الرحمن برأسه مرة أخرى وقال: «إذا عرف رجال الخليفة بأنني ذهبت فسيتوقفون عن البحث عني في خيام الشيخ راشد، وخيام بني زنقل وسيتبعوننا، وهكذا سينجو الذين أحبهم».

فأشار بدر إلى فرسه بالتقدم وقال: «تعال نمشي عبر قطيع الجمال!» وكان مع القطيع رجل واحد نحيف الجسم، لباسه نصف بدوي ونصف غير ذلك. ربما خادم من خدام معسكر. فسلم عليهما بأدب بالغ وفي عينيه نظرة حذر، كان فرحاً لمرورهما وهو في وحدته، لكنه أظهر عدم الثقة في الغريبين.

وكذريعة لتوقفهما سأله بدر: «أعندك ماء، فإن قربنا على وشك الفراغ». وحرك الرجل قربته ليريهما أنها فارغة. ثم أشار إلى الناحية التي كانا يتجهان إليها وقال: «هناك مخيم شعر. وهناك بئر، اتبعا آثار قطيعي وستجدونه».

ووقف ينظر إليهما وهما يبتعدان، لا شك أنه لاحظ قربتيهما المملوءتين رغم حكاية بدر.

وتقدما حوالي ثلاثمائة قدم، ثم أوقف بدر فرسه وقال: «الآن يجب أن نتأكد أن رجال الخليفة سيلحقون بنا، انتظر هنا».

وأدار رأس فرسه واتجه مسرعاً نحو قطيع الجمال، ثم انحنى على الراعي المستغرب وقال: «اسمع، هل تعرف إشعال النار؟».

وبهت الرجل وأخذ ينظر إليه مستغرباً هذا السؤال.

فقال الغجري متبرماً: «النار، النار، هل تعرف إشعال النار؟».

وأسرع الرجل بالإيماء برأسه. وكان حوله أشجار شوكية يابسة وشجيرات رتم هنا وهناك وروث الجمال يابسا. كل ذلك كان يمكن استعماله كوقود ممتاز للنار. وقال بدر: «طيب، خذ هذا» ومد يده بتحفظ قريباً من جانب فرسه من الناحية المخفاة عن عبد الرحمن، وأعطى للراعي قطعة ذهبية».

وأخذ يتكلم بسرعة وبصوت آمر وقال: «الآن عندما نغيب عن بصرك أوقد ناراً كبيرة، وضع فيها روث الجمال الطري لكي تطلق دخاناً كثيراً. عندئذ سيأتي عندك فرسان، كثير من الفرسان، قل لهم أن الرجل الذي تفتشون عنه اتجه إلى هذه الناحية، قل لهم إني تركت لهم آثاراً يتبعونها، افعل هذا وسيعطيك رئيسهم قطعة ذهبية أخرى».

ووقف الراعي فاغراً فاه من الدهشة، محدقاً تارة في القطعة الذهبية في يده وتارة في وجه بدر.

وسأله بدر: «هل ستفعل ما قلت لك».

فأومأ الراعي برأسه بحماس قائلاً: «نعم».

وقال بدر: «طيب، أشر وكأنك تريني الاتجاه الذي سنذهب فيه».

فمد الراعي يده مشيراً الى تلك الناحية. وأومأ بدر برأسه. واندفع بفرسه متجهاً نحو عبد الرحمن.

وقال: «تعال» واتجها من جديد نحو التلال. وبينما هما يتقدمان، أخذ بدر ينظر وراءه المرة تلو الأخرى. وقبل أن يعبرا حوالي الميلين رأى ما كان ينتظر، فقد تصاعد عمود رقيق من الدخان في الهواء وراءهم، وضحك بدر ضحكة خافتة، معبرة عن الارتياح.

وقال لعبد الرحمن: «تلك هي العلامة التي قلت الراعي أن يفعلها، سيراها رجال الخليفة، وسيأتون عما قريب».

قال عبد الرحمن: «وماذا سيعتقدون؟».

فهز بدر كتفيه وقال: «سيعتقدون ما اعتقد الراعي، وهو انني أريد خيانتك. وماذا يعنيك ما سيعتقدون، سيقتفون آثارنا وهذا ما أردته».

وعند الاصيل، أخذا يتقدمان بجد، وهما يسيران في اتجاه الجنوب، عبر الممرات بين الهضاب. وتركا آثاراً فوق السهل لمن يريد متابعتهما. وفي طريقهما رأيا عدة مرات خياماً

وقطعان غنم، لكنهما لم يقفا لأحد، ولم يتكلما مع أحد. وعندما نزل الظلام أمر بدر بالوقوف.

ثم أكلا واعتنيا بالفرسين. وقال الغجري لعبد الرحمن: «نم ولا تخف، فإنهم لن يدركوننا الليلة».

ونام عبدالرحمن نوم إجهاد، ليس فيه أحلام كأنه في قعر حفرة سوداء. وأيقظه بدر في الصباح الباكر عند الفجر. ولم تطلع الشمس حتى كانا فوق فرسيهما.

فتركا متاهات جبل الاثريات، واتجها نحو منطقة وديان واسعة كبيرة متجهة نحو الغرب. وتدريجياً صارت الأرض أكثر أنساً وهما يتقدمان، وصارت الحشائش والشجيرات أكثر عدداً على الطريق. ورأوا عدة مرات القطعان والرعاة.

وأخذت الأرض ترتفع تدريجياً، وفي العشي خرجا من منطقة الوديان، ووصلا إلى نجد فسيح، كانت تلك هي المنطقة الجنوبية من جبال شرقي الأرض التي تمتد إلى خليج العقبة. وتركا الصحراء وراءهما.

وعند اقتراب الغروب، قطعا طريق الحاج التي كان عبد الرحمن تركها في شمال ذلك المكان، عابراً الحمد، ومتجهاً نحو وادي السرحان. وقطعها بين القوافل شمال «أبو الجردان».

وفي تلك الليلة، خيما على سفح مجموعة قمم صغيرة تكون سلسلة جبال شرقي الأردن في تلك المنطقة. ونام عبد الرحمن كذلك نومة المجتهد. ثم سافرا يومين متتابعين عبر متاهات الوديان وسلاسل جبال متقطعة. وفي صباح اليوم الثالث وصلا إلى جبل هارون. فتسلقا سلسلة تلال. وعندما وصلا إلى القمة، ظهر فجأة أمام أعينهما منظر رائع ساحر.

فالحاجز الجبلي كله من الشمال إلى الجنوب، إلى أبعد ما يرى بالبصر ينزل كالحائط على منخفض كبير. هذا هو وادي عربة، تلك القفار الشاسعة من الأراضي المنخفضة التي تمتد من خليج العقبة إلى البحر الميت، وفي هذه النقطة كان اتساع الوادي ثلاثين ميلاً، بينما جانبه الآخر ضائع في الأفق.

وأشار بدر بسبابته عبر الهوة الفسيحة، إلى خط أسود على الناحية الثانية وقال: «التيه». وكان ذلك حافة جبل التيه الذي يكون سلسلة أجراف على الناحية الأخرى من وادي عربة. وتلك السلسلة هي كذلك حدود شبه جزيرة سيناء.

والنزول إلى وادي عربة كان كالنزول إلى فرن، فالهواء هناك حار ومحمل برطوبة مزعجة، كانت تزيد نسبتها كلما تعمقا أكثر في النزول. ونزلا بالفرسين عبر المنحدر المائل. وأخذ الرجلان والفرسان يتنفسون بصعوبة. وعندما وصلوا إلى قعر الوادي صاروا مبللين من العرق. رغم أن الأرض التي تحيط بهم كانت أرضاً جرداء يابسة.

وتوقف بدر لحظة ليعطي الماء للفرسين من القرب، ثم انطلقا من جديد وقال: «يجب أن نقطع هذا الوادي بأقصى سرعة ممكنة». وأخذ ينظر وراءه عبر الجبال وهو يتقدم كأنه

يبحث عن شيء.

وقعر وادي عربة كقعر محيط جف ماؤه منذ عهد قريب، لم يكن صحراء، ومع ذلك لم يكن يقل هلاكاً عنها بسبب أملاح التربة ومعادنها.

وعبرا الوادي بعد جهد وعذاب وهما يتركان أحياناً الفرسين يسيران حتى لا يتعبانهما. وبعد كل لحظة يدير بدر وجهه ليرى الطريق وراءهما.

. وفي مغرب ذلك اليوم، أبصر بدر فرسانا ينزلون من الجبال وراءهم. لكن المسافة كانت كبيرة. والهواء مليئاً بسديم أزرق لدرجة أنه لم يكن متأكداً مما رأى. كان ذلك ما توقعه فاستحث له. ونزل الظلام، فتابعا سيرهما في الليل.

وتغيرت الحرارة بسرعة مع نزول الظلام وأخذت الريح تهب لاذعة تأتي من الشمال من ناحية أخرى البحر الميت، وهي تعصف عبر قفار وادي عربة الواسعة. وكما أن النهار كان شديد الحرارة والرطوبة وثقيل الوطأة، فإن الليل كان قاسياً وقارساً. وأخذ عبد الرحمن يتساءل كيف أن بدراً عرف طريقه في ظلمة الليل، لكن الغجري كان يقوده بدون توقف.

ولم يأمر بدر بالوقوف إلا بعد منتصف الليل وقال: «هذا بئر ابن عودة سنستريح هنا إلى الصباح».

لم ير عبد الرحمن أي بئر في الظلام ولم تهمه معرفة أين يوجد. كان مجهداً لدرجة كبيرة ولم يجد القوة ليرفع بها السرج عن السقانة. كان جامداً ومتألماً ومستاءاً من شدة الريح، ورغم ذلك أعان فرسه على أن تضطجع. ثم اضطجع محتمياً بجسمها وغطى جسمه حسب إمكانه. واقترب من فرسه مستمداً الدفء منها ثم نام نوم الأموات.

ولما أيقظه بدر شعر كأنه نام لحظة، لكن السماء أخذت تستضيء بأشعة الفجر الأولى. والرياح توقفت، وأخذ سكون عالم ميت يحتضنهم في وسط دائرة بصرهم الصغيرة.

وظهرت البئر قريبة في ضوء الفجر الباهت كان ماؤها بارداً ومرتفعاً إلى السطح وقضيا وقتاً قصيراً عند البئر يأخذان الماء ويرويان الفرسين، ثم تابعا طريقهما من جديد.

وعندما طلعت الشمس اظهرت لهما منظراً جديداً. فجبال التيه كانت قريبة منهما وتغير لونها من أسود إلى أحمر تحت تأثير شمس الصباح. وتقدم المسافران مجهدين للوصول إلى الجبال قبل أن تُطوق حرارة النهار قعر الوادي.

وبعد سفر دام بضع ساعات، وصلا إلى سفح الجبال. وتقدم الفرسان بتحمس نحو المرتفعات وهما يشعران أن ذلك يعني الهروب من الحرارة والرطوبة الشديدين.

وعند اقتراب مغرب ذلك اليوم كانا على مقربة من قمة جبل التيه. فتغير الهواء نهائياً هناك، وصار خفيفاً وصافياً صفاء تاماً. فوقفا على قمة واسعة ليتأملا الوادي وراءهما.

فقال بدر: «انظر!».

فظهر وادي عربة منظراً عجيباً منبسطاً تحتهم. وفي قعره القاحل أمكنهما أن يميزا أشياء قائمة على أبعاد سحيقة. وتمكن عبد الرحمن ببصره الحاد أن يرى ما أشار إليه بدر: فرسان يتبعون آثارهما كأنهم النمل. لم يكن بعدهم عنهم يزيد عن عشرة أميال.

سيناء

وظهر على وجه عبد الرحمن الارتياح وهو يدرس أشكال تابعيهم الصغيرة وقال: الآن نعرف أين هم، لقد حملوا خيلهم جهداً كبيراً كذلك!».

وكانت السفانة والفرس الأخرى لا زالا في حالة مرضية، لأن بدراً وعبد الرحمن أراحاهما، ونزلا يمشيان عبر وادي عربة. أما فرسان الخليفة فإنهم أسرعوا فوق أفراسهم بدون انقطاع، لربح هذه المسافات الطويلة، لا شك أن ذلك كان من خطة بدر.

وقال الغجري: «توجد بئر في الجبال على بعد عشرة أميال جنوباً، لكننا سوف لا نذهب في ذلك الاتجاه لأنهم سوف يتبعوننا».

وتابع عبد الرحمن وبدر طريقهما على حواف التيه ما تبقى من النهار، وكان صعوداً متوالياً، لم يقطعه إلا سلاسل صغيرة من الجبال، ووديان، بينهم وشعاب متكسرة، بين الوديان. كان المسافران مختفيين عن بصر من هو في قعر وادي عربة الفسيح. لكنهما تركا آثاراً تسهل لمن أراد اتباعهما في هذه المرتفعات القاحلة.

وعندما خيم الظلام. وقفا بين الصخور قرب قمة جبل التيه، كانت الأرض كخيال كلها جرف ناتئة. ولم يكن فوقهما إلا النجوم الباردة وهي ترسل لهما ضوءها الخافت.

وقال بدر: «سننام هنا لن يستطيعوا الوصول إلينا في الظلام».

وبدون أن يتفوه بأية كلمة، أخذ عبد الرحمن السرج من ظهر السفانة واللجام من فمها، وانبطح بجانبها على الأرض الصخرية، وغرق في نوم عميق كأنه مخدر.

وجاء الصباح كأنه حلم أسود بارد. وظن عبد الرحمن عندما أيقظه بدر أنه لا يزال يحلم. وعندما ظهرت أشعة الشمس الأولى وهي ترمي بسهامها عبر الشعاب، ركبا فرسيهما من جديد. وسارا على قمة جبل التيه، ذلك الخط الذي يحد على الجهة الأخرى منه شبه جزيرة سيناء. ومن علوهم المطل كشف نور النهار عن متاهات شاسعة من أرض وعرة بدون نهاية، ذات وديان ملتوية ومقفرة، فتابعا سيرهما ونزلا إلى الجهة الثانية.

وقادا فرسيهما بشدة. وهما ينظران وراءهما حيناً بعد حين، وعند الظهر كانا على سفح الجبل، ووصلا إلى وادي خريزة، وتغيرت أحجار التيه إلى رمال. وصارا في الصحراء من جديد.

ونظر بدر وراءه، وابتسم ابتسامة ضاقت بها عيناه من الارتياح وقال: «الآن سنفقود فرسان الخليفة!».

ولم يفهم عبد الرحمن بالضبط ماذا يعني زميله بقوله هذا، ولكنه عرف أن الغجري

وضع مخططاته منذ زمن بعيد.

وستلعب المراحل الأخيرة من المطاردة أمامهما في صحراء سيناء.

ووقفا برهة قصيرة، ليشربا من القرب، ويسقيا فرسيهما، ثم اندفعا بقوة ونشاط عبر الرمال.

وقفار سيناء هذه أراضٍ حارة معطشة، هكذا وجدها قوم موسى منذ ألفي سنة، ولم تتغير كثيراً منذ ذلك العهد، ولم يمروا فيها إلا في حافتها الغربية من الجبال، أما مناطقها الوسطى الخالية من الحياة، فلم يرها قط حشد موسى التائه. وكان أكثرها في ذلك الوقت خالياً من السكان ولا زال كذلك إلى اليوم.

ورغم ذلك فالغجري بدر كان يعرفها ويعرف كل قفارها الخالية، كان يعرفها جيداً لدرجة أنه دفع بالفرسين عبرها، وكله ثقة بنفسه، وصارت الجبال وراءهم وقد تغير لونها إلى أرجوائي، ولم يكن تحت أقدامهم ولا أمامهم إلا الرمال اللينة. كانت الشمس ترسل عليهما أشعتها المحرقة، ولكنهما لم يريحا فرسيهما في ذلك اليوم. وكثيراً ما يدير بدر وجهه ليرى آثارهما عندما يكون فوق قمة كثيب من الكثبان. لم يرَ أي شيء عبر مجالي بصره. وكان مرتاحاً لذلك. وأخيرا عندما انتهى النهار الطويل، وحل الأصيل، ولفحتهما شمس المغرب، وصلا إلى محل سماه بدر «البئر المالح» وهو يقع في وسط هذه البقعة المهجورة، كان مبنياً بجهد، وبحجر وضعته أيد، ربما ماتت منذ ألف سنة.

ونزل بدر من فوق فرسه ليرى أعماق البئر الفارغة، وهز رأسه مؤكداً لما رأى وقال: «البئر جافة كما كنت أتوقعها، ليتفضل رجال الخليفة وليشربوا ما استطاعوا الليلة أو غداً. سوف لا يجدون بئراً أحسن منها إذا لحقوا بنا».

ووقفا عند البئر مدة تكفيهما للشرب من القرب وسقي فرسيهما. وعندما كانا مترجلين، وبدر يشرب حصته من الماء، لفتت انتباهه حركة غبار بالقرب من البئر، فصاح: «ثعبان!».

كانت أفعى قرناء متمددة بهدوء في ظل صخور البئر، ولسبب ما تحركت مظهرة نفسها، ولم تكن تبعد غير بضعة أقدام من بدر، عندما كان يطل في البئر.

وفوراً، شعر عبد الرحمن برجفة عندما فكر كيف أن زميله اقترب كل هذا الاقتراب من الزاحف السام بدون أن يشعر. وأخذ ينظر حوله مفتشاً عن عصا أو شيء اخر يقتلها به. وعندما لم يجد شيئاً، هم بأخذ خنجره ليضربها.

لكن بدراً مد يده ليكبحه عن ذلك وقال: «اترك الثعبان يعيش، فسوف لن يؤذينا». وأراق نقط الماء الأخيرة التي بقيت في القربة في اتجاه الثعبان، فانزلقت الحية هاربة. فقال الغجري مازحاً: «أمكث، أمكث، أيها السي السام! انتظر رجال الخليفة وأقرأ لهم منا السلام». واختفى الثعبان في منخفض وراء أعشاب ذابلة. كانت هذه أول مرة يرى فيها عبد الرحمن رجل الصحراء يترك ثعباناً يفلت منه. فمعظم البدو يشعرون بالاشمئزاز من

الحية القرناء القاتلة، رغم قلة وجودها ويقتلونها بدون تردد.

ونظر عبد الرحمن حوله متعجباً كيف أن الحية أمكنها أن توجد في مثل هذا المكان، وكان قد تعجب هكذا عدة مرات من قبل، وفي هذه المرة كان سبب تعجبه وجود الثعبان.

وتابعا سفرهما وهما مغموران بوهج الشمس الغربية الأحمر. وأرخى الظلام عليهما سدوله. وفجأة، تغير الطقس، ففقد الرمل حرارته بسرعة أكبر مما اكتنزها في صباح ذلك اليوم. وعندما خيما، بعد بضع ساعات من غروب الشمس، غدا الجو بارداً، وكانا قد سافرا عدة أميال في ذلك اليوم. وحسب تقدير بدر فقد قطعا مسافة أكبر مما يمكن أن يقطعها فرسان الخليفة. فباتا تلك الليلة بدون احتراس. وفي اليوم التالي، أفاقا عند الفجر، وتابعا طريقهما من جديد.

وحينئذ، التفّ قعر الوادي الرملي الفسيح نحو الشمال الغربي فتبعا طريقه. وسارا حتى أضاءت حرارة شمس الظهر الصحراء كلها. عندئذ أمر بدر بالوقوف في ظل صخرة كبيرة. فشربا من ماءهما المتناقص، وأكلا وارتاحا، بينما نشرت شمس الظهر المحرقة ضراوتها. ووقف الفرسان بهدوء بينما نام الفارسان. وقبل نومهما تسلق بدر قمة الصخرة، وأخذ ينظر عبر آثارهما. وعندما استيقظا في العشي، تسلق بدر الصخرة مرة أخرى ليستطلع المنطقة.

وعندما نزل قال: «رأيتهم! انهم على بعد حوالي ستة أميال وراءنا، ولكنهم سافروا النهار كله في هذه الحرارة الشديدة. الآن سنهرب عنهم من جديد».

حينئذ، كان السير على الرمال محتملاً أكثر، أما الفرسان فكانا قد أخذا راحتهما. فاستأنفا طريقهما بنشاط. وكان اتساع الوادي حوالي خمسة عشر ميلاً كنهر كبير من الرمل. عند ذلك التفّ بتدرج نحو الشرق متابعاً مجراه. ونزل الظلام ومعه البرودة. لكنهما تابعا طريقهما.

وسافرا حتى منتصف الليل. ثم وقفا للاستراحة. وكان بدر يعرف تماماً مدى المسافة التي بينهم وبين مطارديهم، فنام وقلبه مطمئن تمام الاطمئنان – لكن عبد الرحمن نام قلقاً.

وأشرقت شمس ذلك اليوم عن يمينهما. بينما أشرقت في اليوم الماضي على يسارهما. ولم تشرق على الهضاب التي تحيط بالوادي الرملي، حتى كانا مندفعين فوق فرسيهما.

وأشار بدر إلى قمة شامخة في الشرق وقال: «هذا جبل خريم» والبارحة كان هذا الجبل نفسه على الغرب منهما. فلقد سافرا على نصف دائرة كبيرة.

واتسع الوادي أمامهما اتساعاً كبيراً، حتى ضاعت حاشيتاه عن البصر، فقال بدر: «وادي البروك!».

وكانت أشعة الشمس تلفحهما بشراسة، فوقف بدر وسكب حصته من الماء وحصة عبد الرحمن، وأعطى الباقي للفرسين، وكان ذلك آخر ما تبقى معه من الماء.

لقد كان وادي البروك أرهب امتداد من الصحراء مرّا فيه إلى الآن، يغطيه رمل أبيض

متموج، يبهر البصر بشدة، وليس فيه شجر ولا حشيش، وكانت الكثيبات سبب مشقة للفرسين حيث أنها كانت لينة وغادرة. اما التجويفات بين الكثيبات، فقد كانت خانقة. ودفع بدر الفرسين بشدة لأسباب لا يعرفها إلا هو، ومن حين لآخر يترجل هو وعبد الرحمن ليريحا الفرسين، ولكنهما سرعان ما يعودان إلى سرجيهما، ويدفعان الفرسين للسرعة المتواصلة من جديد. كان واضحا أن في نفس بدر هدفاً محدداً، وهو تواق لأن يصله مهما كلف ذلك من مشقة.

وعندما اقترب الظهر، لم يعد عبد الرحمن يطيق حرارة الشمس أبداً، لكن لفحة أمل أخذت تظهر، فقد ظهرت أمامهما جزيرة قائمة فوق أمواج الرمال البيضاء، كانت أقرب بكثير مما تصورها في أول وهلة، فتوضحت على ركن من التلال المنخفضة ممتدة إلى وادي البروك.

فوصلا إلى حافتها بعد الظهر بقليل. وعندما اقتربا منها كانا يلهثان من التعب، وتمنى عبد الرحمن بحرارة أن يجدا ملجأ ما هنالك.

وعندما وصلا قمة كثيب عالٍ، انكشف لهم منخفض يدور حول أطراف الجرف. فقال له بدر: «لا تحزن، فرحمة الله في هذا المكان كذلك».

وظن عبد الرحمن أن تلك الرحمة تعني الماء. لكن أين سيكون الماء؟ لقد رأى قبل هذا الصخر والرمل، ولكن لم يرهما تحت شمس قاسية كهذه.

فتقدم به بدر موازياً لحائط الجرف الغربي - وأكثر هذه السلسلة كان مكوناً من حجر رملي عوضاً عن حجر الصوان. وكانت تلك السلسلة منشقة ومتصدعة في عدة محلات، كما هي عادة سلاسل صخور الرمل، ومنفتحة في محلات أخرى عند شعب جانبية. وفي مكان منها وقف رحى عظيم من الصخر كانه نصف جامع.

وكانت الشمس قد انزاحت عن الزوال بقليل، فكان ظل هذا النتوء في حائط الجبل قصيراً جداً. فوقف بدر في ذلك الظل، وعند قدميهما في أرض تلك الصحراء، سقطت ألواح من صخور الرمل نصفها مدفون فيه.

فنزل بدر، وأخذ ينظر من حوله ثم رفع رأسه إلى نتوء الصخر وإلى الجرف كأنه يبحث عن شيء، ثم تراجع إلى بقعة في الخلاء بينهما. وفي تلك البقعة كان الرمل منبسطاً. وعلى بعد أشبار قليلة منه وجد صخرة، فهز رأسه مرتاحاً وصاح في عبد الرحمن: «تعال، أعني على هذا!».

فترجل عبد الرحمن وحفر معه الرمل. فكشفا عن لوح من الصخر شبه دائري قطره حوالي ثلاثة أقدام. ففتش بدر في عدته وأخرج دلواً من الجلد، وطرح برنوسه ليحسن عمله، ثم حفر عن الرمل بالدلو من حول أطراف الصخرة. وكان تحت الصخرة أرض صخرية ممتدة من أسفل الجرف.

ولما كشفا عن اللوح الصخري نهائياً، نظف بدر الأطراف من الرمل الخفيف وقال

لعبدالرحمن: «ارفع معي الآن».

فرفعا معاً اللوح، وأزاحاه جانباً. فانكشفت لهم حفرة مظلمة.

الماء! وعندما كشفا الحفرة، شعر عبد الرحمن بذلك الماء البارد، الذي جعل الله منه كل شيء حي ينبع من البئر. فاستطاع ان يرى تحت قدميه ذلك الوميض النفيس.

وقال بدر: «انتبه، إن الماء عميق هنالك. ثم رجع إلى فرسه وأخذ حبلاً طويلاً من الليف كان يحمله ملفوفاً وراء السرج. فربط الدلو في طرف من الحبل ورماه في الحفرة - فسقط الدلو في الماء بعمق حوالي عشرين قدماً، نائراً الرذاذ وأخرجه طافحاً بالماء. وقدمه أولاً إلى زميله. فشرب عبد الرحمن بجرعات الظمآن، وشعر بطعم تلك الماء يشبه طعم الماء الذي قدمته له الحوراء عندما لقيها أول مرة بعد عبوره للحمد. وكان كالماء الذي أخرجه موسى من الصخر في المتاهات - كان الحياة نفسها في الصحراء، منعشاً وطيباً بدون نهاية.

وبعد بضع جرعات، أرجع الدلو إلى بدر فاخذ الغجري يشرب كذلك، ثم تقدم اليهما الفرسان معبرين عن ظمأهما.

فقال عبد الرحمن للسفانة: «يا عزيزة. ان الطريق كانت شديدة». ثم أزال الشكيمة من فمها، والسرج من فوق ظهرها، ولاطفها بعطف على جنبها وجيدها وخدها.

فقال بدر: «لم تكن الطريق شديدة عليها كما هي شديدة على جياد رجال الخليفة».

ثم ألقيا الدلو في البئر المرة تلو الأخرى وهما يسقيان الفرسين وأزالا غطاء رأسهما - وتجردا من ملابسهما إلى الخصر - وأخذا يصبان الماء على رأس وكتفي بعضهما البعض، ليغتسلا من غبار الصحراء ويتنشطا.

ومسح بدر الماء عن عينيه وقال: «هذا البئر... أراني اياه أبي عندما كنت طفلاً - لا يعرفه إلا بنو زنقل، ومن بني زنقل لا يعرفه إلا أناس يعدون على أصابع اليدين. وآخر مرة استعمل فيها كانت منذ خمس سنوات».

فملأ عبد الرحمن شعور من التعجب وحب الاستطلاع - وقال: «من بنى هذا البئر ومتى بُني؟».

فأجاب بدر: «الله أعلم. بُني في غابر الأزمان - أنظر، وأشار إلى شق يسري إلى قاعدة الجرف الصخري بقربهما ثم قال: «ذلك الشق في الصخر يسري بعيداً وراء الجبل، وبطريقة ما يأتي الماء فيه من عمق الأرض - وفي هذه البقعة انفتح الشق وصار بئراً - وهذا البئر كان هنا من أيام موسى، وكان عميقاً لدرجة أن صنارة طولها مائة قدم لا تصل إلى قعره. وفي ذلك الوقت كان سكان هذه الأرض يستعملونه المرة تلو الأخرى، وكان الرمل بعيداً عنه، ثم طغى عليه وملأه، فغطوه بصخرة. وذهب السكان وضاع البئر على الناس إلا القليل منهم. والآن لا يعرفه إلا بنو زنقل وأنت».

فأجاب عبد الرحمن: «لن أبوح به لأحد».

وقال بدر: «تعال لنأخذ منه حاجتنا ونغطيه من جديد».

فاغتسلا، وملأا قرابهما، ثم سقيا الفرسين. وشربا هما كذلك. وأخيراً عندما آخذا أكثر من حاجتهم من الماء، أعادا لوحة الصخر إلى مكانها فوق البئر، حينذاك لاحظ عبد الرحمن أن الصخرة قد كسرت على مدارها من جهتها السفلى لأن سطحها الأسفل يلائم الحفرة تماماً. وبهذا لا يمكن للصخرة أن تتحرك بمفردها، وفي نفس الوقت كانت سداداً محكماً تمنع الرمل من التسرب في الأرض.

وقال بدر: «والآن الرمل».

ثم غطيا لوح الصخر من جديد برمل الصحراء الأبيض، وعندما انتهيا أخذ بدر غطاء السرج وجعل يجره في كل اتجاه عبر مساحة الرمل حتى صارت ملساء، ثم طوى الغطاء وروح بها. فتموج الرمل حتى صار كباقي الصحراء، وذهبت آثار كل حفر على البئر. فصار كما وجداه عندما أتيا إليه مختفياً تماماً عن أعين جاهلية.

وأخذ منهم هذا الشغل الوقت ما بين الظهر والعصر، كان الجو قائظاً، لكن الشمس بدأت في الزوال. فاستأنفا سفرهما على طول الوجه الغربي من الجروف، لم يكونا مرتاحين بعد، إلا أنهما استعادا بعض قوتهما الجسدية والنفسية.

وبعد قليل وصلا إلى فجوة في حائط الجرف تؤدي إلى المرتفعات فوق الجروف، فقاد بدر الطريق في هذا المكان، مبتعداً عن الصحراء الرملية، ومتقدماً نحو الجبال. وكانا كلما صعدا، توسع مجال بصرهما عبر الوادي. وعندما وصلا إلى قمة السلسلة، أمكنهما أن ينظرا بعيداً نحو الاتجاه الذي أتيا منه، وأبصرا ما كانا يتوقعانه وسط وادي البروك: فرسان الخليفة لا يزالون يقتفون آثارهما. وتفحص بدر مطارديهما بدقة للحظة وجيزة ثم هز رأسه برضاء شرس وقال: «إنهم ظمأى».

وعندما قال ذلك، تفتحت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة قاتلة وبدون رحمة.

ورغم بعدهم عنهما عدة أميال، أمكن عبد الرحمن أن يرى أن ملاحقيهما في محنة شديدة، كانوا متفرقين على غير انتظام، والكثير منهم راجل، وهم يتهادون بجانب جيادهم المرهقة. وكان سيرهم بطيئاً ومجهداً. وكما توقع بدر فلقد انقلب الوضع نهائياً الآن، فرجال الخليفة، عوضاً عن أن يتابعوا طريدتهم صاروا يقادون من قبل عطشهم.

وأوقف عبد الرحمن وبدر فرسيهما في موضع مشرف على الوادي، فلحقهما أحد الفرسان، ورآياه يقف ويشير إليهما للآخرين.

فأدار بدر فرسه وهو راض، وقاد الطريق عبر المرتفعات الصخرية. وقال: «والآن سيتبعوننا». ثم هز كتفيه وقال من جديد. وما عساهم أن يفعلوا؟».

فقال عبد الرحمن موحياً: «ربما يعثرون عل البئر».

فأجاب بدر: «أبداً!».

وعرف عبد الرحمن أن الغجري على صواب، فإن رجال الخليفة لن يكتشفوا نقطة الماء

السرية، حتى ولو ساروا عليها.

وعندها أخذ يفكر في ظمأهم وظمأ جيادهم، ورثى لحالهم، رغم أنهم يريدون قتله.

لقد كان يعرف معنى العطش، ولهذا لم يكن يريد أن تنزل بلية بأي مخلوق إن أمكن ذلك، ورغم ذلك فلقد عرف نتيجة هذه المطاردة! فإن بدراً كان يقود رجال الخليفة إلى الموت.

وفي آخر النهار رأيا ملاحقيهما من جديد - لقد سافر بدر وعبد الرحمن حوالي ستة أميال عبر الهضاب المتقطعة. وأخذت الشمس في الغروب عبر سراب من غيوم طويلة منخفضة، تشبه القضبان، قرمزية اللون، منتشرة في نصف دائرة عبر السماء، كان غروباً من لهيب مثير. وفي مواجهة هذا الأفق، رجال وجياد يظهرون على حوالي سلاسل الجبال التي تطل على وادي البروك. كان وجه بدر كالحاً كوجه جلاد، وهو يدير رأسه وينظر إليهم. وقال: على بعد ثلاثين ميلاً نحو الغرب، يوجد بئر ثمالة - لو ذهبوا في ذلك الاتجاه ربما وصل بعضهم حياً، أما الآن فلن يجدوا الماء قط».

وكان نصف السماء الغربي مغموراً في جمرة، كأنها انعكاس لجحيم في وجه ظلام يقترب. وظهرت وجوه فرسان الخليفة القاتمة تتقدم نحو بحر من الدم.

خليج السويس

وبعد الغروب خيّما وناما، لأنه ليس باستطاعة رجال الخليفة أن يقتفوا آثارهما في الظلام عبر الصخور. وفي اليوم التالي سافرا نحو الجنوب، ثم نحو الشرق، وفي غالب الأحيان كانا على مرأى من ملاحقيهما. ولكن هذا لا يمكن أن يسمى الآن ملاحقة - فلم يكن بدر إلا قائداً رجال الخليفة حيث يشاء. ورجال الخليفة كانوا يتبعونهما، لأنهم كانوا ضالين وعلى وشك الهلاك من العطش. ولم يعرفوا أي طريق آخر يتبعونه.

فقادهم بدر عبر الوهاد الرملية وبين الهضاب الصخرية. ورأى عبد الرحمن عندما استدار، جياداً تجر عربات وأخرى بدونها، وهي تتعثر في الطريق، والرجال تمشي على أقدامها بخطى ثقيلة. وبعد ذلك في أوج حر النهار رأى الرجال تتساقط كذلك. وبدر يتقدم بثبات عبر المتاهات الجرداء بقساوة، لا تساويها إلا قساوة الشمس فوقهما. وأخيراً عندما اقترب النهار من نهايته، شعر عبد الرحمن بالاعتراف بالجميل نحو بدر. فتقدما في الهضاب من جديد خارجين من وادي العقبة. ووراءهما كان لا يزال يتعقبهما اثنا عشر من التعساء يتقدمون بجهد كبير بجانب جيادهم المنهكة - وهم كل ما تبقى من رجال الخليفة بعد ذلك اليوم الرهيب، العديم الماء.

وسافر بدر لبضع ساعات بعد الغروب، وقال لعبد الرحمن مفسراً ذلك: «ربما حاولوا الوصول الينا الليلة - فهذا أملهم الأخير. فغداً لن يهمنا إذا تبعونا أم لا».

وأخيراً، توقفا للنوم تلك الليلة. كانت غفوة النوم رحمة لعبد الرحمن، فأمام عينيه الساهرتين منظر الرجال وراءه، وهم يتساقطون من العطش، وفظاعة ذلك ظهرت في أحلامه - كان الليل شديد البرودة، ودرجة الحرارة قريبة من الصفر كما حدث غالباً في الصحراء.

وفي الصباح التالي، لم يضيعا وقتهما، وتأهبا للسفر، وأخذا طريقهما حالما انتهيا من تجهيزهما البسيط. وفي ذلك اليوم، لم يظهر بدر أية رغبة في التلكؤ، أو في انتظار رجال الخليفة ليقودهم بتأن، كما فعل في اليوم الذي قبله - كأنه يشعر بأنهم لم يبق لهم رغبة في المطاردة. وكان في نفسه هدف واحد مصمم على الوصول إليه - ومن أجل هذا كان عبد الرحمن شاكراً له من جديد، فإنه لا يرغب في النظر إلى آلام الرجال وراءه.

وسافرا نحو الشرق في الصباح، ثم استدارا تدريجياً نحو الشمال الشرقي. وهناك كذلك، كانت الأرض قاحلة وخالية من الحياة - فأسرعا بدون توقف، ولم يريا وراءهما أي علامة لرجال الخليفة. وتقدما النهار كله عبر الهضاب والوهاد المقفرة. وفي العشي خرجا على منبسط رملي شاسع ظهر لعبد الرحمن كأنه يعرفه. ثم تقدما نحو بئر يابسة متهدمة، وحولها آثار لخيل كثيرة.

فقال بدر: «البئر المالح». ففهم عبد الرحمن بتعجب كبير. لقد سافرا عبر دائرة كبيرة ورجعا إلى حيث ابتدءا طريقهما. وتلك الآثار هي آثار رجال الخليفة عندما أخذوا في

ملاحقتهما في متاهات سيناء قبل ستة أيام.

وعرف بدر أن رجال الخليفة أخذوا يدورون حول البئر وهم يفتشون عن الماء بدون جدوى، عندئذ تذكر عبد الرحمن الثعبان كذلك هناك، وفي الحقيقة كان مصير رجال الخليفة كالحاً، كأن الثعبان عضهم جميعاً.

وفي الصباح التالي، اخذا الطريق متجهين نحو الجنوب - وفي هذه المرة عمل بدر جاهداً في إخفاء آثارهما. فتجنب الوهاد الرملية الفاضحة. وتقدم عبر الهضاب الصخرية. فخرجا من منطقة الوهاد، وأخذا في التقدم إلى السلسلة الجنوبية من جبال التيه.

وكلما ذهبا جنوباً، كلما ازدادت الجبال هيبة ووعورة، لكن بدر كان يعرف الشعاب السهلة - وكان يجد كفاية من الماء لتبقى قرابهم ملأى. ومرة رأيا عن بعد رعاة يسكنون هذه الأرض - فتجنباهم باحتراس.

وتابعا تقدمهما جنوباً، متعمقين في الجبال ليضيعا كل أثر من آثارهما لكل من حاول أن يتعقبهما. ثم استدار بدر بحدة نحو الغرب، فسافر لمدة أسبوع كامل عبر نجد وعر بين الجبال. وبالنسبة لعبد الرحمن فقد كان يشعر كأنه يسافر في عالم آخر، عالم جميل أحياناً، مكون من صخور مندفعة في الهواء بشكل فوضوي، ولم يكن يدري إلى أين يسير، سوى أن الاتجاه غرباً وأنهما ربما وصلا إلى مصر. ولم يرتبك بدر في الطريق.

وفي يوم من الأيام، وصلا إلى قمة جبل، فظهرت تحتهم الأرض تنخفض إلى مسافة أميال. وبعيداً في الأفق خط أزرق لازوردي. فظن عبد الرحمن أن ذلك خليج السويس.

فقال بدر مؤكداً: «هذا خليج السويس!» وكان في كلامه شيء من الحسم.

وابتسم، ولم تظهر أسنانه المعوجة في هذه المرة. فظهر كما يظهر الرجال كلهم عندما وصلوا إلى مرأى من الهدف المنتظر. وقال: «وعبر ذلك البحر مصر».

فسأله عبد الرحمن: «وهل أنت ذاهب إلى مصر؟».

فهز بدر رأسه وقال: «لا، ولكنك أنت ذاهب إلى هناك. هذا أبعد مكان أمرني الشيخ روض أن أوصلك إليه. وقال لي إن مصيرك في الغرب وحدك».

فأجاب عبد الرحمن: «ليكن ما أراده الله». وشعر بأنه ليس إلا رهينة بين يدي الله والعبد.

وخيما تلك الليلة في الجبال، وأخرج بدر رزمة صغيرة من عدته - كانت مليئة بالحناء، وهي صباغ يستعمل في البلاد الإسلامية لصبغ الشعر بلون أحمر بني. وكانت تستعمل أحياناً لتغيير ألوان الخيل.

وقال الغجري: «سنجعل فرسك كميتا». وبدأ يشتغل ببراعة كبيرة وهو يمسح رأس السفانة، وعنقها، وعرفها، بذلك الصباغ، وتطوع عبد الرحمن لمساعدته في ذلك، فقال له بدر محذراً: «إن لون الحناء لا يزول بسهولة من اليدين، ومن الأفضل أن لا يكون الفرس ويداك في لون واحد».

وفي أول وهلة، نظر عبد الرحمن إلى تغير فرسه وفي نفسه غصة من الأسى. لقد

تعود على أن يبتهج بجمالها اللطيف، وبياضها قسم من ذلك الجمال. لكنه عرف أن بدراً ما فعل ذلك إلا لمصلحته. فهناك إمكانية أن يكون وصف فرسه قد شاع.

وكانت براعة الغجري في طلاء الحناء كبيرة، لدرجة أن عبد الرحمن نسي أسفه الأول وهو يلاحظه، - كان بدر يعمل كأنه فنان، وهو يدهن كل قسم من الفرس بعناية قصوى، ويمسح الصباغ برقة لكي لا يزول. وأخيراً، عندما انتهى، تغيرت السفانة إلى فرس كميت نبيلة.

فأخذ عبد الرحمن يقهقه عندما رفعت رأسها، وابتعد عنها بدر، فصهلت وانتفضت كأنها تستغرب للتغير الذي حل بها، فأخذ عبد الرحمن يطمئنها ويقول: «عزيزة! عزيزة! ما أهمية لونك الخارجي؟ إنك لا زلت جوهرة على أي شكل كنت!».

وفي اليوم التالي أخذا طريقهما نازلين نحو الشاطىء. فرأيا السفن أشرعة متناثرة فوق ماء البحر. وأخذ بدر يفحص تلك السفن بحدة، لكن اهتمامه تركز أكثر على بقعة فيها قاربان راسين على الشاطىء، وبقرب القاربين على مرتفع من الأرض، كان حوالي ستة أكواخ. وبين الأكواخ والقاربين أناس يظهرون صغاراً لبعدهم.

فقال بدر: «هؤلاء صيادون. ستدبر لك ولفرسك عبور الخليج مع قارب من ذاك القاربين».

كانت معنويات الغجري عالية جداً. وظهر كأنه تخلى عن مدخره من الحذر والمكر المعتاد عليه، والذي كان يقود جرأته، والآن وقد اقترب من البحر، فقد صار شديد التوق للوصول إليه. فتقدم بسرعة عبر المنحدرات الرملية متوجهاً نحو النوتيين على الشاطىء. وعندما اقترب من الأكواخ والقاربين على سفح المنحدر، توقف بدر. فكبح جماح فرسه بالقرب منه.

وقال: «يا أمير، لقد كنا رفاق الطريق مدة أيام، وهنا سنفترق عند البحر».

وفي تلك اللحظة لم يجد عبد الرحمن أي كلام يعبر به عن مشاعره. فكل هذا جاء فجأة، فإنسان آخر ستتلاشى ذكراه مع الأيام، كتلاشي صورة ترى في المنام، فبدر قد قام بعمله أحسن قيام بكل إخلاص وضراوة. والآن سيكون سعيداً ليرجع إلى نفسه من جديد.

وعندما نظر عبد الرحمن إلى مياه خليج السويس الشاسعة، شعر بالاضطراب والوحدة - لكن، ليس له مناص من الذهاب قدماً. فلقد قطعه سيف الجلاد عن كل ما كان وراءه.

وأوقف بدر تأملاته المظلمة وقال له: «ألك قطعتين من الذهب؟ ».

فأجاب عبد الرحمن: «قطعتين من الذهب؟»

فقال بدر: «نعم، واحدة عن التي أعطيتها للراعي الذي أشعل النار والأخرى للنوتي، يكون من الأفضل أن أدفع لهم أجرتهم أنا لكي لا يروا ذهباً في يديك».

كان كيس الذهب والجواهر الذي أخذه معه عندما ابتدأ فراره مخبئاً في كيس سرج السفانة. فأخرجه وأخرج بعض محتوياته في يده. فأخذت الأحجار النفيسة تبعث أشعة براقة من النور بين القطع الذهبية. فأعطى كل ما في يده إلى بدر.

فاندهش بدر عندما رأى الجواهر، لكنه هز رأسه وقال: «قطعتين من الذهب فقط، واحدة دين لي عليك، والأخرى للنوتيين».

وأراد عبد الرحمن أن يلح على الغجري ليأخذ الحفنة من الثروة. لكنه أعاد النظر في ذلك وقدم قطعتين من الذهب إلى بدر. فأخذهما وابتعد لمتابعة السفر.

لكن عبد الرحمن أوقفه وقال له: «انتظر أريد أن أتبادل معك بسيفي كعلامة لصداقتنا».

فأخذ بدر ينظر إليه لحظة طويلة متعجباً. ثم فتح حزام الجلد الذي يربط به سيفه الأحدب. ففي جزيرة العرب، كانت العادة أن يتبادل الصديقان مثل هذه الأشياء عند افتراقهما في غالب الأحيان.

ونزع عبد الرحمن سيفه الأحدب كذلك، وكان قد غطى غمده ومقبضه بجلد الجمل الجديد من مدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى وادي السرحان. ويبس الجلد وقسا وهو يخفي الجواهر والترصيع تحته.

فأخذ سيف الغجري البالي وهو يقول: «يا بدر، أيها الصديق، سيكون فضلك سابقاً. إن تحت جلد سيفي جواهر عديدة، وسوف «تفضحني إذا وجدت معي».

وهكذا بكل كرم، بدل سيفه بسيف لا تزيد قيمته عن واحد من الألف من ثمن سيفه.

وأخرج بدر سيف الدمشقي من غمده وأخذ يفحص حده. لم يتمكن من رؤية الجواهر، لكنه شعر بقيمة ما حصل عليه، فبرقت عيناه بحب غجري في الربح، فعرف هؤلاء القوم، وتصرف الشيخ الصارم، يمنعه من أن يأخذ أية أجرة، لكن تبادلاً كهذا، جعل هذه الثروة مقبولة.

وتقدما نحو الشاطىء. وكان وجود البحر بالنسبة لعبد الرحمن كعودة إلى موضع مألوف أو مرغوب فيه. لم يكن قد رأى خليج السويس قبل ذلك ولا رأى أية نقطة من البحر الأحمر، ولكن هذا المنفسح الأزرق الذي يلفح تحت الشمس، لم يكن يختلف عن البحر الأبيض في يوم هادىء كهذا. وكان في الخليج تغير في اللون بين المحلات العميقة والضحلة، فأرضى ذلك فيه اشتياقه لكي يرى الماء الأزرق، ذلك الشوق الذي لم يتمكن من اشباعه من يوم ترك الشام. لم يشعر أن الشوق إلى البحر من أعماقه إلا في هذا الوقت، وأخذت هذه الأفكار تنسيه تخوفاته الواقعية من أن يتابع الطريق وحده.

واقتربا من الساحل حيث القاربين والأكواخ. وكان أحد القاربين على جانبيه تقريباً في الماء الضحل، الناس يحملون أكياسا من شيء ما من الساحل. وعندما وصل المسافران، توقف الناس عن الشغل، وأثيرت فيهم غريزة حب التطلع.

وقال بدر: «تلك اكياس الفحم – إن هؤلاء الناس يضعون بعضاً منه ويبيعونه مع صيدهم. فربما كان هذا فألاً سعيداً». وقال للناس: «السلام عليكم».

فأجابته الأصوات كالعادة: «وعليكم السلام».

وأشار بدر إلى القارب الصغير الذي يحملونه وقال: «أين هو الربان؟».

فنظر إليه أحدهم، كان واقفاً إلى ركبتيه في الماء، عارياً إلى خصره، وملابسه السفلية ملتفة كأنها ستر لعورته. فأجابه: «أنا»، ربما لم يكن عدد الملاحين يزيد على الاثنين، ولكن، رغم ذلك يجب دائماً أن يكون أحدهم هو الربان. فسأله بدر: «إلى أين رحلتكم. ومتى؟».

فأجاب صاحب القارب: «إلى رأس الزعفرانة. سنذهب عندما نكون جاهزين، ويجعل المد قاربنا يطفو».

وترجل بدر، وأشار إلى الرجل أن يأتيه. فتقدم نحوه صاحب القارب وهو يرش الماء الضحل بقدميه ويهز كتفيه. لم تكن له إلا عين واحدة، ورغم ذلك تظهر عليه الاستقامة والرجولة.

فحدق ببصره في بدر بعينه الواحدة، وقال متعجباً: «من بني زنقل». وربما قد ميز الغجري شخصياً. لقد كان هؤلاء القوم مصدراً لدهشة عبد الرحمن المتواصلة.

فأشار بدر إلى عبد الرحمن وفرسه وقال: «لابن أخي هذا شغل في مصر، هل تستطيع أن تأخذ راكبين: رجل واحد وفرس؟».

لم يكن هذا الكلام يدل على مساومة طويلة كما هي العادة بالنسبة لعرب الصحراء، فصاحب القارب، كان من قوم يختلفون عن سكان الصحراء، وكان بدر يعرف كيف يعامله.

وتفحص الرجل عبد الرحمن والسفانة بطريقة انتقادية. فهناك أسباب عدة تدفع شاباً عربياً من الصحراء، ليطلب عبور البحر في هذه النقطة النائية. ربما قتل عدواً وهو الآن هارب من انتقام أقاربه. وهز صاحب القارب كتفيه ثم هز رأسه وقال: «يمكن للقارب أن يحمل البهيمة، إذا كانت هادئة ولم تضرب بحوافرها كثيراً».

فطمأنه بدر قائلاً: «إنها لطيفة، ولك قطعة ذهب إذا أخذتهما».

فأخذ صاحب القارب يدرس الفرس والرجل مرة أخرى، ثم أومأ برأسه موافقاً. فأعطاه بدر أجرته. وكان ذلك أسرع تسوية لعبد الرحمن في حياته.

فسأل عبد الرحمن قائلاً: «وكم الانتظار قبل أن تنطلق؟».

فأجاب الربان: «عندما يأتي المد، سنزيح الفحم لنجعل محلاً لفرسك وراء الشراع».

وقال عبد الرحمن: «سأذهب لاغتسل وأسبح في البحر».

فابتسم الربان وأومأ برأسه قائلاً: «جميل البحر». قال ذلك كرجل فخور بميراثه. ولمعت عينه الوحيدة معبرة عن ذلك الفخر.

وذهب عبد الرحمن وبدر إلى الشاطيء المنبسط على مسافة قصيرة من القارب فأزالا السرجين والشكيمتين من على الفرسين. ونزعا لباسهما.

وقال عبد الرحمن للسفانة: «تعالي يا عزيزة». فتبعته ورأسها عال في الماء الضحل، فغطس في الماء اللطيف وسبح، فشعر كأنما اغتسل عنه غبار ألف ميل من الصحراء.

وبملاطفة قليلة جعل السفانة تنام في الماء الضحل وتتمرغ، وبعيداً عنه، كان بدر يفعل

مثل ذلك مع فرسه.

ومتّعا نفسهما بالماء مدة، حتى ناداهما ربان القارب، مشيراً بالقدوم إليه. كان القارب يطفو فوق الماء، جاهزاً للتقدم في البحر.

وجاهدوا لكي يجعلوا السفانة في الجهة العلوية من القارب، وتمكنوا من النجاح في ذلك بعد أن ثبتوه بحبل طويل ربطوه على الصاري. وأركب عبد الرحمن الفرس بدون أن يؤذيه أو يؤذي القارب. لم يكن ذلك بالسهل، خاصة وأن القارب كان مصنوعاً من أخشاب قديمة، ربما أخشاباً محروقة قبل ربطها بحدائد قديمة ليصنع هذا القارب.

وبقيت مشكلة تثبيت الفرس حتى لا تخبط في القارب وقت السفر، وتحدث ثقباً في أرضه. لكن الربان فكر في ذلك، فثبت شبكة صيد قوية بين أحبال الصاري الخلفية بشكل جعلها تمر تحت بطن الفرس. وهكذا عقلتها، وجعلتها لا تتحرك من مكانها. ولم تكن السفانة قد عوملت معاملة كهذه من قبل، لكن عبد الرحمن لاعبها وهدأها، فسمحت لهم أن يوثقوها وسط روائح قارب السمك النتن.

وأخيراً، استعدوا للإبحار ووجه الصيادون السفن نحو المياه العميقة، بينما وقفت على الشاطىء شلة صغيرة من النساء والأطفال يلوحون بأيديهم ويصيحون كانوا قوماً بسطاء ولطفاء. وكان وداعهم كوداع عبد الرحمن في بداية سفره الطويل.

ووقف بدر وراء النساء والأطفال بجانب فرسه. لم يزد وداعه عن اشارة واحدة بيده. ثم ركب فرسه وأخذ طريقه على الشاطىء. لقد كان من أكثر الأدلة إخلاصاً، لكنه قد أنهى مهمته الآن. فابتدأ سفره الطويل، عائداً إلى قومه عبر طريق أخرى، ولم يدر وجهه.

ثم أخذ الربان وثلاثة ملاحين يرفعون عارضة الشراع - فانفتح الشراع المنحني بنسيم الشاطىء الخليجي. وانزلق القارب بسرعة وسط المياه الزرقاء، فتحركت السفانة بانزعاج لموج البحر الخفيف. لكن الشبكة كانت تربطها بسلام، وصوت عبد الرحمن في أذنها يهدئها.

ووقف عبد الرحمن بجانب فرسه مدة وجيزة، بينما ابتعدت الأرض، وتوسعت المياه الزرقاء حولها. كان النهر هادئاً، ولم يكن اهتزاز القارب إلا تأرجحاً لطيفاً وبسرعة تعودت الفرس على القارب فوقفت في شباكها بدون إزعاج.

ووجد عبد الرحمن مكاناً في أحد جوانب القارب، أمام دعامة خشبية كركيزة فاتكأ عليها. كان ذلك المكان يابساً، وبعيداً عن الماء الذي يتسرب باستمرار إلى قعر السفينة. فيضطرون إلى صبه في البحر بعد ذلك. وظهر له بدر بعيداً على الشاطىء كشكل يتصاغر وهو يصعد الجبل.

وهدأت حركة القارب اللطيفة عبد الرحمن، فأخذ يتأمل عبر المياه الزرقاء في أشرعة القوارب الأخرى البعيدة. وتملكه شعور غريب من التعب والكسل، وجعلته حركة القارب يشعر كأنه على أبواب عالم الخيال. وأحس أنه هناك جامد معلق في وسط الزمان والمكان. ووراءه أيام صباه كلها، وهروبه عبر الصحراء، والحوراء، وأمامه مصر، وعالم الغيب.

حجاج وعبيد

وكرأس قاحل مطل على البحر، كان رأس الزعفرانة، مدخلاً بائساً لمصر. ولم تكن توجد المدينة الصغيرة تحته إلا بسبب الحجاج، المتوجهين إلى مكة المكرمة. ففي كل سنة، يفد فوج صغير من المؤمنين، قادمين من بني سويف والفيوم في وادي النيل، فيعبرون بمشقة المتاهات التي تفرق بين حزام النهر الأخضر الرقيق، وخليج السويس.

وهناك في رأس الزعفرانة، يركبون القوارب متجهين إلى مرسى جدة على البحر الأحمر، ومنها إلى مكة المكرمة بعيداً عن البحر، وبعد انتهائهم من شعائر الحج يرجعون على نفس الطريق. ويكثر عددهم القليل، بتجار اليمن وبلاد السواحل.

ورسى قارب الصيد على هذا الشاطىء المنعزل. فنزل منه عبد الرحمن والسفانة، كما أنزل الركاب حملهم الصغير من الفحم. وذلك الفحم يأتون به لبيعه إلى المسافرين، لأنه لا توجد في المتاهات بين البحر والنهر حتى قطع خشب صغير للطبخ. وكان حظ ربان قارب الصيد كبيراً، فعندما وصلوا إلى الساحل أتت قوارب حاملة التجار والحجاج العادين، أخذتهم من سفينتين كبيرتين كانتا راسيتين بعيداً عن الرأس فبيع فحمه مباشرة وفي الحين.

ولما انتهى ملاحو الصيد من بيعهم ركبوا قاربهم ورجعوا بحراً ينظر إلى القارب بغير اتجاهه تحت تأثير الريح، الآتية من الجنوب الشرقي. فكان ذهابها كنبذ آخر رباط له بالأشياء التي تعود عليها، رغم أنه لم يعاشر الصيادين أكثر من بضع ساعات.

كانت مصر تحت حكم العرب. لكن حضارتها القديمة لم تكن قد اندمجت نهائياً في حضارة فاتحيها بعد، فبالنسبة لعبد الرحمن كانت أرضاً غريبة عنه وقرر أنه يجب أن يواجهها بكل جرأة. فادار ظهره عن البحر.

وقال للسفانة: «تعالي يا عزيزة» وقادها إلى مجموعة البيوت الطينية التي كانت تكون المدينة، في صحبة جماعة الحجاج المختلطة. لم يكن هناك أي مكان آخر يمكنه الذهاب إليه. لقد كان لتلك المدينة ميزة واحدة مهمة بالنسبة له فهي لبعدها وعدم أهميتها، خالية من أي معسكر.

وكانت اشبه بساحة وقوف عمومية، ومحاطة بأسوار منخفضة، وهناك يجد المسافر المؤونة والستر وحول الساحة مرابط للحيوانات التي كان يشاركهم فيها الناس. ولكن أكثر الحجاج كانوا ينامون خارجها في الهواء الطلق.

وبعد وصولهم بقليل تفرقوا داخل الساحة. واحتل كل واحد منهم مكانه للنوم، وأخذوا يهيئون عشائهم البسيط، كانوا لا زالوا تحت أثير روحانية سفرهم. فأخذ العديد منهم يقرأ آيات من القرآن الكريم. وهم ينتظرون أن يغلي قدهرم أو يجلسون للتأمل. وكانت همهمة حركاتهم المسائية كأنها أزيز النحل، أخذ عبد الرحمن ينظر حول الساحة واكتشف أن هذا المكان لم يكن عربياً كما تصوره في أول وهلة، فأبناء جنسه كانوا هناك كذلك كما كانوا في ثلاثة ارباع القارة السوداء. وكان التجار القليلون غالباً من العرب،

الذين توارثوا التجارة في البحر الأحمر أباً عن جد والبضائع التي يتاجرون فيها لم تتغير بعد: العبيد السود من الجنوب.

وكان العبيد يرتاحون في بناء بجانب الساحة، وعددهم حوالي خمسة وعشرين من الإناث، ونصف ذلك من الذكور، وسن الإناث حوالي ستة عشر، أما الذكور فأصغر من ذلك ببضع سنين، وكل واحد منهم يحمل طوقاً من الحديد حول عنقه، وكانت تصل الأطواق كلها، سلسلة من حديد تجعلهم كلهم سلسلة واحدة.

والعبيد من قبائل «الغالة» من مرتفعات الحبشة، لونهم أسمر وقامتهم طويلة، وشكلهم جميل، وكانت سمات وجوههم متقطعة، وحسنة خاصة الإناث منهم. و«الغالة» قوم نبلاء رغم أنهم كانوا بدائيين ومتوحشين في عاداتهم ونبلهم هذا سبب بليتهم فقد كان الطلب عليهم كعبيد كبيراً. أما فتاة «الغالة» فقد كان ثمنها لا يقل عن مائة قطعة ذهبية في أسواق العبيد بمصر.

وتقدم أحد التجار إلى عبد الرحمن وقال له: أتريد علفاً لفرسك الكميت ياشيخ؟ «وكان قد وصل لتوه من المرابط حيث كانت تعلف البهائم. فعندما كان عبد الرحمن يجول بصره في الساحة والعبيد لاحظ هذا الرجل وهو يتأمله ويتأمل السفانة.

فقبل عبد الرحمن عطاءه بوقار وأخذه وقال: «بسم الله»، وشعر بتفحص التاجر الدقيق، ورأى كيف كانت عيناه تحدقان في السفانة، وكالعادة كان فرسه مصدراً لإعجاب كل خبير بالخيل، لا شك أن التاجر اعتبر عبد الرحمن شيخاً شاباً أتى حديثاً من الصحراء وربما رآه ينزل من قارب الصيد.

وفي تلك الجهة كان عدد من الحمير تأكل العلف في مرابطهم وخارج المرابط ستة فلاحين مصريين شعث مجتمعين حول عشاءهم المكون من خبز وفول، لقد كان من البديهي أن هؤلاء هم خدام التاجر لأنه عندما تكلم معهم، وقف أحدهم وذهب إلى أحد المرابط ثم عاد بكيل من الزرع.

وقدم التاجر القمح إلى عبد الرحمن وقال له: « أيأكل حمار مصر وتبقى فرس العرب الأصيلة جائعة؟»

كان أسلوبه أسلوب مسلم وعربي، لكن عبد الرحمن، شعر وراء ذلك الأسلوب بدهاء رجل التجارة وهو يجس البضاعة.

وقال التاجر: «والماء كذلك». وحين أتى أحد خدامه بسطل من الماء وقدمه بحركة تدل أن ذلك هبة.

فقال عبد الرحمن من جديد: «شكراً لك، بسم الله» وقاد السفانة إلى جانب الساحة، وأزال عنها السرج والشكيمة، ثم تركها تشرب معظم الماء، وخلط الزرع بما تبقى من الماء وقدمه لها. فانحنت السفانة تأكل بلطافتها المعتادة ورقتها.

ووقف التاجر جانباً، وهو يلاحظها، ثم قال: «يطيب للنفس أن ترى فرساً من جديد بعد مناظر السفن والحمير».

وكان الرجل مثالاً للتاجر العربي الذي يجوب الأرجاء البعيدة نحيل الجسم لطيف الكلام، حاد البصر، خداه بارزان فوق خط لحيته القصيرة وزاد ذلك العيب ملامحه خده، وقال: «أنا محمد علي، تاجر من الجنوب».

أومأ عبد الرحمن برأسه كعلامة على أنه سمع تقديم الرجل بنفسه. لكنه لم يستجب للإعلان عن اسمه، فقد كانت من ميزات عربي الصحراء أن يفعل ما يراه الأفضل. واحترام العربي التاجر أو عربي المدينة رجل الصحراء، خاصة لاستقلاله برأيه.

وبعد أن اعتنى عبد الرحمن بفرسه أخذ يبحث عن مكان في الساحة المكتظة يأخذ فيه عشاءه فاقترب منه التاجر محمد علي وقال له: «ياشيخ، كل معي أنا ورفاقي، يشرفنا وجودكم».

وأول رد فعل في نفس عبد الرحمن كان الرفض، لكن غير رأيه فجأة فلا بد له أن يجتمع ويتعامل مع الناس في طريقه، فالأفضل أن يتصرف بجرأة، حينئذ حمل عدته وذهب مع التاجر فتبعه السفاية من تلقاء نفسها،

واستدار محمد علي ينظر إلى ألفة الفرس بعينين مستحسنتين قال: «الفرس الأصيلة التي تشارك سيدها خيمته، زميلة الصحراء، إنني حقاً أعوزني رؤية ذلك في سفري عبر البحار»، فوقف يربت على خذ السفانة وعرفها، وينظر إليها في وسط الساحة بدقة شديدة وإعجاب، وكان في آخر المرابط حين جلس «الغالة» بناء مكون من غرفة، تحيط بها أسوار منخفضة ويتصل بها رواق سجادة جلس عليها ثلاثة من العرب، أصدقاء محمد علي. وفي صحن ضخم من السمك والأرز والبصل الساخن، فحيوا عبد الرحمن ببرودة عندما دخل عليهم.

و، تقدم نحوه عبد اسود بابريق من الماء ومنديل، وأخذ يصب الماء على يدي محمد علي، وعبد الرحمن، ثم جلسا مع الآخرين وأخذا يأكلان. وكان مع الأكل خبز وبرتقال صغير من الجنوب وشاي، ووقف العبد عن رأسهم يخدمهم وكان التجار يأكلون بنهم ولم يكن يجري أي حديث بينهم في أول الأمر، ولم يكن عبد الرحمن قد اكل السمك منذ وقت بعيد. فوجده لذيذاً للغاية.

وأنهت السفانة علفها خارج الغرفة، فاطلقت برأسها فوق السور المنخفض واستدار عبد الرحمن لصهيلها. وعلى جانبها كان العبيد «الغالة» يحدقون برزانة في الساحة.

وأخذ محمد علي يبتسم حينما رأى الفرس تدلي رأسها نحو سيدها، فلا شك أنه أعجب بها.

وغرف محمد علي شيئاً من الأرز بقطعة من الخبز وسأل عبد الرحمن قائلاً «أتسمح لي أن اطعمها يا شيخ؟».

فأومأ عبد الرحمن برأسه موافقاً.

وتوجه عبد الرحمن إليها، وقدم لها الطعام الشهي، فأخذت تشم يده.

وهزت رأسها كما تفعل الخيل، وصهلت صهلة صغيرة ثم شمت من جديد فقال لها

عبد الرحمن: «خذي يا عزيزة». فتقدمت الفرس وأخذت الخبز بلباقة ولم تمس يد التاجر.

فقال محمد علي: « أدخلها معنا، إن فرس شيخ الصحراء تشارك خيمته ولا يمكن أن تكون ضيافتنا ناقصة، ناديها يا شيخ».

وسار عبد الرحمن إلى السفانة فتقدمت عبر مدخل الغرفة ثم دخلت وبدون أي تردد اتجهت نحوه ووقفت وراءه. فقال محمد علي: اعطى الله صاحب لصحراء نعمتين: الواحة والفرس» وأخذ باقي التجار بألفة السفانة، فانغمسوا في رؤية الفرس وهي واقفة فوق السجادة بحوافرها المصفحة.

وأطعمها محمد علي الخبز والأرز من جديد ثم أتى العبد الأسود بطبق من الحلوى وهي قطع صغيرة من فواكه الكنوب المعسولة، التي تحملت حرارة المناخ. فتعجب عبد الرحمن من رؤية هذه الحلوى الشهية في حالة ممتازة في مثل هذا المكان وقال محمد علي بإلحاح: « كل يا شيخ، إن الأكل متواضع لكن ضيافتنا من القلب»، وأخذ بعض الذباب يطن في الهواء فصرف عبد الرحمن بيده بعضاً منها الذي كان يحلق فوق طبق الحلويات.

ووقف محمد علي وقال: «نسيت نفسي!».

ثم خرج إلى العبيد «الغالة» ورآه عبد الرحمن، وهو يفتح القيد عن عنق إحدى الفتيات، ثم كلمها بلهجة لا يفهمها عبد الرحمن، فتبعته إلى الداخل.

وبطلب من التاجر جاء الخادم بمروحة عريضة من ريش النعام لها ممسك طويل فأخذتها الفتاة دون أن تنطق بكلمة، ووقفت على رأس الضيوف الجالسين، تروح على رؤوسهم بالمروحة.

فقال محمد علي معتذراً: كان يجب علي التفكير في هذا من قبل».

ورفع عبد الرحمن عينه نحو حاملة المروحة، كانت الفتاة «الغالية» كحورية، تحمل ابريق ماء على صهريج حديقة، وكأنها منقوش من حجر سماق باهت. ورغم أنها جارية فقد كانت ذات هيئة وجيهة. وكانت نظرتها هادئة وهي تجول بعينيها مع المروحة متفوقة على من حولها. تلبس تنورة قصيرة تسترها إلى خصرها، شكلها أكثر كمالاً من تمثال صنعته أيدي البشر، كانت من نفس المعدن الأسمر الذي صنعت منه ملكة سبأ في أيام سليمان - واندهش عبد الرحمن لشكل الفتاة ووجهها عندما رآها عن كثب فهي بالنسبة لفرد يعامل معاملة الحيوانات والأثر الذي تركه نطاق الحديد حول عنقها ظهر في غير محله.

فقال محمد علي: «إن هذه الفتاة وسيمة بين جاريات «الغالية»، سيكون ثمنها ضعفي ثمن واحدة أخرى في سوق بني سويف».

وترك التجار الاخرون أكلهم لينظروا إلى الفتاة بإعجاب فقال أحدهم: « احتفظ بها في بيتك».

فبسط محمد علي يده وقال: «أنا تاجر ولست سلطاناً» سوف تباع في بني سويف» وقدم قطعة حلوى للسفانة ثم نظر من جديد إلى وجه الجارية، وقال: «لقد كلفت حياة خمسمائة شخص» فنظر عبد الرحمن نظرة خاطفة كلها تساؤل:

فأجابه التاجر مفسراً: كل أهل قريتها: «لقد قتلوا جميعاً لما هاجمناهم مفتشين عن العبيد. ولم نحتفظ إلا بها وباربع بنات أخريات.

فتضايق عبد الرحمن وإن كان قد نجح في عدم إظهار ذلك على وجهه، ونظر إلى الفتاة مرة جديدة نظرة تعجب وإتقان، ووجهها الذي كان منعدم التعبير ظهر الحزن عليه فجأة، حزين بأسف ولا مبالاة على كل الذين حملوا سلاسل العبودية منذ فجر التاريخ، ولم يَسْمُ بالفتاةفوق هذا الأسف، إلا جمالها الرائع، وتابع محمد علي كلامه قائلاً: «إن قبيلة «الغالة» هذه قوم غريبوا الأطوار، إنهم متكبرون بوحشية ومع ذلك عندما تضيع حريتهم يستسلمون لغدرهم خاصة النساء منهم. إنهم كالحيوانات التي تحتاج إلى سيد، إنهم أرقاء جيدون ثم تجشأ بقناعة مظهراً أنه مليء البطن.

فسأل عبد الرحمن: «ولماذا تقيدهم إذن بالسلاسل؟» لقد تكلم بجرأة كما يفعل شيخ من الصحراء بستاء لأسئلة الآخرين له، وهو يسمح لنفسه ان يسأل الآخرين ما يشاء، ولم يتضايق التاجر من صراحة عبد الرحمن - فكان جوابه على الأسئلة التي تخرق قواعد المعاملة، برهاناً لوداعته، فأجاب: «من أجل الليل فقط، وفوق السفينة بالطبع، لأن بعضهم يحاول القفز في الماء ليغرقوا أنفسهم. «فقال عبد الرحمن مبيناً: «إن أطواق الحديد تؤدي إلى تقرحات. فهز محمد علي كتيفيه، وابتسم لاهتمام عبد الرحمن الغريب بالعبيد، وأجاب سنزيل السلاسل عن العبيد في طريقنا عبر الصحراء - هناك لا مفر لهم».

وحينذاك اقتربت السفانة برأسها بينهما طالبة الاهتمام بها، فتحول انتباه محمد علي إليها واستدار نحوها ثم سأل ضيوفه: «هل أكلتم جيداً؟» وعندما اجابه كل واحد منهم بإمالة رأس وتجشئة معبرة عن شبعه، أخذ التاجر صحن الأرز الضخم بيده، وقدمه قريباً إلى أنف الفرس وقال لها «خذي وكل كفايتك».

لكن عبد الرحمن، أوقف رأس السفانة بيده وسأل التاجر وهو يشير إلى الصحن الفارغ نصفه بيده الأخرى، « أيأكل العبيد من هذا كذلك؟».

فأجاب محمد علي يبطء «نعم» وحينئذ ظهر على وجه عبد الرحمن علامة استياء مشوب بتعجب.

ثم وقف وقال: « إذن ليأكلوا منه، إن فرس شيخ الصحراء ليست معتادة على هذا الأكل «ثم أحنى رأسه مودعاً الجماعة وقال: «جزاكم الله خيراً على ضيافتكم».

واستدار للخروج، فاستدرت السفانة معه. وفي طريقه عبر الغرفة الصغيرة مر بالفتاة الحبشية، وتجنبت السفانة الفتاة بلطفها الاعتيادي.

وعندما مر رأس الفرس قريباً من رأس الفتاة، ظهر على ملامحها الجامدة علامة من السرور المفاجئة. وانفتح فمها على ابتسامة، ثم همست في أذن السفانة ملاطفة لها بلسان غريب، فحكت الفرس أنفها على خدها الأسمر في طريقها، ثم قاد عبد الرحمن السفانة خارج الغرفة، وكانت الفتاة «الغالية» كحجر منقوش وهي مروحتها وراءهما.

وكان عبد الرحمن غاضباً مع نفسه ومع التجار، فلقد شعر أنه تكلم كثيراً وأنه في مثل

هذه الظروف يكون أسلوبه متطرف أكثر لمعاملة النخاسين السيئة للعبيد، ولم يعد يبالي لما قاله.

وأخذ الليل يرخي سدوله تدريجياً، فقرر عبد الرحمن أن ينام خارج الساحة، وفضل الهواء الطلق على ذلك الموضع المكتظ بالناس فعشاؤه مع التجار جعله يميل إلى العزلة في ذلك الليل، وعندما خرج من الساحة وهو يقود السفانة، شعر بالنظافة حوله وبالحرية.

كان الرأس الصخري يشرف على القرية، .ويؤدي إليه منحدر مكسو بجلاميد صخرية وفكر عبد الرحمن في البحث عن ركن هناك بين الصخور لقضاء الليل، فلاحظ مكاناً محاطاً بجلاميد ضخمة على شكل نصف دائري. كان ذلك ملتجأ يكفيه حيث منظر القرية والبحر.

ولما وصل إلى ذلك الموضع وهو يقود فرسه اشتد عجبه عندما وجد المكان محتلاً، وصهل فرس محتفلاً بقدوم السفانة. وفجأة رأى عبد الرحمن رجلاً ساجداً على الرمل تحت ظل الصخور، عندئذ تذكر أنه رأى بضعة خيول تنزل من السفن مع الحجاج، خيول سافرت فوق السفن على الطريق كلها من جدة إلى رأس الزعفرانة.

وتابع طريقه باطمئنان لكنه سرعان ما سمع أنيناً كله ألم وعذاب يأتي من الرجل الساجد فوقف عبد الرحمن يتساءل مع نفسه ما إذا كان الرجل مريضاً أو جريحاً. وبدون أن يرفع رأسه أخذ الرجل يئن من جديد بعمق، ويتذمر بكلمات مسموعة.

لم يستطع عبد الرحمن أن يفهم كل ما يقوله. لكنه سمعه يتضرع قائلاً: «يا الله ! يا الله!» ويهتز فوق الأرض كأن به صرعاً فظن أنه مصاب بنوبة عصبية.

ثم رفع الرجل رأسه وعيناه نحوالسماء ورغم أنه كان في اتجاه عبد الرحمن فإنه لم يره ثم سجد من جديد في الغبار، وأخذ ينطق بدعواته المتقطعة وتوسلاته فتأكد عبد الرحمن أن الألم الذي كان يزعجه هو ألم نفساني.

وتابع عبد الرحمن طريقه بهدوء. ولكن الرجل لم يرفع رأسه من الأرض ولم يظهر عليه أنه لاحظه، رغم أن الفرسين صهلا لبعضهما.

وصعد عبد الرحمن فوق الصخور فوجد مكاناً آخر فوضع فيه الأشياء القليلة التي كانت معه ووضع سيفه وقوسه ونشابه بقرب الموضع الذي قرر أن ينام فيه. وكانت مياه خليج السويس الهادئة السوداء منتشرة نحو الأفق البعيد على يساره. وعلى يمينة أرض مصر القاحلة، بين البحر ووادي النيل التي سيعبرها غداً، فوقف يصلي صلاة العشاء قبل أن ينام.

الثعبـــان

الله اكبر!

حي على الصلاة ! حي على الفلاح..

الصلاة خير من النوم...

واستيقظ عبد الرحمن في الفجر البارد، على أصوات عدة تؤذن وكان الحجيج في الساحة العامة قد استعدوا لصلاة الفجر.

وصلى عبد الرحمن بمفرده، ثم هيأ السفانة للسفر، لم يكن يدري بالضبط كيف سيعبر متاهات بينه وبين وادي النيل، لكنه كن يؤمل أن يجد مخرجاً من أن يسافر مع جماعة الحجاج والتجار.

ففكر أولاً أن ينزل ويملأ قرابه ثم يحاول أن يكتشف طريقاً لمتابعة سيره.

وبينما هو ينزل المنحدر، فكر في الرجل الوحيد الذي رآه ساجداً بين الصخور في الليلة الماضية، فذهب إليه فوجده مستعداً للسفر مثله، وكان متعمماً بعمامة خضراء تظهر أنه أتى من مكة المكرمة. وسلم الفرسان على بعضهما من جديد بالصهيل.

وقال الرجل: «السلام عليكم» ولم يظهر عليه أنه حاج وفي الحقيقة تعجب عبد الرحمن من شكله.

فلقد تجاوز الكهولة ووجهه الذي رآه ظاهراً لأول مرة كان مطبوعاً بنوع من قساوة السنين التي قاومت انفعالات الحياة، وكان سيفه بجنبه، وحربته معلقة على ظهره. وجواده كستنائي اللون، كبير وقوي وعندما مر عبد الرحمن كان الرجل قد امتطى جواده. فظهر بسلاحه وهيئة وجهه كمحارب وليس كحاج.

ومع ذلك فلقد رآه عبد الرحمن وهو يتواضع لربه، ساجداً وحده فوق التراب، باكياً متضرعاً إلى الله. وكان يعرف أن الناس كلهم على اختلاف أنواعهم يأخذون طريق الحاج مرة ما في عمرهم. ولكن هذا الرجل ظهر عليه في هذا الصباح الهدوء التام والاطمئنان، وكانت عيناه لطيفتين، وسط وجهه القاسي.

فأجابه عبد الرحمن: وعليكم السلام.

كانا ذاهبين في نفس الاتجاه، لذلك تقدما مقتربين من بعضهما كأنهما معاً.

وكانت ساحة القرية العامة كلها فوضى كثيرة من الرجال والحيوانات فالحجاج قد انتهو من صلاتهم وأخذوا يتهيئون للسفر عبر الصحراء. وخارج سور البلد، بئر واحدة مكتظة بالمؤمنين حولها وهم يحاولون ملء قرابهم بالماء. فوقف عبد الرحمن بعيداً عن الحشد، يسأل نفسه متى يصل دوره وترجل الحاج المحارب بقربه، وعندما وقف ظهر أنه رجل ضخم.

فقال: «امكث مع جوادي، سأذهب لملء القرب».

وأخذ فرس عبد الرحمن وقربه وفتح طريقه في وسط الجمهور المحتشد حول البئر.

أمسك عبد الرحمن لجام الجواد الكستنائي، الذي أخذ يهز رأسه ويشد على اللجام معبراً عن تبرمه.

وتمكن من موضعه فوق فرسه أن يرى الساحة، كان التجار يهيئون سفرهم كباقي الناس. فجعلوا أمتعتهم فوق الحمير، وفي وسط تلك الحركة رأى التاجر محمد علي. وفي ناحية من الساحة كان العبيد «الغالة»، ولم يجد عبد الرحمن صعوبة في أن يميز حاملة المروحة بينهم. كانت واضحة، وضوح الظبية الممتازة في وسط القطيع. وكانت السلاسل حولها وحول رفقائها واضحة كذلك.

وبعد هنيهة، رجع المحارب محملاً بالقرب المملوءة بالماء، فرمى بقربته فوق جواده، وأعطى القرب الأخرى لعبد الرحمن.

وبخ الجواد عندما استدار عنه معبراً عن شخصيته، وشاداً على عنانه وقال: سست يا ارقم؟ أوجدت الأرض غريبة عليك بعد مقامك الطويل في البحر أم هزت الفرس دمك؟».

فهدأ الجواد بلمس سيده وسماع صوته، ثم رتب القرب فوق ظهره وركبه، وأمسك بلجام الجواد، وسأل عبد الرحمن قائلاً: «اتنتظر الرفقة أم تفضل أن تتحرك الآن؟».

وقرر عبد الرحمن اختياره في اللحظة، وأجاب: «اتحرك الآن إذا كان هناك دليل».

لم يتردد عبد الرحمن إلا هنيهة لأن هذه كانت فرصة ليتجنب باقي الرفقة. فعندما رأى المحارب الحاج لأول مرة، وهو يصلي ويتضرع بين الصخور، وجده غريباً، ولكن في هذا الصباح ظهر الرجل على وضع مختلف تماماً لم يظهر على وجهه أي أثر للانزعاج النفساني الذي كان يهزه في وحدته الليلة الماضية.

وفي الحقيقة، لقد أحبه عبد الرحمن رغم شكله الصارم، فكان من البديهي أن الرجل ورع، ولا شك أنه سيحفظ استشارته لنفسه، فالسفر معه سوف لا يكون مخاطرة كبيرة.

فأجاب عبد الرحمن: «إني مستعد».

وتقدم المحارب الحاج بجواده بعيداً عن البئر والجماهير المحيطة به.

وتبعه عبد الرحمن فوق السفانة.

وسارا في طريق على طول الحائط المحيط بساحة البلد، واستدار محمد علي نحوهما عندما تقدما، وعبر المسافة، احنى التاجر رأسه لعبد الرحمن محيياً له ومتغافلاً عن الحادث الذي صار بينهما بالأمس ثم ابتعد عن الساحة وضوضاءها عندما غابت وراء بناء من اللبن.

وبينما هما يسافران جنباً الي جنب، قال رفيق عبد الرحمن له: «اسمي طريف وأنا من مهد الإسلام» يعني بذلك جزيرة العرب.

وهكذا، وبدون تقديم آخر سافرا معاً عبر الأراضي المقفرة بين البحر الأحمر ونهر النيل.

لم ير عبد الرحمن في حياته منطقة كالتي كانا يعبرانها الآن. فلقد رأى الصحراء والرمال والصخور العارية قبل ذلك، فالصحاري تشبه بعضها البعض كأن الله قد جعلها على نمط واحد، حتى في اقفرارها كانت بديعة الإتقان.

لكن هذه الأرض كانت شيئاً آخر فالهضاب والوهاد مقفرة وعارية، كأنها انشقت بقساوة بتأثير عظمة الخالق، وتركت على وضعها الأول منسية مهجورة.

ظهرت كان المطر اللطيف منعش الحياة ومزين الأرض ما نزل قط عليها. وكما قال طريف كانت الطريق سهلة الاتباع كأن كل من سافر في هذا الاتجاه ترك أثره على الصخر ورحل بدون أن يمحي تلك الآثار الماء والرياح، كان بامكان عبد الرحمن أن يجد هذه الطريق بمفرده ولكنه كان راضياً برفيقه عندما انصرم النهار.

لم يتكلم المغربي كثيراً، لكنه كان طيب المعشر في الطريق يتحدث باستقامة توحي لسامعه بالثقة والاطمئنان، وليس بإمكان أحد أن يشك في صدق دينه وفي رغبته أن يطيع أوامر الله. كان يصلي في خشوع ويؤدي الصلوات في أوقاتها، وتظهر عليه في أوقات تفكيره أمارات الحزن أحياناً، تجعله يظهر لطيفاً ورحيماً. ورغم ذلك كان عبد الرحمن مقتنعاً أن هذا الرجل يمكنه أن يستعمل السيف والرمح بإتقان إذا اضطر إلى ذلك. وباختصار فلقد وجده عبد الرحمن في مرافقته عبر طريق الحج جديراً بأن يحب رغم الغموض الذي حوله، وتقدما بسفرهما بسرعة بعيدين عن مرآى الآخرين وفي عشية ذلك اليوم وصلا إلى بئر تعرف ببئر بويرات توجد في قعر واد قاحل، ولم يكن بالقفار المحيطة بهذه البئر أي أثر لسكن البشر، ولا حتى خيمة راع وظهر الحائط المحيط بالبئر كأنه غلطة في قعر الوادي القاحل. ورغم ذلك فقد كان الماء، عذباً وقريب المنال.

توقفا لينتعشا هما ودابتاهما بذلك الماء، وقال طريف: «سيحط الحجاج الرحيل هنا للمبيت. أما نحن فلنتابع طريقنا».

وبعد سقي السفانة، أخذ عبد الرحمن حوافرها كعادته عند الوقوف، فوجد حصاة صغيرة قد علقت في نسر قائمها الأمامي الأيمن فحاول أن يزيلها بأصابعه لكنه لم يتمكن من ذلك. فاستدار يفتش عن شيء يقلعها به فوقع بصره على شجيرة شوكية.

فتوجه إلى الشجيرة، وانحنى ليكسر منها غصناً من بين الأشواك وعندما اقترب منها رأى شكلاً يلتوي في الغبار، لم يكن له وقت للتراجع، فرفعت الأفعى ذات الرأس الرملي وعضته.

عضته في رجله اليسرى على نحو شبر فوق كاحله، وشعر بألم حاد شديد، دخلت أنياب الأفعى لحمه وعبرت جسمه موجة من البرد وصلت إلى قلبه. فصاح صيحة واحدة ونفض رجله في الهواء بقوة شديدة رفع بها الأفعى من فوق الأرض ولوح بها في الهواء حتى تركت رجله.

ووقعت الأفعى بينه وبين البئر وفي الحين ضربها طريف بسيفه المسلول، لم تكن إلا ضربة واحدة طار فيها رأسها وأخذ جسمها يلتوي في الغبار. وفي الوقت الذي تلاه كان المغربي بجانب عبد الرحمن وهو يسأله: «اعضتك» فرأى الاجابة بأم عينيه.

لم تكن برجل عبد الرحمن ثقبتان اثنتان كما تحدثها الثعابين عادة، بل عوضاً عن ذلك كان في رجله جرح ممزق تكسرت في أنياب الأفعى عبر لحمه عندما لوح برجله في الهواء

بقوة. وكان الدم يسيل من الجرح بغزارة.

فقال طريف: « إن الجرح ينزف. فالأفعى السامة فتحته ولم يسع عبد الرحمن إلا أن يقف وينظر منبهتاً في جرحه، لم ير قبل ذلك أحداً عضه ثعبان - وعدا الألم الحريق الذي كان يشعر به في المنطقة المجروحة لم يكن يشعر بأي شيء آخر.

فقال له طريف: « تعال وتمدد في ظل البئر - لاتستعمل رجلك. »وكان المغربي ضخم الجثة. فحمل عبد الرحمن تقريباً نحو البئر وقال له: تمدد ولا تتحرك يجب أن نخرج السم ونتأكد أن أنياب الأفعى ليست داخل الجرح!».

وأخرج طريف خنجراً معقوفاً من حزامه ومسح وجهه الحاد بإبهامه، ثم جثا بقرب رجل عبد الرحمن. وأخذ يجس الجرح برأس الخنجر ويفتحه،

ولم يشعر عبد الرحمن إلا بالنار تلتهب، فأخذ يلهث متألماً وينظر.

وبعد برهة قال المغربي: ليس في الجرح أي شيء مسموم، إنه ينزف بكثرة. لقد شاء الله أن تعيش!» وأخذت رجل عبد الرحمن تنتفخ حول الجرح وتغير لونها إلى أرجواني، وأصبحت بشعة المنظر، وفجأة شعر بالضعف والمرض، فتمدد على ظهره، وأغمض عينيه، كانت جبهته مبلولة بالعرق.

وشعر بخفقان في قلبه وضيق في نفسه. وذهبت به أفكاره بعيداً إلى وادي السرحان وحيث آن هذا كان مقدراً فلماذا لم يحدث منذ شهر مضى؟ فإذا كتب عليه الموت كان يفضل لو مات والحوراء بقربه.

وعندما فتح عينيه من جديد، وأدار رأسه رأى طريفاً بقرب الفرسين وأول فكرة مرت برأسه هي أن المغربي كان يتهيأ للذهاب بمفرده. وربما يحاول أن يأخذ السفانة كذلك. وأخذ عبد الرحمن يجاهد نفسه محاولاً الجلوس لكن ذلك الجهد جعله يشعر بمرض مميت، فاستدار على جنبه وتقيأ فوق الرمل، كان ضعيفاً ضعفاً تاماً.

ولما مرت نوبة تقيئه وجد المغربي بجانبه من جديد. كان يقرب الفرسين ليأخذ برنوساً كان يلفه ورأى سرجه فقال: تعال سآخذك بعيداً عن البئر. سنمكث في هذا المكان وقتاً طويلاً. ولا أريد أن يزعجك المسافرون عندما يمرون بالبئر. سنخيم هنالك».

وبكل طاعة حاول عبد الرحمن أن ينهض، لكنه عجز فحمله طريف بخفة وأخذه إلى المحل الذي اختاره، وذلك في ظل جيد صخري على بعد مئات من الأقدام من البئر.

وبسط المغربي برنوسه على الرمل ووضع عليه عبد الرحمن وتبعهما الفرسان، وأزال طريف عن كل منهما السرج واللجام، وأخذ من عدته خيمة صغيرة للمبيت مكونة من ثوب مربع أسود، فغرس حربته منحنية فوق الرمل من جهة، ووضع قوس عبد الرحمن من الجهة الأخرى. وهكذا استعمل القوس والرمح كدعامة بسط فوقهما الخيمة. ووضع داخلها عبد الرحمن ليقيه حرارة الشمس.

فقال عبد الرحمن بصوت خافت: أنا مدين لك بهذا الجميل. كان وجهه مبتلاً بالعرق. وكان يشعر في رجله كأن أنياب الثعبان تنهش لحمه وتبث النار والسم في جسمه.

وأخذ طريف غطاء عبد الرحمن عن رأسه ويله بالماء ثم مسح العرق عن وجهه. وقال عبد الرحمن: « أنا عطشان» فرفع له المغربي رأسه وسقاه من قربة الماء وشعر بهذا الشعور الغريب شعور الماء يسيل في حلقه بارد ومنعش وعندما وضع له المغربي رأسه تمدد عبد الرحمن وتنفس الصعداء، كان متأكداً أنه سوف يموت.

وأدخلت السقانة رأسها نحوه تحت الخيمة فشعر بمس منخاريها الناعمتين الباردتين فوق خده، ورأى عينيها اللطيفتين كعيني إمرأة فمد يداً ضعيفة نحوها ليربت عليها كعادته وقال: عزيزتي! إن لي حبيبين في هذه الدنيا وأنت أحدهما.

ومر نفسها الخفيف على وجنتيه وعنقه وصدره كانت كأنها فهمت أنه يتألم وأرادت أن تساعده لكنها لم تستطع.

وقال عبد الرحمن «عزيزة» وأغمض عينيه، وفي ذلك الظلام رجعت إليه سابحة ذكرى وجه الحوراء.

وبعد مدة وصل المسافرون إلى البئر عند اقتراب الغروب ووجدها على هذه الحال. كان عبد الرحمن ممدوداً تحت الخيمة في حالة تشبه الغيبوبة. مصاباً بدوار قاتل وغثيان وكان المغربي جالساً بقربه حارساً له حراسة لن تنتهي إلا بموت عبد الرحمن أو شفاءه.

وأخذ الحجاج الأوائل الذين وصلا إليه ويسألون ثم يومئون برأسهم إيماء المسلم المتستسلم لقدره، فإذا شاء الله موت هذا الشاب فسوف يموت، وإذا شاء غير ذلك فسيشفيه الله، وتابع بعض المسافرين طريقهم لكن أكثرهم مكث بقرب البئر.

وفي أوائل الليل وصل قطار التجار المحمّل بالأغراض فوقف محمد علي في الحال عندما سمع بما جرى، وذهب ليزور عبد الرحمن. وفي ذلك الوقت كان عبد الرحمن قريباً من قعر الوادي. فظهر له وجه التاجر كأنه يسبح عبر بصره وجس محمد علي نبض الشاب الضعيف، ونظر إلى لحمه ألآخر المنتفخ حول الجرح. ثم رفع رأسه نحر وجه المغربي الحزين، وأجابه على نظرته المتسائلة قائلاً: « سيموت قبل الصباح».

وحط التجار رحيلهم بقرب خيمة طريف الصغيرة عندئذ أزيلت السلاسل عن العبيد لأن الهروب يستحيل عليهم الآن. وخرجت البنت الغالية من بين العبيد تلك التي كانت تحمل المروحة عند عشاء امس وفعلت ذلك من نفسها دون أن تطيع امر آمر. وشعرت كأنها في تلك اللحظة قد خرجت نهائياً من عبوديتها.

وتقدمت بكل عزم وتصميم نحو الخيمة، ونظرت إلى عبد الرحمن المريض وأخذت تمعن النظر في وجهه الشاحب والملتوي ألماً ثم في رجله المنتفخة والملونة وتكلمت كلمات بلغتها، وأشارت إشارات بيديها.

وحدق فيها التاجر لحظة بعينيه الضيقتين ثم هز كتفيه وأومأ برأسه وقال لطريف معبراً: «إنها تريد أن تخدمه لقد سبق لها أن رأت عض الأفعى».

وفي الحين بدأت الغالية تشتغل بينما أخذ التاجر المستغرب والمغربي ينظران إليها. فأخذت غطاء رأس عبد الرحمن وربطت به رجله تحست ركبته. ثم أخذت غمد خنجره

وأدخلته تحت الثوب وفتلته، والمغربي والتاجر يتبادلان نظرات الاستغراب إذ لم يسبق لهما أن رأيا مرقأة قبل ذلك.

وتغير وجه طريف عندما رأى الفتاة تأخذ الخنجر المسلول لكنه لم ينطق ببنت شفة. وأشارت له بأن يمسك المرقأة في محلها ثم انحنت نحو رجل عبد الرحمن المتنفخة وأخذت تقطع من لحمه المتنفخ قطعاً صغيرة متعددة. لم ليخرج من تلك الجروح أي دم و خرج سائل باهت مشوب بحمرة، وأخذ ينضح ببطء.

ووضعت الفتاة فمها فوق تلك الجروح وأخذت تمتص طويلاً وبصبر وتبصق جانباً كلما امتلأ فمها من الجرح، وتعود لنفس العمل في جرح آخر وتابعت ذلك مدة طويلة حتى أحاطت بالمساحة المتنفخة بالسم من رجل عبد الرحمن بينما كان طريف يشد على المرقأة شداً قوياً.

وراقبها محمد علي برهة، ثم كلمها بعدة كلمات بلغتها، فكانت تزيل فمها عن الجروح لتجيبه بكلمة واحدة أو كلمتين ثم تعود إلى عملها.

فقال التاجر لطريف: سأتركها هنا – إن اسمها شوامة اتركها تمرض الشاب إبان الليل. ثم استدار محمد علي ذاهباً ومر في طريقة بالسفانة التي كانت معقولة بقرب الخيمة، فوقف هنيهة ليداعب الفرس ويفحصها ثم ذهب لتأسيس مخيم.

وتابعت شوامة امتصاصها للجروح طيلة نصف ساعة وهي لا تسحب إلا كمية ضئيلة من ذلك السائل، من رجل عبد الرحمن بسبب المرقأة وعندما توقفت فكت المرقأة لمدة قصيرة، ثم شدتها من جديد، ورجعت إلى عملها الشاق ومن وقت لآخر كان عبد الرحمن يئن أو يتحرك بضعف لكنه لم يفتح عينيه.

وأخيراً عندما حل الظلام توقفت الفتاة عن مجهودها في سحب السم من رجل عبد الرحمن، كان لون شفتيها قد تغير وانتفخت من كثرة الامتصاص. ثم أزالت المرقأة التي كان يشدها طريف طيلة ذلك الوقت، وأخذ الدم ينزف شيئاً ما من تلك الجروح لكنه بكمية ضئيلة رغم كثرة الجراح. فغسلت شوامة الدم بلطف بالماء.

وأتى محمد علي بصحن أكل وبثوب قطني أبيض، فأشارت الفتاة لطريف أن يتقدم للأكل ولفت رجل عبد الرحمن برفق في الثوب.

ولاحظ المغربي الجارية بدون تعليق، وأخذ بعض الأكل ثم قدمه لها. فأكلت في ظل الخيمة البسيطة وهي تطل من وقت لآخر على عبد الرحمن، عندما تشعر بأنينة أو تحركه في نومه المحموم، وكان حولهم اضطراب في المخيم. لكن طريفاً المغربي كان ينظر نظرات شرسة لكل متطفل فيتجنب الحجاج الخيمة الصغيرة ويبقوا بعيداً عنها.

وأتى محمد علي بغطاء جلدي كبير إلى الخيمة فبسطته شوامة فوق عبد الرحمن لأن الليل أخذ يزداد برودة، ثم نظر التاجر نظرة أخرى إلى السفانة وذهب وكان الناس في المخيم قد تهيأوا للنوم.

ونظرت شوامة نظرة تساؤل إلى طريف فأعطاها المغربي عباءة لتتغطى بها ثم اشار لها

بالبقاء داخل الخيمة. وجلس هو للنوم خارج الخيمة بالقرب من الفرسين.

وأخيراً نزل الظلام نزولاً كالحاً، وجلست الفتاة جاثمة بقرب عبد الرحمن.

وأخذت تنصت إلى تنفسه الخفيف والمجهد. كانت تظهر من المخيم نار الطبخ هنا وهناك بينما نام جل الحجاج من شدة التعب.

وبدأ عبد الرحمن يتحرك فجأة، ويجاهد بضعف تحت غطاءه الجلدي ويقول: الحوراء! الحوراء!.

فقالت الفتاة الغالية بصوت ناعم كأنه صفير الرمل المتحرك: شش! ' وأخذت يده ترتعش تحت الغطاء فادخلت يدها إليه وأمسكتها.

وتقدم بيده المبلولة بالعرق إلى يدها باندماج، وشدها شداً قوياً، وهمس بانبساط: « الحوراء! الحوراء! حوراء». ولو كان بإمكان شوامة أن ترى وجهه في ذلك الظلام، لرأت عليه الابتسامة رغم سباته.

الفتاة الغالية

وأفاق المخيمون باكراً في اليوم التالي وصلوا، ثم تهيئوا للرحيل وعندما أتى محمد علي إلى الخيمة الصغيرة، وجد عبد الرحمن لا يزال في الغيبوبة.

لكنه ضعيف ومريض وتكلم التاجر مع الفتاة الغالية التي وجدها جالسة بقرب الغطاء الجلدي تماماً كما كانت بالأمس. ثم تكلم إلى طريف المغربي قائلاً: «إنها تعتقد أنه سوف يعيش لكنه سيبقى مريضاً عدة أيام.

فأومأ المغربي برأسه في قبول تام لقضاء الله وقال: « حسب مشيئة الله». فأجاب التاجر ومن سيعتني به؟.

فقال المغربي: أنا.

فبسط التاجر يده حول المنظر الصحراوي مستنكراً وقال: اههنا؟.

فتجهم وجه طريف وشعر أن التاجر يريد أن يقول شيئاً ما وقال: إنه لا يمكنه أن يسافر.

فقال محمد علي يمكننا أن نحمله على حمالة نضع طرفها على حماري والطرف الاخر يحمله الغالة. وهكذا يمكن لشوامة الاعتناء به كذلك.

فنظر طريف بدقة إلى محمد علي لقد ارتاب من احسانه لكنه مع ذلك رأى أن هذا احسن حل فاومأ برأسه موافقاً.

فقال محمد علي: طيب! إذن ستمتطي فرس الشيخ الشاب لأن حماري سيحمله ولم يعارض طريف ذلك، لكنه بدأ يفهم سبب اهتمام التاجر بعبد الرحمن، وأخذ الناس عمودين طويلين من سرادق من بين أمتعة التاجر، وربطوا ثوب خيمة بينهما وهكذا صنعوا حمالة. ووضع الطرف الأمامي على جهتي حمار محمد علي أما المؤخرة فقد حملها العبيد الغالة. وحمل طريف عبد الرحمن ووضعه فوق السرير المرتجل. ثم استعدوا للرحيل.

وركب محمد علي السفانة فنفرت منه الفرس وهزت رأسها قلقة.

عندما عضت على الشكيمة فلقد تعودت على سيد واحد لقد شعرت بعصبية سيدها.

ولكن التاجر كان فارساً ممتازاً فهدأها بيد بارعة قائلاً: «مهلاً مهلاً إن الشيخ الشاب سيدك معنا يمكنك أن تريه فوق الحمالة. إننا جميعاً نذهب في نفس الاتجاه».

وكانت الفرس قلقة ومرتبكة لكنها تركته يمتطيها وهكذا تقدمت قافلة التاجر الطويلة في طريقها وفي وسطها كانت الحمالة. يحملها العبيد الغالة والحمار وعليها عبد الرحمن مغمض العينين وجسمه كما وضع لم يتحرك كأنه فاقد الحياة. وكانت شوامة الجارية الغالية تمشي بإزاءه.

ودفع محمد علي السفانة على طول القافلة ذاهباً وراجعاً وهو يلح على الناس بالتقدم كان رجلاً ذا دهاء يقدر قيمة الأشياء وأخذ يبتسم منتشياً بمشية السفانة الخفيفة تحته. لقد مر عليه زمن طويل لم يركب فرساً كهذه. وفي مؤخرة الطابور كان ذلك الحاج المحارب

المغربي طريف.

وسافروا طيلة اليوم فوق تلك الأرض الجرداء التي تظهر كأنها قعر نهر يابس جف وانقضى منذ عهد الطوفان كانت الشمس تحرقهم بأشعتها والأحجار تعكس نحوهم الحرارة وفوق تلك الأحجار وتلك الرمال كان الحمار والغالية ومن وقت لآخر تمسح العرق من حاجبيه.

وفي غالب الأحيان كان في نوم يشبه السبات لكنه أفاق مرتين في ذلك النهار وشرب الماء.

وتوقف التجار والحجاج وخيموا في مكان لا ماء فيه في آخر النهار في سهل واسع بدائي كأنه خرج من السنوات الأولى من بداية الخليفة قبل أن يخلق الله النباتات والحيوانات لتنتشر في الأرض. وفي ذلك المساء ولبرهة قصيرة رفع عبد الرحمن رأسه بمعونة طريف. وشرب بضع جرعات من مرق السماني الذي أطعمته إياه شوامة.

وعندما أتى التاجر محمد علي ليزور الخيمة الصغيرة قال له طريف: إن الله رحيم سيعيش الفتى.

وظهر على وجه محمد علي الفرح الشديد لنقاهة عبد الرحمن وقال: لتكن مشيئة الله. وقال طريف « إن الفرس قد اشتاقت لسيدها».

وعندما جاء المساء صارت السفانة قلقة وضجرة. فشدت على وتد يعقلها وصهلت وهي تنظر إلى الخيمة التي يضطجع فيها عبد الرحمن، وذهب إليها محمد علي ليهدئها ويلاحظ كمالها من جديد، وقال: إن فرساً كهذه هي كنز العرب، إن الشيخ الشاب مبارك لامتلاكه هذه الثروة.

وبينما كان التاجر يربت على ظهر السفانة ذهب ببصره الماكر إلى حيث كانت شوامة تجلس بقرب عبد الرحمن تحت الخيمة، وجسمها المغطى غطاء خفيفاً، كان جميلاً جمالاً أنوثياً في شفق تلك الصحراء وظهرت على التاجر علامات الانشراح لهذا المنظر، لم يعارض قط مساعدة الفتاة الغالية للفتى المريض فبقيت شوامة مع عبد الرحمن تحرسه في نومه طول الليل.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ عبد الرحمن عند الفجر عندما قام المخيمون للصلاة فوجد نفسه ضعيفاً وجسمه متألماً لكن تفكيره كان واضحاً وأول شيء رآه قربه في ضوء الفجر الخافت الفتاة الغالية جالسة وبعيداً عنها السفانة، فتحرك وحاول الجلوس لكنه وقع على ظهره وهو يلهث. ولم يكن له أي إحساس برجله اليسرى.

وكانت شوامة مهتمة به. فظهرت على وجهها الداكن علامات الفرح لاستيقاظه، لكنها ردته بلطف.

فتمدد عبد الرحمن من جديد وأخذ يستمع إلى أدعية الحجاج. كانت الأشكال الساجدة كالظلال وسمعت الأصوات كأنها ترتفع من صحراء مهجورة تحت سماء فسيحة، وبعد الصلاة، جاء طريف إلى الخيمة وفرح هوكذلك عندما رأى عبد الرحمن مستيقظاً وبعيداً

عن الأزمة.

فجلس عبد الرحمن وأخذ ينادي فرسه: عزيزة ! عزيزة! لكن وتد عقالها منعها من الوصول إليه. فاقتلعه طريف وتركها تأتي إليه بكل فرح واندماج.

وصاح عبد الرحمن: جوهرتي ! جوهرتي! فاحنت السفانة رأسها على خده وصدره بينما وضعت الفتاة ذراعها حوله لتدعمه.

فقال طريف: إنها حزنت عليك هذه الأيام كلها.

فأجاب طريف: منذ أول البارحة فلقد حملك الغالة طيلة اليوم على محفة وحاول عبد الرحمن أن يدير رأسه وينظر إلى شوامة لكنه تنهد وتمدد من جديد، كان ضعيف القوة وكان ظهره منقبضاً وموجعاً من طول المكوث على وضع واحد. وصهلت السفانة ثم شمته فابتسم لها وربت على كتفها.

عندئذ جاء محمد علي إلى الخيمة كعادته وعندما رأى عبد الرحمن مستيقظاً قال له: بارك الله فيك يا شيخ إن آمالنا لم تذهب سدى!.

وانتبه عبد الرحمن أن التاجر صادقه وقال له: بارك الله فيمن يساعد المبتلى وتحرك كأنه يحاول أن يجلس من جديد.

لكن محمد علي كبحه قائلاً: «استرح إنك مريض جداً. فالغالة سيحملونك من جديد اليوم كله وشوامة ستقوم على خدمتك مهما احتجت فإنها خادمتك !.

وحملوا عبد الرحمن ذلك اليوم كذلك على محفة عندما تهيأوا للرحيل، ولم يمانع لأنه عرف نفسه اضعف من أن يجلس على فرس لكنه شعر بأسى يوخز صدره عندما رأى محمد علي يركب السفانة إذ لم يركبها رجل قط سوى سيدها الأول زيد بن نصير وسيدها الثاني عبد الرحمن.

وكان ذلك اليوم كالأيام التي سبقته، سفر عبر القفار من الصخر والتراب القاسي فهذه المنطقة من مصر تشبه الأرض الموات التي انتظر آلاف السنين نزول المطر، ومجيء الحياة بدون جدوى.

لكن هذا اليوم كان مختلفاً بالنسبة لعبد الرحمن فلقد كان واعياً وفي طريق النقاهة، وكان يأكل ويشرب عندما يتوقفون. وعندما تقدم النهار شعر بالقوة تعود إليه. ومن جهة أخرى سمحت له الفرصة الكافية لدراسة الفتاة الغالية، وليفكر في مرضه. فعندما كان محموماً أخذ ينادي الحوراء وشعر أنها اتت إليه ولكنه الآن تحقق أن تلك اليد، لم تكن إلا يد الجارية التي أرادت أن تواسيه، وفي العشي، وصلوا إلى نقطة ماء أخرى فخيموا عندها للمبيت وأخذت شوامة تخدم عبد الرحمن فجاءت له بالماء، واعانته على الاغتسال والأكل وبعد ذلك جاء محمد علي وأخذها معه بين الخيام فغابت بضع دقائق.

وظن عبد الرحمن أن التاجر ربما أخذها ليرجعها مع العبيد لكنها رجعت عند الغروب.

وأول ما لاحظ أنها لبست ملابس جديدة فاقتربت إلى محلها في خيمته وظهر جسمها دون اللون البني نظيفاً وناعماً كأنه مدهون بغسول لطيف. وكان شعرها الأسود مجمعاً في

قمة رأسها كأنه تاج، تنطلق منه ظفائر متوجة تحيط بوجهها البيضوي الشكل، الرائع المنظر. لقد كانت جميلة قبل اهمال العبودية. وبعد بضع لمسات عاد إليها بريقها الأول كبريق زمرد أو ياقوت أزرق (سفير).

وأخذ طريف ينظر إليها بدقة لكنها لم تزد على الجلوس في شكلها وفي تلك الليلة أمر عبد الرحمن طريفاً بإعطاء سجادة صغيرة زيادة على برنس لكي تتغطى بها عند نومها.

وسافرت القافلة يومين آخرين عبر تلك الأرض الجرداء المهجورة بين الحر والنيل وعبد الرحمن فوق الحمالة وخدمته شوامة في هذه الطريق كلها كأنها جاريته.

وفي الليلة الخامسة من سفرهم خيموا في مكان يقال له وادي بياض فقال طريف: «غداً سنصل إلى النيل».

وقال عبد الرحمن: «غداً سأمتطي فرسي» لقد عادت له قوته حتى صار يقف ويمشي بضع خطوات وهو يعرج ويمكنه أن يجلس فوق الفرس من جديد، فأومأ المغربي برأسه موافقاً.

وقرر عبد الرحمن أن يعتمد على طاقته، فقد شعر أنه لا يحتاج إلى خدمات شوامة. وعلى أي حال لم يتمكن من فهم رغبة محمد علي في أن يعيره الفتاة.

لقد أسس هناك دافعاً وراء ذلك. وعندما أراد أن يرجعها إلى التاجر تراجع وفكر أن حالتها أحسن عنده على الأقل ستنام دافئة تحت غطائها في الليل، ولهذا لم يقل شيئاً ونام في خيمته في تلك الليلة الأخيرة.

بنو سويف

بحر النيل: ظهر ذلك النهر الكبير فجأة كسلسلة متناهية من الواحات تمر عبر الصحراء. لم يره أحد بعد عبوره لهذه القفار، إلا وأدرك تعظيم المصريين القديم لهذا النهر. فبدونه لن تكون مصر إلا صخوراً وغباراً لا تقل عقماً عن جزيرة العرب الجرداء.

ووصلوا إلى النهر عبر التلال المواجهة لبني سويف، وفجأة ظهرت لأعينهم الحياة والخصوبة، وآثار البشر لم يكن عند أرجلهم إلا القرى المبنية من اللبن، ولكن عبر النهر الشاس رأوا ارصفة ومستودعات وقباب بني سويف والنهر نفسه كان يعج بالحياة بسبب البواخر المحملة ذات الأشرعة المثلثة الشكل لأن المدينة هي المركز التجاري لإقليم الفيوم الخصبة المحيطة بها.

ونزلت القافلة نحو النهر إلى بيوت اللبن، التي كان يسكنها مزارعون وصيادون فأخذ أولئك القرويون ينظرون إلى المسافرين المغبرين بفضول. لقد تعودوا على رؤية كثير من الحجاج والتجار يمرون بهذه الطريق وقليل منهم يقف طويلاً معهم.

وقبل أن تصل القافلة إلى النهر، أتى قاربان ورسيا على رصيف القرية الطيني. وأخذا ينتظران المسافرين ليعبروا بهم النهر.

وكان القاربان اشبه ما يكون بقوارب البحر، صالحين لحمل الأمتعة والبشر فركب الحجاج وركب التجار بحيواناتهم وخدامهم وعبيدهم. وركب عبد الرحمن وطريف ومعهما فرساهما وفرح عبد الرحمن بهذه الاستراحة فرجله كانت تنبض الماء، وجسمه كان منهكاً من ركوب الفرس فجلس بين الحزم في وسط القارب، وهو يمسك بلجام السفانة، وينظر إلى ماء النيل العكر يجري، وإلى مدينة بني سويف تقترب منه. وكان العبيد الغالة غير بعيدين عنه و بينهم شوامة قد رجعت إلى مكانها معهم عندما ركب السفانة.

لكن رغم أن الفتاة الغالية رجعت إلى زملائها فإنها بقيت بعيدة عنهم.

ووقفت بمفردها تحدق في الأفق بعيداً عن الماء، سابحة في أفكارها لا شك أنها شعرت نوعاً ما عن عبوديتها في الأيام التي خدمت فيها عبد الرحمن والآن فهي لا تدري كيف ستعود إليها من جديد. وبينما عبد الرحمن يفكر في هذه الأشياء أتى محمد علي بجانبه، ثم أخذ يعجب بهدوء السفانة فوق القارب وقال: «إن الفرس تقف بكل روعة، هل ركبت قارباً قبل هذا؟».

فأجاب عبد الرحمن «مرة واحدة» فربت التاجر على ناصية السفانة بتريث، ونظر إلى صدرها وقوائمها كما يفعل عدة مرات قبل هذا، ثم قال فجأة: « ياشيخ هل أعجبتك خدمة شوامة؟»

فاومأ عبد الرحمن برأسه مجيباً وهو يتساءل في نفسه عن معنى هذا السؤال فأشار التاجر إلى حيث تقف شوامة وقال: «ياشيخ إن ثمنها يصل إلى مائتي قطعة ذهبية في سوق بني سويف، اشتريها كجارية لك الآن. اعطيك الجارية ومائتي قطعة ذهبية مقابل فرسك!.

فحدق فيه عبد الرحمن مندهشاً، لقد عرف أن التاجر كان يسعى إلى شيء ما كل هذا الوقت. ورغم ذلك فعرضه هذا أتاه الآن كمفاجاة، فبقي صامتاً لحظة ولم يجب.

واعتقد محمد علي أن هذه فرصته. فألح قائلاً: «لقد اعجبت الفتاة ياشيخ، كالبقر الوحشي الذي يروض بيد ولا يروض بأخرى. فأنها ستخدمك جيداً وباخلاص خذها وخذ الدراهم مقابل الفرس.

وتابع عبد الرحمن سكوته ولم يجب، لم يفكر لحظة في الانفصال عن السفانة ولا كانت له رغبة في امتلاك شوامة، لكن الفتاة أعانت على إنقاذ حياته.

ويود لو كان بوسعه أن يعينها، لكنه لا يريد شراءها، فهز رأسه بتأن وقال: «لا».

فقال التاجر: «ثلاثمائة قطعة ذهبية ياشيخ».

فهز عبد الرحمن رأسه بقناعة أكبر رافضاً.

فقال التاجر: «خمسمائة بدون الفتاة! خمسمائة قطعة ذهبية مقابل الفرس».

فأجاب عبد الرحمن بتأكيد: «لا».

وفجأة سكت التاجر عن هذا الحديث، فلوح بيده بتأن لاغياً الفكرة. ثم غير الموضوع سائلاً: «أسبق لك أن زرت بني سويف ياشيخ؟ أعندك فيها أصدقاء؟».

فأجاب عبد الرحمن: «لاذا ولا ذاك».

فقال التاجر: «إذن أمكث معنا عندما ترسو. إنني أعرف المدينة جيداً، ويمكنني أن آخذك لفندق تنزل فيه أنت وفرسك والمغربي كذلك إذا كان معك». ونظر متسائلاً إلى طريف الذي كان قريباً منهما والذي سمع حديثهما.

فقال طريف: «إني سأمكث ليلة في هذه المدينة، هسست أرقم، اهدأ».

هذه العبارات الأخيرة كانت لجواده الذي أخذ يرفس بقلق ظهر المركب.

وابتسم التاجر وهو ينظر إلى المدينة التي تقترب، ثم قال: «بنو سويف مدخل جنان الفيوم! ياشيخ، إن ملذات تنتظرك ستنسيك ألم عضة الثعبان!».

وعندما رسوا على أرصفة المدينة المكتظة، كان الوقت عصراً وكان ذلك موسم قطف القطن الأبيض الطويل، الذي ينبت جيداً في مدينة الفيوم، وفي مستودعات المدينة أكوام من السلاسل الضخمة المنسوجة والممتلئة من ذلك الليف الثلجي الأبيض. وعندما نزل التجار من القاربين، ظهر العبيد الغالة في شكل متباين مع بياض القطن.

أمتعة وعبيد وحجاج: بنو سويف كانت هي السوق الكبير حيث تباع وتشترى الأشياء، وحيث يأتي التجار ويذهبون. وحتى قبل فتح العرب لمصر، كان التجار العرب يأتون إلى بني سويف، ويتخذونها مركز تجارتهم في المنطقة.

وقال طريف لعبد الرحمن عندما وقفا مع فرسيهما في فوضى الرصيف: «سأبيت هذه الليلة في فندق التاجر». فأومأ عبد الرحمن برأسه موافقاً لم يقرر بعد وجهة سيره. لكنه شعر بشيء يمنعه من مفارقة محمد علي وانتظر التجار وهم يجمعون أمتعتهم وعبيدهم.

وركب محمد علي حماره وقاد أتباعه عبر الأزقة الضيقة الحارة والأسواق، إلى النزل

الذي يتخذه عادة مركزاً له في المدينة.

وأخذ عبيد الحبشة ينظرون بكل تعجب إلى الحوانيت والأبنية وهم يمرون بها.

ووجد أصحاب الدكاكين الوقت لكي يحدقوا النظر في الجواري السود اللواتي أتي بهن للبيع. وركب عبد الرحمن وطريف وراء هذا الموكب.

كان مقصد محمد علي قلب المدينة غير بعيد عن النهر وقريباً من السوق المركزي وسوق النخاسين، وهناك وراء سلسلة من الحوانيت الأمامية كان مركز التجار العرب محروساً ومغلقاً.

وكان في انتظارهم الأصدقاء يحمدون لهم في السلامة. والأعوان يعينونهم على الاعتناء بالحيوانات والأكياس.

وجاء محمد علي بسائس لأخذ فرسي عبد الرحمن وطريف إلى الاصطبل. لكن عبد الرحمن رفض ذلك وقال: «أنا اعتني بفرسي» كان تعباً جداً، ولكنه لم يرد أن يرى أحداً يعتني بالسفانة.

وشعر طريف بنفس الشعور وقال: «إن الجواد يعرف يدي».

وهكذا قادها محمد علي بنفسه إلى المرابط. وبينما مر عبد الرحمن بفرسه عابراً الساحات المكتظة، رأى شوامة واقفة مع العبيد الآخرين كأنهم ماشية وكان جسم عبد الرحمن متخشباً ومؤلماً لكنه أزال السرج عن السفانة بنفسه وأطعمها وسقاها، وفعل طريف مثل ذلك لجواده. وبعد انتهاءه خرج طريف إلى السوق لشراء العشاء، بينما أخذ عبد الرحمن يغتسل عند بئر الساحة.

ورجع المغربي بكعك من شعير. وعسل وعنب وبطيخ، وقربة من حليب الماعز.

وفي الاصطبل، وجدا غرفة صغيرة بها شرفة على المرابط، فجلسا في الشرفة، وأكلا وهما ينظران إلى الناس يتحركون في الساحات. أما العبيد فلقد غابوا عن البصر في بناية لها أبواب كثيرة، لكن النزل كان كثير الحركة تأتى إليه البضائع دائماً وأكثرها قطن من الفيوم.

وبينما هما يتأملان، قال عبد الرحمن لطريف، «أقلت للتاجر إنك ستسافر غداً؟».

فأومأ المغربي برأسه مؤكداً ثم قال: «غداً سآخذ طريق الفيوم وأنت؟» فهز عبد الرحمن كتفيه وقال: «لا أدري».

وبعد الأكل نهض عبد الرحمن منتعشاً وقوياً، وقال: «سأخرج لأزور الدكاكين». فأجاب طريف: «سأبقى مع الفرسين».

وخارج النزل كانت الطريق تنفتح مباشرة على ساحة السوق المركزي، وهناك في وسط روائح وفوضى ذلك السوق، كان التجار من كل شكل. ولم يجد عبد الرحمن أية صعوبة في العثور على ما أراده من الحوانيت. فاشترى لنفسه حذائين جديدين، وغطاء لرأسه، وألبسة داخلية لنفسه واشترى قفطاناً جديداً كهدية للمغربي، قفطان ثقيل يحتاج إليه في ليالي الصحراء الباردة التي تنتظره.

وفي طريق عودته إلى النزل بعد الانتهاء من مشترياته، فكر في شيء آخر ووجد بغيته في دكان لتاجر اقمشة: لباس طويل قطني زعفراني اللون تتستر به النساء المصريات، فاشتراه كذلك.

وعندما رجع إلى المنزل كان الوقت مساء، وأخذ المؤذن ينادي للصلاة من أعلى صومعة قريبة، وهو يدخل نحو الساحة. فصلى عبد الرحمن في الساحة ثم ذهب يفتش عن طريف.

فقدم القفطان إلى المغربي وقال له: «هذا من أجل اللطف الذي اريتني في سفرنا عبر القفار. فاستغرب طريف بل ارتبك لكنه سر كذلك. فوقف ليجرب اللباس وقال: «سوف لن أنسى لك هذا في الأيام لمقبلة».

ووضع عبد الرحمن مشترياته على الأرض، وأخذ الثوب الزعفراني وقال: «سأغيب لحظة وجيزة لأرى فيها التاجر محمد علي».

فأخذ طريف ينظر إليه متسائلاً في نفسه وهو يعبر الساحة والثوب بيده ووجد عبد الرحمن مركز محمد علي داخل البناية الكبرى. فقاده خادم عبر ممر ملتوي ثم إلى درج نحو غرفة التاجر المضاءة بقنديل..

وعندما دخل إلى الغرفة، وقف محمد علي مرحباً به قائلاً: «مرحباً يا شيخ! لقد كان التاجر مستلقياً على أوترة مع ثلاثة من أصدقاءه العرب، وهم مجتمعون على صحون من التمر واللوز والعنب.

وأجلس محمد علي عبد الرحمن بجانبة وقال له: «كنت سأبعث إليك خادمي لأستدعيك للعشاء معنا قبل هذا، لكني رأيتك عابراً للساحة. وأشار إلى نافذة مشبكة تفضي إلى البوابة الرئيسية، ثم قال: «أنا مسرور بمجيئك الآن».

وصفق التاجر مرتين، فحضرت فوراً خادمة له من وراء ستارة داخلية، وفي يدها طست من ماء الورد ومنديل. لم تكن تلك الخادمة سوى شوامة.

وبينما عبد الرحمن يغطس يديه في الماء ليغسلهما أخذ يتساءل هل التاجر خطط لاستدعاءه وقصد أن يجمعه مع الفتاة أم ماذا؟ لكنه فكر أن التاجر ربما اختارها لتخدمه من أجل رشاقتها الفائقة ووسامتها.

فقال محمد علي وكأنه يقرأ أفكار عبد الرحمن: «إن الفتاة فريدة من نوعها».

فأجاب عبد الرحمن: «لقد اعتنيت بي أحسن اعتناء».

وعندما أخذ عبد الرحمن المنديل ليمسح يديه، شعر بلباس الجارية الخفيف قبالة التجار وقبالته هو نفسه. أما هي فلم ترفع عينيها وهي تقوم بواجبها. عندئذ تكلم عبد الرحمن في موضوع زيارته مباشرة وقال: «إن الفتاة خدمتني خدمة حسنة عند مرضي، وإني مدين لها بشفائي، لقد اشتريت لها هذا اللباس من السوق، كهدية متواضعة لها بالجميل».

وابتسم محمد علي وسر بما سمع. وظهر على وجه التجار الآخرين فهم صامت.

وتابع عبد الرحمن قائلاً: «قل لها إن هذا لها، واتركها تلبسه إذا شئت» فتكلم محمد

علي مع شوامة بلغتها، عندئذ رفعت رأسها وظهرت عليها علامات الغبطة، فانحنت نحو عبد الرحمن الذي وضع الثوب في يديها وانسلت خلف الستارة التي وراء المجلس.

وقدم محمد علي صحناً من اللوز المحلّى لعبد الرحمن وقال له: «كل يا شيخ».

فأخذ عبد الرحمن حفنة منه، بينما أكل الجلساء الآخرون بشراهة، الطعام الذي أمامهم وبعد بضع دقائق صفق محمد علي وصاح: «شوامة!» فجاءت الفتاة مجيبة نداءه. وقد لبست الثوب الزعفراني وبطريقة غريزية عرفت كيف تلبسه، فقد لفته حول خصرها، ثم القت به بكل رشاقة على كتفها الأسمر ورفعت طرفه مشهرة عن خصرها من جديد. فكانت مغطاة باحتشام. وزادها التغير جمالاً على جمالها.

وقدم محمد علي فنجاناً فارغاً وقال: «أتأخذ عصيراً أم خمراً» فأجاب عبد الرحمن مفضلاً العصير، وتكلم التاجر مع الفتاة.

فقامت شوامة بابريق من الفخار، وملأت فنجان عبد الرحمن بالعصير، وبقيت عيناها مركزتين باحتشام على عملها وهي تخدمه، وظهرت عليها روح جديدة واتزان رصين في تصرفها. وعندما ملأت الفنجان، انسحبت إلى مسافة قصيرة منتظرة طلبات سيدها.

ولاحظ محمد علي قائلاً: «إن هديتك رفعت معنوياتها». فأجاب عبد الرحمن: «هذا يسرني». ثم شرب العصير الذي كان خليطاً من البرتقال وحليب النحل لذيذ الطعم.

وهمس التاجر في أذن عبد الرحمن، ورائحة الخمر تفوح منه وقال: بتأن: «الفرس ! خمسمائة قطعة ذهبية، والبنت الغالية مقابل الفرس».

فشرب عبد الرحمن جرعة أخرى من العصير ولم يجب. لم يكن يرغب في الفتاة لنفسه. لكنه كان مشمئزاً من أن يراها تباع.

فقال التاجر مؤكداً: «خمسمائة قطعة ذهبية ! أكثر مما تستحق أي فرس زد على ذلك الفتاة!».

فقال عبد الرحمن بكل صراحة: «إن الفرس ليست للبيع» وفجأة تضايق من أن يرى التاجر يتجرأ على محاولة السفانة. وطبعاً محمد علي لا يعرف هذه الحقيقة، وهي أن الفرس لو وضعت للبيع في أسواق دمشق لبيعت بعشرين ضعفاً مما اقترحه.

وانتهى عبد الرحمن من شرابه، ثم وقف وقال: «أعتذر عن مقاطعتي هذه ولكني تعب من رحلة اليوم، وأريد أن ارتاح فسأسافر غداً مع المغربي. لم آت هنا إلا لأشكرك ولأعطي هديتي المتواضعة للجارية».

ورمق شوامة، وأمكنه أن يرى في عينيها نظرة واسعة شديدة تدل على أنها فهمت شيئاً مما يجري بينه وبين التاجر.

فابتسم محمد علي مظهراً السرور: «إن تلك الفتاة جاءت في وقتها، ستباع غداً في ساحة السوق». ونادى الخادم، وأمره أن يدل عبد الرحمن على الباب.

وعندما رجع عبد الرحمن إلى مسكنه، مر على السفانة في طريقها ثم على طريف في غرفته.

وقال للمغربي: «غداً سآخذ معك طريق الفيوم إذا شئت».
فأجاب طريف: «إن رفقتك ستجعل الطريق سارة».
ثم قاما بتهيئهما البسيط لليل. وأطفأا نور المصباح الوحيد، ثم ناما على حصيرين.
كانت معنويات عبد الرحمن ضعيفة وجسمه تعب، ولكن النوم لم يأته بسهولة وفي الليل شعر برجله تنبض الماء ولم يشعر بالراحة في نومه فوق الحصير، رغم أن ذلك يعد رفاهية بالنسبة للنوم على الأرض.
فأصابه الأرق وهو يفكر في شوامة، إن مصيرها يزعجه فبعد أن اعتنت به وخدمته، لم يستطع أن يتصور كيف يمكنها أن تباع في ساحة السوق، لكنه لم يجد أي مخرج لانقاذها. وهو لم يردها لنفسه، وبالقطع لا يمكنه أن يأخذها معه. فبالغنى السري المكون من الجواهر في حقيبته، كان من السهل عليه أن يشتريها. وفكر لحظة أن يشتريها ثم يعتقها، لكنه عرف أن ذلك مستحيل: فلا قيمة لحريتها في أرض غريبة عليها، لا تتكلم لغتها وبطريقة أو بأخرى لا مناص لها من أن تكون ملكاً لرجل ما.
وحل نصف الليل وعبد الرحمن لم ينم بعد، ومرت الساعات، وفي صمت الليل وعن بعد سمع صوت مؤذن ينادي للصلاة. فاستيقظ طريف وصلى الفجر، وصلى عبد الرحمن كذلك بمفرده.
وبعد الصلاة رجعا إلى النوم، فاهتز طريف ضجراً وهو يدعو دعوات طويلة قبل أن ينام من جدد، فتذكر عبد الرحمن عندما لقيه لأول مرة، وهو يصلي وحيداً بين الصخور، فلا شك أن شيئاً ما أثقل تفكير المغربي ودفع به إلى الحج.
وبعد فترة هدأ طريف، وأخيراً نام عبد الرحمن.
وفي اليوم التالي، تأخر عبد الرحمن بالنوم إلى الضحى. وعندما استيقظ وجد أن طريفاً ترك الغرفة، ووجد الساحة ملأى بالناس والحيوانات فذهب ليعتني بالفرسين وسقاهما.
وعندما رأى الفرسان عبد الرحمن أخذا يقفزان ويصهلان.
فقال عبد الرحمن لسفانة: «عزيزة، عزيزة» ثم قال لأرقم: «وأنت يا أرقم، إن ضغط هذا المكان وتر اعصابك، عندما يرجع المغربي، سنأخذ طريقنا من جديد». فداعب كلا فرسين وهو ينتظر طريفاً، وبعد لحظة رجع المغربي ومعه الفواكه والحليب والحلوى للفطور.
فأكلا في الشرفة الصغيرة، وعندما انتهيا من الأكل، رأى عبد الرحمن العبيد الغالة يساقون عبر باب الساحة في طريقهم إلى سوق النخاسين، وكانت بينهم شوامة ظاهرة وغريبة في لباسها الزعفراني. لقد قال محمد علي الحقيقة عندما ذكر أنه سيبيعها في الغد.
وعندما انتهى عبد الرحمن وطريف من الأكل، سددا حسابهما الصغير مع صاحب النزل، وتهيئا للسفر من جديد، فخرجا من الفندق على فرسيهم، مارين في سير الصباح المزدحم والسوق الكبير.
وأخذتهم طريقهم عبر ساحة السوق، بكل ألوانها وضجيجها. وكان الباعة المتجولون

بقرب بضاعتهم، كل واحد منهم لا يبعد عن الآخر إلا بضعة اقدام، وهو يصيح ويمدح بضاعته.

وتجاهل عبد الرحمن كل هؤلاء، حتى الذين ضايقوه بالجري وراءه مظهرين بضاعتهم، مؤكدين عليه شراءها كان بصره مأخوذاً بسوق العبيد الذي يقع بقرب مركز الساحة الضخمة.

كان بيع العبيد بالمزاد العلني لم يبتدئ بعد، ولكنهم قد هيئؤا وجمعوا فوق منصة عالية ليراهم المشترون. واجتمع حولهم حشد كبير، وأتى اصحاب الأرض المصريون والعرب ليروا البضاعة ويقيموها.

وكانت الطريق المركزية تؤدي مباشرة إلى سوق العبيد. ورأى عبد الرحمن الغالة مجموعين في جمع مكتظ وابتهج قلبه عندما لم ير لباس شوامة الزعفراني بينهم. فربما فكر محمد علي بطريقة إنسانية أن يجنبها عار سوق العبيد.

ثم مر بقرب الغالة، فرأى شوامة واقفة مع الباقين، كانت قد أزاحت عنها لباسها الزعفراني، وبقيت بتنورتها التي رآها بها أول مرة.

وكانت تنظر في الفراغ منتظرة بدون شعور مصيرها المحتوم. وإذا كانت قد رأته فإنها لم تظهر ذلك على وجهها.

وأوقف عبد الرحمن السفانة، في وسط الحشد، لقد عرف أن الفتاة سوف تباع لكنه صدم في نفسه أن يراها هكذا، ففتش مع نفسه في طريقة يعينها بها حتى بشراءها وعتقها. لكنه عرف في قرارة نفسه أن ذلك مستحيل، فحريتها عديمة الجدوى، وإذا أظهر الذهب لشراءها فربما يظهر عليه انه ليس بدوياً عادياً من بدو الصحراء.

واخيراً لم يسعه إلا أن يطلق العنان للسفانة من جديد ويلتحق بطريف، وابتعد سوق العبيد وراءه وظهر من جديد الباعة المتجولون على طرفي الطريق. وأخيراً عندما وصل إلى آخر الساحة، لم يدر ما كان الباعة يعرضون من بضاعة.

واستفاق من حلمه الأسود على صوت المغربي الذي قال: «هذه طريق الفيوم يمكننا أن نعود الآن».

وسارا بعيدين عن ازدحام ساحة السوق، وظهرت أمامهم الطريق الطويلة المغبرة التي تؤدي إلى أراضي الفيوم الغنية.

وسر عبد الرحمن بالعدو فوق السفانة وراء طريف. كما سر بالابتعاد عن مدينة بني سويف، فسيبقى هذا الاسم دائماً في مخيلته.

طريق الواحات

الفيوم: أرض الألف يوم بالنسبة لمساحتها، كانت أغنى إقليم في، مصر، ومنتجاتها أكثر تنوعاً من دلتا النيل.

ابتدأت مزارع القطن المنتجة تظهر بعد بني سويف، ولم ينته خضار الزراعة على طول إلى مد البصر. كانت هناك بساتين من أشجار التوت و الزيتون، الكرز، والمشمش، بينهما حدائق البارلا، وللوبيا، والدخن،والبطيخ، والبصل والفجل. هذه هي الفيوم، مهر ابنة فرعون القديم.

وخارج بني سويف كانت تتجه الطريق نحو الغرب، وكلما ابتعد المسافر عن البلد كلما، كثر عدد قنوات السقي الضحلة. وكانت أكثر تلك المجاري الصغيرة جافة من الماء، لا تملأ إلا في أوقات معينة. لكن الكبيرة منها كانت ملآى.

فشق الفرسان فيها طريقهما حتى بطنهما. وبعد ذلك أبتدأت حقول الأرز وقصب السكر.

وتقدم عبد الرحمن وطريف عبر هذه الأرض الغنية، وكانا عندما يمران يقف فلاحو الحقول المصريون وينظرون إليهما بصمت. كانا يظهران كمحاربين من قوم فاتحين فلم ينظر إليهما الفلاحون بنظرة الصداقة ولا بالعداوة.

وبعد الظهر، وصلا إلى بحر يوسف. وتقول الآثار بأن يوسف الصديق (عليه السلام) هو الذي أسس منطقة الفيوم بأمر من فرعون. ولهذا سمي النهر باسمه. أو بالأحرى القنال التي تأتي بالماء من النيل

فعبرا بحر يوسف، وتابعا طريقهما نحو الغرب رغم أن الطريق الرئيسية كانت تنعزج نحو الشمال. وفي ذلك الاتجاه كانت مدينة الفيوم. عاصمة الإقليم. لكن طريقاً لم يتجه إليها وفرح عبد الرحمن لذلك فلقد ضجر من المدن.

وخيما تلك الليلة في غيضة من شجر الحلفاء كانت كجزيرة وسط الجنان المتناهية. وبالنسبة لعبد الرحمن، كان المبيت تحت نجوم السماء بعد ليلة في النزل كراحة لضميره غير المرتاح، ورغم ذلك فقد شعر بوجود فلاحي الأرض قريبين حوله في أكواخهم الطينية. كما شعر بأم روحه أرادت الخلوة، لقد أحس بالاضطهاد في اتصاله القصير مع بني سويف، أرض مصر لهذا أحَس كرفيقه المغربي إنه مدفوع لا بالمصير فحسب، بل بقلق عميق في نفسه.

وفي اليوم التالي، تابعا سيرهما عبر الفيوم. كانت محاري المياه الملتوية تقطع الأرض المنبطحة كأنهار،كلها ينابيع لبحر يوسف الذي لم يكن إلا هدية النيل. وظهرت حدائق الفيوم اللا متناهية، لكن المسافرين وصلا إلى نهاية الأرض المزروعة بوصولهما إلى سفوح

تلال جبال برقة. فصارت واحة الفيوم الضخمة ومصر وراهما.

وعندما خيما، قال طريف: «غدا سأذهب إلى قارون، ومنها تخرج القوافل، سألتحق باحداها ثم أذهب نحو الغرب حيث أرض الآباء».

فقال عبد الرحمن: «وأنا كذلك سأذهب نحو الغرب عندما نصل قارون، سأغير حدوة فرسي لأن الطريق طويل أمامي».

كانت هذه.كل المعلومات التي أعطاها عبد الرحمن عن نفسه وعن مخططاته وكان ذلك كافيا. فالمغربي ظهر عليه السرور برفقة عبد الرحمن ولم يساله عن أي شيء آخر.

ونظر طريف إلى الهضاب الأجورانية، التي كانت أمامهما كاسوار الصحراء، فانشرح وجهة، وتنفس تنفساً عميقا وقال: «من نا صار الجو نظيفا واقل غبارا.

وبعد يومين، سافر عبد الرحمن وطريف مع قافلة جمال صغيرة، خرجت من قارون متجهة إلى الغرب. كان فيها جماعة من واحة سيوة وهم قوم رحل أتوا إلى مصر للتجارة في قطن الفيوم، كانوا سكان صحراء بسطاء، فأخذوا المسافرين معهم بدون سؤال.

كما أخذوا زيادة ماء من أجل الفرسين.

وخرجت القافلة من قارون في اليوم الثالث من ربيع الأول. كان عبد الرحمن قد ترك الحوراء شهرين قبل ذلك في أول محرم. وبينهما مر شهر صفر وألف ميل من السفر. ونظر عبد الرحمن بتأمل إلى مساحات الصحراء الغربية المتناهية أمامهم.

فقوائم السفانة حملته عبر الصحاري وقفار وزيادة صحراء لم تعن أي شيء جديد بالنسبة له. وقادت الجمال المتمايلة القافلة التي تبعها عبد الرحمن والمغربي في المؤخرة.

وسافروا خمسة أيام بدون أن يمروا باية نقطة ماء، أو يروا علامة بشر أو حيوان في هذه الناحية في جل الأوقات كانت الطريق تمر عبر مرتفعات حصوية رغم أنهم مروا عدة مرات على أطراف مساحات من العروق، وهي كثبيات من الرمال الدائمة تنتشر كجبال صغيرة عبد البحر.

وفي صباح اليوم الخامس نزلوا من النجد، وخيموا تلك الليلة بقرب بئر صغيرة على هامش منخفض القطارة الكبير، وبعد يومين وصلوا إلى سيوة.

لم يسبق لعبد الرحمن أن رأى واحة كسيوة. إذ لم تكن فيها بركة واحدة وكان هناك الماء بكثرة، ينبع من الأنهر الباطنية الخصبة تحت الصحراء. أما الواحة فكانت غابة من النخيل.

كان أهل سيوة، وجلّهم من البربر أناس كرماء، وكانت تحيتهم: «السلام عليكم!» ألم يكونوا كلهم اخواناً في الله؟ كانت تلك الأيام أيام الإسلام الأولى التي انتشرت فيها الحقيقة كموجة من اللهيب عبر الشمال، فرحب أهل سيوة بالغريبين المغربي من الغرب، والشيخ الشاب الذي سافر على طريق الحاج معه. لكن طريفاً لم يمض أكثر من ليلة واحدة في مكان واحد، فلقد سافر بتمهل عبر الواحة الفسيحة لكي يريح الفرسين. وأمضى المسافران ثلاثة أيام يسافران عبر بساتين النخيل، ثم مقابل أطلال معبد عمون، الصهاريج

الطافحة بالماء. ثم تركا سيوة وراءهما.

إلى الغرب، تحت قوس الشمس المتحركة يوماً بعد يوم والآن، وإلى الجنوب منهم ينتشر سريركلنسو الفسيح الذي لا يعبره رجل قس سفره وتجنباً أطراف السرير الفسسيح واتبعا طريقاً سهلة تمر على بئر رفاوي.

وهناك استأجر بدويين بجمليهما ليقوداهما عبد الصحراء. حيث يجب عليهما عبور طرف من السرير.

الشمس والرمال الحمراء! لقد عاني الفرسان الشدائد، وترجل الراكبان مرات عديدة ليريحاهما، وأحياناً تناوب البدويان في الترجل، بينما ركب عبد الرحمن وطريف الجملين المتأرجحين. وهكذا دبّا عبر كثيبات كلنشو العديمة الطرق. ومن حسن حظهم لم تهب الريح هذه المرة. وبعد خمسة أيام شاقة وصلوا إلى واحة جالو، حيث النخيل وصهريج الماء الذي يلمع تحت الشمس، ووجوه غريبة وجديدة وأحياناً يظهر لعبد الرحمن أن كل ذلك خيال.

وبعد أن سلما على رئيس الواحة. قال طريف: «سنرتاح هنا ونريح الفرسين، وبعد ذلك تتابع طريقنا بدون أي مشكل، لأن بلادي تبدأ من هنا».

وجاءت المحطة في وقتها بالنسبة للفرسين. كان الجواد منهوك القوى. حتى السفانة كانت تعبة ورأسها منحنى. وأخذت الحناء تزول عن الفرس فأصبح لونها كميتاً.

وعندما أخذها عبد الرحمن إلى الماء بدأ يهمس في أذنها: «عزيزة، عزيزة، ان قلبي يأسى عندما أتذكرك في جمالك وكبرياءك!».

وتذكر السفالة شخص آخر كذلك.

فبعد يومين، على بعد سبعمائة ميل وفي مدينةالفسطاط، وقف التاجر محمد علي بين يدي الوالي نعندما ذهب إلى المدينة في تجارته، رأى إلاعلان في الساحة العامة بالقبض على عبد الرحمن من آل أمية. كانت المفاجأة عشرين ألف قطعة ذهب، وأعطى وصف الهارب.

وعندما قابل محمد علي الوالي، قال له: « أيها الوالي، لقد اجتمعت بهذا الشاب في رأس الزعفرانة، لم يأت مع الحجاج، بل أتى بفرس في قارب صيد من ساحل سيناء. لم أعرفه آنذاك، لكنه تنطبق عليه أوصاف عبد الرحمن هذا. رغم أنه ظهر لي أنه ليس بدوي صحراء، لكنه في غاية الامتياز».

فصرح التاجر قائلاً: «نعم فرسه ممتازة! لأنني ركبتها عندما كان مريضاً نتيجة عضة أفعى. كانت كستنائية اللون، ولكن زال بعض صباغها وعلق بثيابي، ولاحظت أن اصل شعر ناصيتها أبيض اللون، لقد غير لونها ببراعة بالحناء».

واستنطقه الوالي حتى عرف منه كل شيء : كيف أن الشاب بصحبته إلى بني سويف، ثم ذهب مع مغربي اسمه طريف إلى الفيوم. عندما استنطق الوالي التاجر اقتنع أن الرجل الهارب هو عبد الرحمن نفسه. فاشتدت حماسته في خدمة سيده الخليفة أبي العباس.

وبعد أن صرف الوالي التاجر، درس الموضوع مع عدد من أعوانه، فجلسوا يدرسون خريطة شمال إفريقيا جميعاً.

قال الوالي: «إذا سافر غرب الفيوم، فليس له إلا طريقان يمكنه أن يتبعهما: شمالاً، على الطريق التي تمر على شاطئ البحر، أو مباشرة غرب سيوة على طريق الواحات».

وفي الصباح، كان الرسل خارجين من الفسطاط، يحملون رسائل الوالي التي عليها أمر الخليفة: الموت لعبد الرحمن ابن أمية!

وسافر عدة رسل نحو الجنوب لكي يحاولوا اقتفاء آثار الهارب من الفيوم.

لكن اثنين منهم سافرا غرباً عبر الطريق التي تمر على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

كانا يحملان الخبر إلى ابن حبيب والي إقليم برقة البعيد. عشرين ألف قطعة ذهبية، وعطف الخليفة لمن يقبض على عبد الرحمن!.

حكاية طريف

وفي إقليم برقة، على بعد أربعمائة ميل غرب جالو، تقع واحة الجفرة، المنعزلة. كانت منطقة جبلية ذات جروف ووهاد، ونقط ماء عديدة في ثنيات التلال. وعلى الغرب تقع صحراء سرت. وبعيداً منها مدينة طرابلس. أما إلى الجنوب فكانت الحمادة الحمراء، ذلك النجد الصخري، القاحل الشاسع، الذي ينتشر نحو الصحراء الكبرى. لكن منطقة الجفرة كانت خصبة ومحمية بين الوهاد. وبها حيد فوق المرتفعات. هذه هي بلاد المغربي طريف. لقد رجع إليها بعد حجه. وتوجه هو وعبد الرحمن غرب جالو عندما استرد الفرسان قوتهما. وسافرا عبر منخفضات السباخ الغربية، ثم عبرا متاهات المرتفعات بكل أسماءها المتنوعة: جبل ، رأس، ظهر، قارة، قصر، وأسماء أخرى.

وكل منطقة صالحة للسكنى كانت مأهولة بقبيلة بربرية صغيرة، لقد أصبح معظم البربر مسلمين. كانوا قوم جبال، رعاة أشداء، لكنهم في غالب الأحيان لا يضايقون المسافرين.

وتعمق طريف وعبد الرحمن في التلال، وبينما أخذ المغربي يقترب من بلاده أحس كأن تعب الشيخوخة والسفر يخف عن كاهله. وفي ليلة من الليالي خيما في بئر يقال لها ثمد العوراء فوجدا هناك الرعاة البربر قد وصلوا قبلهما، فحيوهما تحية الاسلام . وجلبو الماء لهما من البئر بحبل ومرفاع ذي صرير.وخيم المسافران على بعد من الرعاة، لكن طريفاً ذهب عندهم بعد قليل، واجتمع بهم وهم يعتنون بشياههم.

وهيأ عبد الرحمن الخيمتين المتواضعتين والنار والعشاء، بينما كان طريف يتحدث مع الرعاة.

وهو يراهم تحته في الوادي على ضوء المغرب الخافت، تعجب أن يرى زميله واحداً منهم. فاعتماد هذا المحارب على نفسه، وطبعه الهادئ أعطاه سمة رجل أسفار. وطبعاً لم يكن جبلياً من الجبليين، سافر إلى مكة المكرمة ورجع، فما هو الدافع وراء هذا المغربي؟ ولماذا هذه التقوى العميقة؟ وهذا التعبير عن التوبة التي يعبر عنها في صلواته المتواصلة؟

وفي تلك الليلة، وهما جالسين بقرب النار بعد الأكل تكلم طريف من تلقاء نفسه، وحكى قصته.

فقال: «غداً سنصل جبل ودان حيث ديار قومي». ثم سكت برهة بينما كانت تحترق أعواد السنط الشوكية في النار وتنير قسمات المغربي. وبعيداً في الظلام ثغى خروف بقوة. وحدق طريف عبر النار. فرجعت إليه صور الماضي ثم أخذ يتكلم بدون مقدمة:

«غادرت جبل ودان منذ أربعين سنة عندما كان عمري عشرين سنة. ناداني صوت المغامرة، فاستجبت له، فنزلت عبر التلال إلى صحراء سرت. وكان هناك جنود في طريقهم عبر المدينة متجهين نحو الغرب، لأن أهل المغرب والأندلس كانوا لايزالون في انتظار الفتح الإسلامي.

«الأندلس! إلى هناك كان اتجاه الجنود، فلقد عين الأمير الحر والياً على تلك الأرض،

كان في طريقه قادماً من دمشق، وكانت حكاية الأندلس وثرواتها وغنائمها في فم كل واحد منا. فاتحد البرابرة المسلمين على راية الأمير عندما تقدم، وأنا مع الآخرين.

فوجدت الأماكن البعيدة وفرصة الجهاد في سبيل الله، فسافرت مع جنود الأمير عبر قادس وصفاقس والقيروان. و من ثم ذهبنا إلى جزائر بني فزغنة وإلى تنس، حتى إلى طنجة البعيدة، ومن ثم إلى الأندلس. وحينذاك صرت جندياً وبرعت في استعمال السيف والرمح والقوس.

وكان النصارى لازالوا صامدين في جبال الأندلس، فحاربناهم هناك. وتميزت في الجهاد حتى تنبّه إلي الأمير بنفسه، وعينني تحت إمرته، ومن بعد ذلك ذهبنا إلى المغرب».

عندئذ تثاقل صوت طريف، كان لهيب النار كأنه ستار يغطي الماضي فأخذ ينظر عبره لمدة طويلة ثم تنهد وتابع كلامه قائلاً:

«كان اتجاهنا سبتة. وكانت هناك زوجة الكونت ألتان، ذلك النصراني الذي أعان جيوش المسلمين على فتح الأندلس. لكن الأمير اكتشف خيانته وخيانة عائلته، فقرر قتلهم جميعاً. ففر الكونت لمدة وجيزة، لكن زوجته حوصرت في قلعة سبتة من طرف قوات الأمير، وكانت في جملتهم.

و دافعت الحامية دفاع المستميت، لكننا اقتحمنا القلعة، و أسرنا زوجة الكونت، كنت أحد حراس الأمير عندما جيءبها إليه. وكانت ثائرة و ذاهلة لكن وجهها حافظ على أمارات النبالة والجمال. لقد عرفت أن مصيرها الموت وكان في استطاعتها أن تواجهه بنفسها دون إحجام.

وكان لها ابن اسمه الأربوط، صغير، فتي السن، و علم الأمير بهذا الولد و أراد أن يحطمه هو كذلك. لكن الولد لم يوجد عندما اقتحمت القلعة، فسأل زوجة الكونت عن ابنها، فحلفت المرأة بإلاهها أن الولد كان من بين لأموات. وكان في صوتها رنين غريب من الحقيقة، حتى أن الأمير تظاهر بتصديقها.»

ثم تقطع صوت طريف كأن فكره ضاع في ذكريات مخزونة فيه، ولكن وهو يعيش حكايته من جديد، يريد أن يحكيها كذلك. فشهق شهقة عميقة انفتح بها صدره، ثم أخذ يتكلم بنبرة عميقة وبطيئة كمن يتكلم في نومه وقال: «وكان للأمير منجم عجوز مقرب إليه اسمه يوسع، رجل شيطان، يثق فيه ثقة كبيرة. كان يتعامل بالسحر والتنويم، و هو الذي ألح على الأمير بأن يطبق مخططاته. فوازن بين كلمات المرأة وذهب إلى قبو القلعة مع العساكر ليفتش في قبور الأموات. وهناك وجدوا الولد حياً حيث أخفته أمه في ظلام أحد القبور. فأتوا به إلى الأمير. فشهقت امرأة الكونت المتكبرة عندما رأت ابنها، ووقعت على رجلي الأمير ترجو رحمته.

وكان الطفل جميل الصورة، أزرق العينين أشقر الشعر، كأهل المناطق الشمالية البعيدة. فوقف بدون خوف قبالة الأمير، وحاول أن يطمئن أمه رغم طفولته. حتى الجنود الأشداء تأثروا لسنه الصغيرة ولبراءته .

ولكن قلب الأمير لم يتحرك، فتكلم بهمسات في أذن المنجم، فهز العجوز رأسه وأخذ الطفل بيده. واستدار الأمير إلى حراسه، وبما أني كنت أقرب واحد منه قال لي: «إذهب مع المنجم، ربما سيحتاج معونة لتطبيق أمري». وكعسكري ذهبت مطيعاً، بينما كانت امرأة الكونت تصرخ و تنطرح على الأرض عند رجلي الأمير.»

وأخذت النار تضعف شيئاً فشيئاً، وصاح ابن آوى بعيداً. ولم يتنبه عبد الرحمن لا إلى هذا ولا إلى ذاك، فكل انتباهه كان متعلقاً تعلقاً شديداً بحكاية المغربي. وأتت الكلمات في فم طريف كدقات القلب بدون إرادة أو مجهود على ما يظهر، ثم قال: « وتبعت العجز والطفل إلى برج في القلعة، وهناك قاد المنجم الطريق في درج ملتوية و أنا أتبعه دون ان أنطق بكلمة.

وبعد مسافة،خرجنا إلى الضوء، والنور في أعلى البرج، وانتشر تحتنا منظر بحري. وكانت القلعة مبنية على صخرة عظيمة في طرف البحر. وتحتها تتكسر الأمواج البيضاء على الصخور وتطير وتصيح النوارس، وبعدها تنتشر مساحات الماء الفسيحة.

وأخذ المنجم الطفل بيده وقاده إلى طرف شرفات البرج المفرجة وقال له: «قف هنا» وصعد الطفل بكل طاعة إلى فتحة شرفة، فقال له المنجم: «لا تتعلق بي يا طفل، بل تعلق بالصخر، ليس هناك خطر».

فأجاب الطفل: «لم اخف يا عم، ولكن هذا علو مدهش!».

وأشاريوسع نحو الماء الأزرق وقال: «انظر! هل ترى الأرض الخافتة عبر البحر؟» فهز الطفل رأسه بشدة كما يفعل الأطفال وقال: «إنها الأندلس أرض أبي وأمي!»

فقال المنجم: « افتح يديك وباركها يا بني!» وكانت الابتسامة على وجه المنجم الذليل كمكر على وجه إبليس.

وفتح الطفل يديه وهو واقف ومتجه نحو السماء الوردية اللون، ووقف هناك لحظة كله براءة وجمال تحت بصر الله وبصري، فدفعه المنجم ورأسه في المقدمة من أعلى البرج. فسقط على مسافة اربعمائة قدم إلى طرف البحر المليء بالصخور التي كانت في رحمتها اسرع بالقتل أكثر من قلب الرجل! ووقفت أنظر وشددت بيدي على مقبض سيفي المغمود».

وخرجت كل كلمة بالتواء من أعماق المغربي وبإجهاد وصراع عنيف وانقلبت النار إلى رماد، وغطى الليل اللطيف وجه الرجل التائب. وتبع ذلك سكوت طويل مميت. ثم أخذ طريف يتكلم بكلام عديم النغمة وقال:

«كنت جندياً، فقلت في نفسي: سوف انسى موت طفل نصراني، فذهبت إلى الأندلس وتزوجت إمرأة هناك. كانت جميلة، وبعد مدة اعطتني ابناً ذكراً كان بهجة قلبي. وارتفعت درجتي في الجندية حتى صرت قائد حصن مدينة مالقة. وعشت هناك مع عائلتي. وكنت أذهب أحياناً إلى حملات في الجبال ضد عصابات الأعداء هناك ولكني دائماً أعود إلى زوجتي وطفلي. كنت أعيش حياة سعادة قناعة بكل ما في ذلك من معنى.

ثم في يوم من الأيام، عندما كان عمر ابني سبع سنين، وقف في شرفات الحصن المفرجة لينظر إلينا ونحن عائدن منتصرين بعد حملة في الجبال، وقف هنك يلوح بيده عندما رآني، فانزلق ووقع رأيته ينزل كالسهم إلى حتفه ويقع فوق الأرض أمام عيوني وعندما انحنيت لأجمع جسمه المتكسر، رجع إلى بصري وجه الأربوط الذي كنت نسيته، كان ذلك حكم الله.

وتوقف طريف مرة أخرى عن سرد قصته. وعندما اخذ يتكلم من جديد، كان صوته متقطعاً ومرهفاً، فقال: «ولم يرزقني الله اطفالاً بعد ذلك، وبعد مدة توفيت زوجتي، وتزوجت إمرأة أخرى، وكانت زوجتي الجديدة امرأة طيبة، لكن الله لم يرزقني اطفالاً منها. ولما رأت نفسها عقيماًطلبت مني أن اتزوج إمرأة غيرها، ولكني لم أفعل. عرفت أنني سوف لن أكون أباً من جديد».

ومرت الأعوام، ونقلت من حامية إلى حامية في الأندلس حسب قيام الحروب ومات الناس، ولكني بقيت حياً. واخيراً توفيت زوجتي الثانية. وحينذاك اصبحت رجلاً كهلاً، وصارت الأندلس لي أرض غربة وذكريات مريرة. فتركتها ورجعت إلى هضاب قومي، ولكني لم أجد الراحة هناك كذلك، لأن صور الماضي ظلت دائماً امام عيني، فذهبت إلى حج بيت الله الحرام. الله اكبر! هو الوحيد الذي ترجى منه الرحمة والعفو!» وأنهى طريف قصته بتنهد عميق.

ولم يتكلم عبد الرحمن فليس عنده ما يقول، وأخذ رماد النار يبرد شيئاً فشيئاً، وجلس المغربي في الظلام، ورأسه منحني على ركبتيه.

وبقي جالساً كذلك عندما وقف عبد الرحمن لإنهاء بعض الأعمال الليلية ثم نام.

فرسان الوالي

كانت عودة طريف من الحج حدثاً هاماً في أحد أودية جبل ودان الصغيرة. لقد فقد في الأندلس أعز الناس إليه ولكن له أقرباء بين رجال قبائل الجبال. وكانت قرية قومه قريبة من قعر واد صخري عميق، مكونة من حفنة بيوت محاذية بعضها البعض وساحات عارية مبنية من حجر ملصق.

بطين مخلوط بالملح، وتحت القرية، في قعر الوادي بستان صغير حسن النخل، وأشجار السرو حول بركة ماء مخفية بين تلك الأشجار، فكانت القرية تشبه عدة قرى رآها عبد الرحمن في الأسابيع القليلة الأخيرة. ومع ذلك فهي تختلف عن تلك القرى لأنها كانت غاية اتجاههم.

وعندما اقترب طريف وعبد الرحمن في طريق قرب القرية، من طفل يرعى قطيعاً صغيراً من الماعز، صاح الطفل باللغة البربرية مرحباً «مَتُولَمْ» وصاح رفيق له مجيباً عندما عرف الحاج الذي رجع من الديار المقدسة قائلاً: «متولم»! ثم خرج أطفال القرية مسرعين نحوهما، ووقفوا ينظرون إليهما، وخرجت النساء من أشغالهن المنزلية.

ودخلا القرية محاطين بموكب من الأطفال والماعز وابتسم طريف مجيباً على تحية الأطفال، وانقلبت شدة وجه المحارب إلى عذوبة ورقة.

وتقدم حوالي إثنا عشر رجلاً من بستان النخيل ليروا القادمين الجدد، كانوا يلبسون جلابيب قصيرة، وكساؤهم لا يتعدى ركبتيهم، على عكس البسة العرب الطويلة. لم تكن تظهر عليهم لا رشاقة رجال الصحراء ولا روعتهم لكن تظهر عليهم ملامح القوة والعناد كالتي تكون لقوم خليط بين رعاة وفلاحين.

ونظروا إلى المسافرين بفضول حذر ثم ابتسموا ابتسامات عريضة، وصاحوا بالخبر لبعضهم البعض عندما تعرفوا على طريف، فتقدموا يتبادلون تحيات قلبية مع الحاج العائد.

ثم دار طريف ليعرف عبد الرحمن، فقال متكلماً باللغة العربية وببعض العبارات من لغته: «هذا هارون، لقد رافقني على طريق الحج إنه ضيفي».

فرحب القرويون بعبد الرحمن صائحين: «متولم!»

وتساءل عبد الرحمن في نفسه مرة ثانية، كما تساءل في الأسابيع الأخيرة، حول شعور طريف نحوه. فكلما توقفا أصر المغربي على تقديم زميله بأنه «رجل سافر على طريق الحج»، فذلك هو نصف الحقيقة، وجعل الناس يفكرون بأن عبد الرحمن أتى من مكة مع طريف. حدث هذا مرات عديدة مما جعل ذلك مستحيلاً أن يكون هفوة لسان عابرة من طرف المغربي، فأخذ عبد الرحمن يشعر أن طريفاً اشتبه بأن له سراً، وكا ن يعينه على إخفاءه. ولم يسأله المغربي قط، بطريقة من الطرق، لا عن ماضيه ولا عن مقصده.

وعندما وصلا إلى القرية، كان الوقت ظهراً. فاعلن البربر فوراً أن هذا اليوم يوم عيد، وأنزلوا المسافرين في مكان شرب تحت سقف مشبك في الساحة العامة، وقدموا لهما اللحم

والخبز ولبن الماعز.

وتجمع الرجال حولهما يسألون عن حج طريف. وكان المغربي مهذاراً أكثر مما رآه عبد الرحمن مع أناس آخرين. وأخذت النساء تأتي وتروح ووقفن وراء الرجال، ليستمعن أو ينظرن، ويعلقن مع بعضهن على جمال الشاب العربي الذي أتى مع طريف. واجتمع الأطفال حول الجمع يلعبون ويتحركون ويلتهون بأشياءهم الخاصة. حتى الماعز جاء بعضها بكل فضول وأقتحمت رؤوسها، فظهروا كأنهم عجزة ملتحين.

وبعد أن أكل عبد الرحمن، ودع الجمع بلباقة وذهب ليعتني بالسفانة، كان قد سقاها وتركها تنتظر في الظل خارج المكان. وقال لها: «تعالي يا عزيزة». وأراحها من اللجام و السرج ، ثم قادها وقاد جواد طريف إلى الواحة داخل بستان النخيل.

و كانت أشجار السرو نابتة بكثافة حول البركة، جاعلة من ذلك المكان متنزهاً وسط المتاهات. وتظهر فوق رؤوس الأشجار العالية الجبال الصخرية التي تحيط بهذا الوادي. لكن الأرض حول الماء كانت كالجنينة، فشرب الفرسان حتى ارتويا .

و وقفت هناك فتاة بربرية بجرتها، كان وجهها جذاباً وعريضاً، وفمها كبيراً ومليئاً في جانبيه، كأنها مبتسمة على الدوام. فأشار عبد الرحمن إليها يريد استعارة جرتها، فأعطتها له فوراً، وانفتحت ابتسامتها كاملة وحقيقية. كانت من عرق فلاحين أشداء، لكن انوثتها قوية ومعبرة.

فملأ عبد الرحمن الجرة وأفرغ الماء على عنق السفانة ورأسها.

ووقفت الفرس هادئة متمتعة بذلك، وأفرغ عبد الرحمن الماء عليها المرة تلو الأخرى، وكانت قد استرجعت تقريباً لونها الأبيض الأصلي وذهبت عنها الحناء تحت تأثير الشمس والماء والريح والرمل.

وغسل عبد الرحمن الغبار عن مطية طريف كذلك. لقد كان الجواد متعباً جداً نتيجة السفر. ونقص وزنة في الطريق، وأصابته قرحة نتيجة احتكاك حزام السرج ببطنه. وطار طرف من ظفره داخل قائمه الأمامي الأيسر، مما جعله يعرج.

وأرجع عبد الرحمن الجرة إلى الفتاة. فهي لم تكن مستعجلة بملأها والذهاب بها، وأتى أطفال القرية كذلك إلى الواحة وأخذوا ينظرون.

فابتسم لهم عبد الرحمن، وذهب بأفكاره إلى وادي السرحان وإلى الأطفال الذين كانوا ينظرون إليه عندما وصل لأول مرة هناك. والحوراء كذلك كانت واقفة تنظر إليه. فتنهد تنهداً عميقاً، ومرت الأخيلة أمام عينيه كسحب بعيدة. فكل ذلك اصبح بعيداً الآن نصف عرض قارة إفريقيا أو أكثر. ثم استدار وأخذ يفرك جسم الفرسين بعمامته.

ولما أتى طريف إلى البركة بعد وقت قصير وجد عبد الرحمن لا يزال يعتني بالفرسين. فوبخ المغربي نفسه قائلاً: «أنا رجل عجوز، لقد نسيت جوادي». فأجاب عبد الرحمن: «لا بأس» واستقام واقفاً. لقد كان جسمه متألماً ومتيبساً نتيجة طول الطرق. ثم قال: «لقد اعتنيت بكليهما الآن فالجواد بحاجة إلى بلسم لقروحه، وكلاهما في حاجة إلى الراحة

والمرعى الطيب»، فأومأ طريف برأسه وابتسم كما يبتسم رجل قد وصل لهدفه الصغير وقال: «الراحة والرعى الطيب، سوف يجددون كل ذلك، وأنا وأنت كذلك، فلي في التلال غنم اتيت بها من الأندلس، سوف نأخذ الفرسين إلى هناك، وسيسترجعان صحتهما ويسمنان في تلك الشعاب المختفية».

وأخذ المغربي يفحص السفانة بعين نافذة وقال: « إن الفرس تحملت مشقة الطريق تحملاً جيداً، سآتي لك غداً بالخل والماء لتغسلها به، وسوف تلمع كأنها نجم صغير».

فنظر عبد الرحمن إلى السفانة بإعجاب، وهو يمشط ناصيتها الطويلة. ومن بينهم هم الأربعة: الرجلين والبهيمتين، كانت السفانة هي الوحيدة التي لم تظهر عليها علامات تعب السفر، فالواحة الخضراء وغسلها، ارجعا إليها حيويتها من جديد، رأسها كان عالياً وعيناها تلمعان، لا شك أنها بعد استراحتها وزوال آخر أثر الحناء عنها والبقية الباقية من أتعاب السفر ستعود من جديد إلى بياضها وجمالها.

وكانت الحياة من منطقة الجفرة على نمط واحد ومنتظم، فلم يكن بربر الواحة رحلاً كبدو العرب، كانوا يزرعون وهاد الواحة الخصبة، ويربون الغنم والماعز في المرتفعات، فتلك الدائرة الصغيرة من الأرض تعطيهم ما يحتاجون إليه للحياة، لذا لم يجدوا حاجة إلى الرحيل. وهم يرحبون بالغريب في مجتمعهم الصغير دون أية أسئلة.

وأثر هذا التغير في عبد الرحمن تأثير المخدر، فلقد تعود على الكفاية القليلة من الأكل أو الماء، وعلى الساعات الطويلة من السفر، وعلى الهروب الذي لا نهاية له. وفجأة تغير كل شيء، فاخذ يسأم من هذا الفتور مثلما سئم من عذاب الهروب. حتى جسمه لم يعطه الفرصة ليستريح نهائياً من سم الثعبان.

ونام نوماً طويلاً ومرهقاً في الليلة الأولى التي قضاها في القرية، وفي اليوم التالي أخذه طريف إلى تلال المرتفعات، فالمغربي كان يملك قطيعاً مختلطاً من الغنم هناك، يرعاه له رجل عجوز وعدة أطفال صغار من القرية.

وكان إسم العجوز مزّاب. يعيش في مسكن مكون نصفه من خيمة مفتوحة، ونصفه الآخر من وتل مكون من قضبان مظفرة. ففرح بالزيادة وجلس عبد الرحمن وطريف معه مدة. ثم تركا السفانة والجواد يرعيان ويرتاحان هناك. وفي الأيام التي تلته قام طريف برعي القطيع والإعتناء به. فالغنم كانت مهيأة لجز صوفها، وأخذ البربر يجزون بعضها كل يوم بدون عجلة، وظهر على طريف السرور والاطمئنان بالرجوع إلى قومه مرة أخرى. لم يتكلم أبداً عن فقدان ابنه في الأيام التي قضاها في الأندلس: مثلما فعل في ليلة من الليالي ، ورغم ذلك ففي الليالي التي تلت كان عبد الرحمن يفيق على بكاء طريف في نومه فعرف أنه لم يجد الهدوء النفسي بعد.

أما بالنسبة لعبد الرحمن فإنه لم يجد راحة كبرى هناك. لقد شعر أنه مختفي لمدة قليلة في جب ودان وقلبه لم يطمئن فقد سئم الجسم والنفس وحتى النوم ولم تعد إليه حيويته، وغابت الفتاة الغالية عن شعوره. لكن ذكريات الحوراء كانت تتبعه دائماً، وكذلك ذكريات

الماضي تأتي له بأحلام مزعجة في نومه وحتى في يقظته. فكان يعين البربر أحياناً على جز الغنم، وأحياناً يعتني بالسفانة، وأحياناً أخرى يذهب للصيد بالرمح والقوس بين الصخور. فقتل مرتين الظباء، وأتى بها للأكل، وتبع عدة مرات الفهود لكنها هربت له بين الجروف.

ومر الأسبوع تلو الآخر واسترجعت السفانة بريقها، ومظهرها الجذاب، فكانت تلعب وتمرح وتعود، وتأكل كل يوم مع الجواد أرقم، حتى أهملت سيدها عبد الرحمن لقد كان ذلك وقت موسم تزاوج الخيل القصير.

ومع مرور الأيام أخذ قلق عبد الرحمن يزداد لعدم اتخاذه أي قرار، ووجد نفسه مرتبكاً بين البربر فهو يمكنه أن يؤمن طريفاً على حياته، ولكن ذلك الحاج المحارب كان فوق مستوى خوفه. فكان عبد الرحمن يرى بعض البربر يتطلعون إليه أنهم قيلوه بينهم كما فعل البدو في وادي السرحان، ربما كانت تخوفاته لا أساس لها، لكنه كان قلقاً.

ورغم ذلك كان قلقه من نفسه أقوى من عدم ثقته بالآخرين، فبعد أسبوع أو أسبوعين لم يشعر أنه وصل إلى حِمى في جبل ودان. كان شيء ما يحرك أنفاسه داخلة ويدفعه أن يتابع سفره ولم يكن يدري إلى أين.

ثم فجأة، وبطريقة محطمة تقرر له ذلك بدون إرادته.

ففي صباح أحد الأيام جاء طاهر ابن رئيس القرية بالخبر. جاء على صهوة فرس كستنائية، بسرعة كبيرة. وفوراً فتش على طريف، وبينما هو يقول الخبر للمغربي، وقعت عيناه على عبد الرحمن الذي لم يكن بعيداً. وكان في تصرفه يقترب من المغربي كأنه يقول سراً.

وعبرت قلب عبد الرحمن رعشة برد، لكنه خمن عن محتوى الرسالة التي أتى بها طاهر. وعندما أتى إليه طريف قاصداً، تأكد أن مصيره في يد المغربي. فقال طريف: « إن فرساناً كثيرين فرسان الوالي ابن حبيب اقتفوا آثارنا في الطريق التي اتينا منها إلى قرية قومي. يفتشون على حاج إسمه طريف، وعلى شاب عربي أتى معه من مصر، سيصلون إلى قرية قومي هذا الصباح».

فذهل عبد الرحمن، ولم يدر في تلك اللحظة كيف يفكر وماذا يقول؟ فتحقق أن البربر الذين ارتاب منهم قد بعثوا إليه الآن محذرين بالخطر.

وبدا كل ذلك كأنه خيال، ولم يظهر على وجه طريف التعجب، والروعة الزائدة، فخطر ببال عبد الرحمن من جديد أن المغربي كان يعرف كل شيء بطريقة أو بأخرى.

فتنهد وقال: « إنهم يفتشون عني». لكن المغربي أومأ برأسه بعطف قاطعاً باقي كلامه، ثم قال: «إئت بالفرس وحط عليها السرج».

فكانت السفانة في قعر هذا الوادي بقرب نقطة الماء. فصفر لها عبد الرحمن فرفعت رأسها، وأقبلت إليه تعدو والجواد يتبعها.

فقال لها عبد الرحمن: «الطريق من جديد يا عزيزة». وأخذ عدته من الخيمة الصغيرة، لم يكن يدري إلى اين سيذهب، لكن كان لا بد له أن يذهب.

وصهلت السفانة قليلاً، وضربت بقوائمها محتجة لوضع السرج عليها، بعد أن أخذت حريتها مدة اسبوعين، ولكنها وقفت مطيعة، وشعر عبد الرحمن بالألم يحز في قلبه لحتمية كل ذلك.

ثم لاحظ أن طريفاً لبس برنوسه، وحمل سيفه ، ونادى جواده فأتها وأحنى رأسه مستعداً للشكيمة. ورجع طريف إلى الخيمة، وأتى بقرب ماء وأكياس مؤونة وحربة طويلة. فسأل عبد الرحمن طريفاً إلى أين ستذهب؟».

فأجاب طريف: «معك».

فبهت عبد الرحمن. كان سيحتج بأن الجواد لم يكن مستعداً للسفر لأن قرحته لم تكن قد شفيت بعد. لكن طريفاً تكلم مع طاهر. فترجل الشاب البربري عن فرسه الكستنائي، ووضع طريف أكياس المؤونة على سرج الفرس.

ووقف طريف ليربت على ظهر جواده الملجم وقال: «هو أرقم ! كنت أود لو جئت معي»، ثم قبل عنق الجواد مودعاً، واستدار وركب الفرس الكستنائي وسأل عبد الرحمن قائلاً: «هل انت مستعد؟».

فركب عبد الرحمن السفانة وهو لا يزال مندهشاً لسرعة الأحداث، ومتسائلاً عما يريد طريف فعله.

ومن فوق رأسه، أعطى المغربي بعض الأوامر الأخيرة إلى الراعي العجوز، وإلى معينيه الشبان الذين أتو ينظرون، فقال: «عندما يأتي فرسان الوالي قل لهم إنني ذهبت مع الشاب على فرسينا لنصطاد الأسد. وأرهم الطرق الذي سلكناه،

ولا تقل لهم أى شيء من الإثار الذي وصلنا، لأن ذلك سيعني الموت لكل القرية!».

ثم قال لطاهر: «خذ جوادي واركب عليه بدون سرج، واذهب إلى القرية سالكاً طريقاً ملتوية، وإذا لم أرجع، فالجواد لك، وغنمي للقرية كلها.» فأومأ الشاب البربري برأسه بلطف وثقة في الدور الذي سيلعبه.

ووضع طريف حربته فوق سرجه، وقاد الطريق نازلاً إلى الوادي، بعيداً عن اتجاه القرية، ودفع عبد الرحمن بالسفانة وراءه. فرفصت الفرس البيضاء هنيهة واحتجت على ابتعادها عن الجواد، واحتج الجواد كذلك عندما رأى الفرس تذهب عنه. لكن الفتى طاهراً ضبطه باللجام.

ونزلا إلى الوادي عبر الغنم المتشتتة، ووقفا برهة صغيرة عند نقطة الماء ليملئا قربهما.

وعندما وصلا إلى نقطة الماء، سأل عبد الرحمن: «إلى أين ستذهب؟».

فهز طريف كتفيه وقال: «بعيداً عن هنا، ربما إلى قفار الحمادة الحمراء».

فأجاب عبد الرحمن : «وأنت؟ أضروري أن تذهب أنت كذلك؟» فهز طريف رأسه بتجهم وقال: «نعم، إنهم يلاحقونني أنا كذلك، ولا أريد أن يكون إثمي مصيبة على قريتي».

فرفع عبد الرحمن رأسه، ونظر بسرعة إلى المغربي ثم قال: « إذن كنت تعرف؟».

فأجاب طريف: «نعم، كنت أعرف، لقد تكلمت في نومك عندما كنت محموماً وسم الثعبان في جسمك. سمعت أنا والفتاة الغالية، لكنها لم تفهم ما قلت». فحاول عبد الرحمن أن يفكر فيما جرى وقال في نفسه: «إذن هكذا كانت الأشياء؟». ثم قال لطريف: «ربما سمع التاجر محمد علي هو كذلك. وأخبر الجنود عني ليتبعونني». فهز طريف رأسه وقال: «لا، لا أظن ذلك، فلقد منعتهم من الإقتراب من الخيمة عندما كنت نائماً، ولو كان كذلك لما خرجت من مصر قط. ومهما كانت الطريقة التي عرفوك بها فلا تهم، إنهم الآن يتبعوننا!».

وانقلب شعور عبد الرحمن إلى اليأس، وظهر له أنه سوف يهرب إلى سراب، وسيبقى أعداؤه دائماً وراء آثاره. ثم قال: لطريف: «وأنت لماذا ستأتي معي؟ فقومك هنا».

فنظر طريف إلى طرف الوادي في إتجاه القرية وقال: «لا لم يعد هذا موطني، لقد بقي بعيداً عنهم مدة طويلة، فلا موطن لي ولا قوماً». وظهر كأن المغربي قد رحب بأخذه للطريق من جديد. كانت نفسه تفتش عن السلام، لكنها لم تجده، في جبل ودان. كان لا يزال قوياً، لقد كان جندياً مدة طويلة لدرجة أنه لا يمكن أن يعود نفسه في أسابيع قلة على حياة قومه البسيطة. ومن ناحية أخرى شعر عبد الرحمن بمواساة خفيفة، عندما رأى أن طريفاً أراد أن يذهب لأسبابه الخاصة إلى حد ما. ولولا المغربي فلا مفر لعبد الرحمن، ورغم أوقات يأسه فقد كانت الحياة لا زالت ثمينة عنده.

وقال طريف: «سوف نتجه مباشرة إلى الحمادة الحمراء، فهناك فرصتنا لتضييعهم عنا». وكانت الحمادة الحمراء وهي نجد صخري مقفر، على بعد مائة ميل عنهما.

كان عبد الرحمن يفكر في الربع ساعة الأخيرة في شيء في ذهنه منذ زمن طويل. وقال للمغربي: « وبلاد المغرب، كم هي بعيدة عنا؟»

ونظر إليه طريف متسائلاً، ثم أشار بيده إلى الشمال الغربي وقال: «شمال الحمادة الحمراء، وراء أراضي برقة وطرابلس، هناك أراضي المغرب الشاسعة».

وقال عبد الرحمن: «وقبيلة زناتة، أين هي؟».

فأجاب طريف: «قبيلة زناتة؟ إن موطنهم على أطراف العرق الشرقي الكبير، في وسط الصحراء الكبرى نفسها، لماذ تسأل عن ذلك؟».

فأخذ عبد الرحمن يفكر بعيداً، وقال: «عندما كنت طفلاً صغيراً وكانت أمي على قيد الحياة، كلمتني عن زناتة كانت امرأة جميلة من تلك القبيلة، أتت بها الجيوش الإسلامية الأولى التي عبرت إفريقية. قالت لي: «إنك إذا وصلت أرض زناتة، يوماً فلا تنس أن تخبرهم عني، وعندئذ سيرحب بك أهل زناة كواحد منهم».

فأجاب طريف متعجباً: «أمك زناتة؟ دماؤهم تجري في عروقك؟».

وشعر عبد الرحمن كأن الأمل يرجع إليه عندما رأى تعجب طريف، وتابع طريف قائلاً: «إن زناتة أشجع أقوام بلاد المغرب، فقبيلتهم قوية، وسيحمون أبنائهم!» فألح عبد الرحمن قائلاً: « أرني الطريق إلى أرضهم واتركني أذهب إليهم، ففرسان الوالي سوف

يلحقون بي، وفي الوقت المناسب يمكنك أن ترجع إلى قومك».

لكن طريفاً هز رأسه وقال: «لا يمكنني أن أعود إلى قومي أبداً، ولا يهمني ذلك على أي حال. فسفرنا طويل. وسنتجه إلى أرض زناتة».

فسأله عبد الرحمن قائلاً: « ولماذا تخاطر بنفسك من أجلي؟».

لقد شعر بحقارته أمام كرامة نفس هذا الرجل.

وتنهد المغربي، واكفهر وجهه بسبب توبيخ النفس الذي كان يغزو ضميره وقال: «لأنني منذ زمن بعيد وقفت ويدي فوق مقبض سيفي وأنا أرى طفلاً اسمه الأربوط يدفع به من أعلى البرج في سبتة وأنا أرى. فمنذ ذلك الوقت والله يسيرني، أريد أن أرتاح ».

ثم ركبا الفرسين وأخذا طريقهما في الوادي، في اتجاه الغرب.

وبعد العصر وهما يتسلقان تلال جبل المشرق في غرب واحة الجفرة، رأيا فصيلة من حوالي خمسين فارساً وراءهما في المنخفض. كان الفرسان لا يزالون بعيدين عنهما، لكن لم يكن هناك شك في هويتهم وغايتهم. ودفع المنظر المرعب بالهاربين إلى أن يتابعا السفر طيلة الليل.

سيف الموت

«في الصباح وفي الغروب. . . الفرس الأبيض تجري . . . والسيف وراءها!».

وسافر الهاربان عبر الوادي ظهراً. عبر الشعاب الصخرية، وعبر الوهاد الفسيحة النائية.

ودائماً كان هناك جبل آخر أمامهما، ودائماً سيف الموت يتبعهما بدون شفقة. وبسبب معرفة طريف بالطرق والممرات استطاعا أن يسبقا مطارديهما فضاعا عنهم مدة وجيزة.

كان طريف يعرف أن الفرسان لا يزالون وراءهم، ولهذا لم يمكنهما أن يتأنيا، حاولا أن يتجنبا القرى القليلة. التي يجدانها في طريقهما، لكن الرعاة رأوهما. واضطرا أن يقفا مرتين من أجل الطعام والماء.

وكانا لا يزالان بعيدين عن مطارديهما في اليوم السادس عندما وصلا إلى بئر يقال لها بئر زوارة. فسارا في إقليم طرابلس، تلوح أمامهما الحمادة الحمراء كجبل عارٍ من الحجر الصلد. لم يكن ذلك إلا طرفاً صغيراً من تلك المنطقة الفسيحة في الشمال الشرقي منها، لكنها ظهرت متناهية للبصر. فملأ قرابهما من البئر، ثم غطسا في المتاهات الصخرية. وفي ناحية ما بعيداً أمامهما، كانت تقع بلاد المغرب وأرض زناتة.

فقضيا خمسة أيام أخرى على طريق الحمادة الحمراء، ذلك النجد الصخري، العديم الطرق، الذي يشبه موقد فرن.

وترجلا عدة مرات، ومشيا أمام فرسيهما لأن منحدرات الحمادة الملساء الحامية، كانت غادرة في حوافير الفرسين المصفحة.

وفي آخر اليوم الخامس خرج المسافران من طرف الحمادة الشمالي منهكي القوى ومتألمي الأرجل. وظهرت صخور الحمادة أمامهما كالحائط على ارتفاع ثمانمائة قدم أو أكثر منحدرة إلى أودية عظمية وملتوية. كانت تظهر أعماق تلك الوهاد من بعيد كأنها تضم أنهاراً ملتوية.

أنهاراً من الرمل الأبيض اللون. وكانت الأرض قاحلة، لا شجر فيها، ولكن أسوأ منطقة في الحمادة تركاها وراءهما. ونزلا إلى المنخفض ، وقربت كمية الماء التي معهما من الانتهاء.

ففي اليوم التالي وصلا إلى قرية صغيرة تسمى الجوش. فقابلهما بربر تلك المنطقة المقفرة الأشداء، بالماء والطعام والمأوى. كصدقة في سبيل الله.

وقال طريف لعبد الرحمن: «سنمكث هنا يوماً واحداً نعطي فيه الفرسين فرصة قصيرة للراحة، سوف يمضي رجال الوالي وقتاً أطول من ذلك لاقتفاء آثارنا عبر الحمادة، ولن يعرفوا من أين خرجنا منها».

وكان طريف مصيباً فيما قال عن مطارديهما. فلقد ضاع أثرهما عن رجال الوالي، فهم عرفوا اتجاه هربهما بصفة عامة، لا أكثر من ذلك، لكنه لم يكن يعرف أنه كانت لرئيس الكتيبة حمام زاجل تابع لحامية مسراتة على الساحل، فعندما ضاع عنه الهاربان في الحمادة

بعث ذلك الرسول الطائر برسالة.

ويمكن لذلك الطير أن يطير المسافة من هناك إلى مسراتة أو أكثر في يوم واحد، في الوقت الذي لا يمكن للفارس أن يعبر تلك المسافة الطويلة إلا في أسبوع.

ومن هناك ذهبت حمامة أخرى حاملة رسالة أخرى نحو الغرب. إلى حامية زوارة، على البحر شمال الحمادة الحمراء. وخرجت من زوارة كتية أخرى من الفرسان تفتش عن الطريدة. فكان سيف الموت المنسل ذا حدين!

وعامل بربر الجيش المسافرين بمودة، وأجابوهما على أسئلتهما عن أرض زناتة؟ فأشاروا إلى الغرب قليلاً إلى الشمال. وقالوا: إن عبر الجبال وكثيبات الرمل الكبيرة في الصحراء، توجد «تاهرت» عاصمة زناتة الشهيرة.

فشهرة تلك القبيلة العسكرية شاعت حتى وصلت إلى هذه القرية النائية، كانت الأميال لا زالت كثيرة للوصول إلى أرضهم، وأعطى الله القوة للمسافر والفرس في هذا السفر الطويل!

وهكذا غادر طريف وعبد الرحمن الجوش متجهين نحو الغرب، فركبا جوادين اشترياهما من البربر وقادا فرسيهما.

وفي الجبال، في مكان يقال له الذهبيات، وصلا إلى طريق التجارة القديمة التي تتجه نحو الشمال عبر الصحراء السفلى، إلى قابس على البحر. وخاطر طريف بكل جرأة. فلقد كانا متقدمين عن مطارديهما ولهما زيادة من الأفراس فلم يعد يحاول أن يخفي آثارهما. أهم شيء صار هو السرعة والجرأة، وأحسن طريق هي الطريق الرئيسية. فوقفا في الذهبيات لتغيير صفائح الأفراس ثم تابعا طريقهما، ومرت في الطريق محلات غريبة وجديدة كالحلم في ذهن عبد الرحمن: الذهبيات، بئر الشويش، فطناسية. وأكثر من مرة عضت السفانة بقوة الجوادين، لأنها غارت عندما رأت عبد الرحمن قد اختار أحدهما دونها للركوب عليه. وفي كل مرة يربت عليها عبد الرحمن ويطمئنها قائلاً: «هذا لا يعني أن قيمتك نزلت عندي يا عزيزة، أريد أن أحتفظ بك للحاجة. وإذا جاءت الحاجة فليس هناك احد يمكن أن أثق به غيرك».

ومع ذلك ظهر أن تلك الحاجة لم تأت أبداً. فكل يوم من السفر يقربهما إلى هدفهما، وعندما كانا ينظران وراءهما لم يريا أي أثر لمطارديهما فظهر لهما أنهما من المتأكد قد ضاعا عن رجال الوالي فوق الحمادة.

وتركا الطريق الرئيسية في اليوم الخامس من دخولهما إلى المنطقة الجبلية لأنها كانت تؤدي إلى الشمال إلى المناطق المأهولة على البحر، وطريقهما كانت نحو الغرب من جديد. وكانت تاهرت على بعد مائتي ميل منهما المسافة التي يقطعها الطائر.

وتاهرت هي أهم قرية من قرى زناتة، على طرف الصحراء الكبرى الشمالي، فبسفرهما عبر الجبال نحو الشمال، قد تجنبا عبور العرق الشرقي الكبير، تلك المنطقة الرملية الرهيبة.

وتقدما عبر ممر ضيق في الجبال جنوب تطاوين. وانفتحت الجبال على سهل منبسط إلى الأفق تحت سماء زرقاء. وعلى بعد، ظهر ميدان أبيض معلق في الهواء كسحابة طويلة منبطحة ملتصقة في الأفق . لم يكن ذلك سحابة رغم أن مكانها ظهر كأنه في محل السحب، وظهر أن هناك بركة ماء وأشجار نخل بعيدة نابتة في أحد أطرافها .

وقال طريف مؤكداً تخمين عبد الرحمن: «إن ذلك سراب، سراب الشاطئ ! فتلك المساحات الشاسعة من الملح مبعثرة في كل هذه المنطقة. هدفنا لا زال بعيداً. ولكن هذه بداية أرض المغرب!».

ويعني طريف بكلامه أنهما كانا يرون في السماء صور مكان حقيقي يوجد على بعد بضعة أميال منهما.

كان ذلك علامة على الطريق إلى هدفهما.

وعندما نزلا إلى السهل رأيا علامة أخرى كذلك. فوراءهما نظرا إلى عمود طويل من الدخان الأسود يصعد في السماء. فوق المرتفعات الصخرية. كان العمود أسوداً كثيفاً، وفي مكانٍ عالٍ ظاهر للعيان ، وهو لا يمكن أن يكون إلا علامة على شيء ما، ونظر طريف إلى ذلك العمود الدخاني وهو لا يصدق عينيه وقال: «أهذه علامة عنا؟ لم نر أحداً في طريقنا».

تلك العلامة كانت لغزاً وكلاهما شعر بأنها تعنيه.

فأخذا يتقدمان بسرعة أكبر فوق السهل. وقال طريف حينئذ بوجه متجهم : «يجب أن نكون سعداء أن لنا أفراساً زائدة».

وكانت الطريق طريقاً مستعملة ومنبسطة وعليها علامات هنا وهناك مكونة من أكوام الحجر. لقد كانت سهلة الاتباع .

وعندما توقفا تلك الليلة، نقلا السرجين من على ظهر الجوادين إلى ظهر الفرسين. وانبطح الجوادين على الأرض للنوم، أما الفرسان فقد ناما على قوائمهما كما تفعل الخيل.

ولم يستطع عبد الرحمن أن يغمض عينيه. لا شك أنه كان منهكاً، لكن الغريب أنه لم يشعر بالتعب إلا قليلاً. وأحس كأن جسمه مخدر، وكان الليل طويلاً وفسيحاً وفارغاً، فراقب عبد الرحمن كل مساحاته وهي تمر، وهو جاثم قرب السفانة. يغمض عينيه أحياناً، لكنه لم ينم. وأخيراً أخذ الشفق يظهر في الشرق . وطلع الفجر بكل برودته، وتقدما للسفر من جديد .

وركبا الجوادين مرة أخرى وقادا الفرسين. كانت الطريق منبسطة سهلة الأتباع، ولم تظهر بعد آثار المتابعة وراءهما، وفي الضحى وصلا إلى قرية بربرية صغيرة تسمى قصر «إغلان» والصحراء تومض تحت أشعة شمس الظهرالمحرقة، وسراب بحيرات أثيرية، وبساتين تمر معلقة حولهما في الأفق. وسافرا كل النهار عبر تلك القفار، ولم يريا أي مسافر آخر غيرهما. وكانت العلامات المكونة من أكوام الأحجار متباعدة. لكن طريفاً كانت له تلك الحاسة التي لرجال الصحراء في معرفة طريقهم. وعندما أخذت الشمس تميل نحو

الغرب، نزلا من أعلى جرف طويل من الرمل، حيث انبسط فيه كل مستوى الأرض حولهما. وفي أسفل الجرف وجدا بناءً صغيراً من الحجر مهدماً ، فقال طريف: « بئر إبراهيم! هناك بئر. قال لي ذلك القرويون».

لا شك أن الخيل قد شعرت بقرب الماء لأن الفرسين أخذا يصهلان باهتمام ، بينما رفع الجوادان رأسهما المنحني، وتقدما نحو الماء، وصهل الأفراس من جديد، وفجأة أجابهما صهيل آخر من البناء الذي كان يبدو أمامهما خالياً. فتوقف المسافران لتوهما، وسحب عبد الرحمن فوراً السفانة بقرب الجواد بينما أخرج طريف حربته الطويلة من على ظهره.

ووقفا في لحظة من المفاجأة والشك. فقد خرج الفرسان من وراء البناء وتقدموا نحوهما مباشرة. فقفز عبد الرحمن بخفة فوق ظهر السفانة، مستعداً لهرب يائس. وتوقع أن يفعل طريف كذلك ويقفز على ظهر الفرس الأخرى.

ووثبت السفانة إلى الأمام، عندما شعرت بعبد الرحمن فوقها. وتقدمت إلى دائرة واسعة كأنها تريد أن تتجنب الفرسين الهاجمين نحوهما. وكان عددهم لا يزيد على الثلاثة.

فتقدمهم رجل يحمل حربة تحت ذراعه. وفي قبضتها علم أسود يرفرف في الهواء .ولها رأس حديدي. وانحرف هذا بفرسه محاولاً التعرض لعبد الرحمن. كان وجهه مشتعلاً بضراوة وانفعال شديد. . كان داخل تلك الدائرة الواسعة اليائسة التي حاول عبد الرحمن أ ن يمر منها ويصيح: «أقتل! أقتل! ».

وهو يحاول أن يتعرض لعبد الرحمن انحرف بقرب طريف، وعندما مر قبالته وقف طريف فوق السرج وقذف بحربته كأنها رمح، فكان هجوم الفارس الوحشي هجوماً نحو حتفه. فاندفع بقوة في طريق الرمح. فارتطم الرمح الثقيل في طرفه تحت إبطه واخترقت جسمه كله. فتراجع جواده بقوة ووقع قبالة عبد الرحمن وهو لا يزال يقبض اللجام في يده.

وتقدم الفارسان الأخران هاجمين على البربري سالّين سيفهما، ولم يكن لطريف وقت إلا ليسل سيفه، فانعطف عبد الرحمن فجأة بفرسه إلى ميدان المعركة، وبريق الحديد، وأحاط الفارسان بطريف من وجهتين.

فذهبت عن عبد الرحمن كل فكرة عن الهرب نهائياً، وتصرف بطريقة غريزية لإنقاذ صديقه. فوكز السفانة بعقبي قدمه وقفز وسط المعركة والسيف مسلول في ديه.

وظهرت حالة طريف يائسة فجواده كان منهكاً ولا قدرة له على الاستجابة لأوامر سيده بركبتيه ويده.

وضايق طريف واحد من عدويه من اليمين يضرب بسيفه، بينما أتى الثاني من يساره، وضربه من خلفه بكل جبن، فاندفع عبد الرحمن لإعانة صديقه. لكنه جفل لرؤية السيف وهو يضرب كتف المغربي وظهره.

ولم تكن للهاجم فرصة للقيام بضربة ثانية لأن عبد الرحمن كان فوقه، ولم يستطع

الرجل الدفاع عن نفسه لسرعة تقدم السفانة. فتقدمت الفرس كالبرق على بعد شبر من الجواد الآخر وكان عبد الرحمن مستعداً لضربة قاضية. فضرب سيفه لحم العدو، وسبب له زخم السفانة جرحاً قاضياً.

ودارت السفانة بعد اندفاعها، كأنها كلب سلوقي في خفتها، فانقض عبد الرحمن على عدوه الجريح مرة ثانية، قبل أن يجد الوقت ليدير وجهه. وهذه المرة كانت الضربة متوجهة إلى يد العدو غير المستعدة لمواجهته. ولم تكن هناك شفقة، فضرب عبد الرحمن مرة واحدة وقضى على الحارس الضعيف. ثم هاجم بقوة العدو الآخر الذي وقع سيفه من يده. وكان عبد الرحمن يركب على السفانة بدون سرج فكاد أن يفقد سيفه في دورانه.

وقبل أن يقع عدوه نهائياً، قاد عبد الرحمن السفانة حول الجواد المصاب، نحو طريف. كان شديد القلق عليه فذلك الجانب من المعركة كان قد انقضى بدونه. واطمأن قلبه وارتاح عندما رأى البربري لا زال فوق فرسه، بينما عدوهما الأخير ملقى فوق سرجه الدامي يحتضر. ثم ضعفت قبضة العدو على اللجام ووقع على الرمل. وهكذا انتهت المعركة. لم يبق إلا الخيل بعيونها الوحشية المفزوعة.

وأول فكرة مرت بذهن عبد الرحمن أنه ربما هناك أعداء آخرون حولهما، فظل قابضاً على سيفه المسلول، بينما السفانة ترقص تحته بشدة، وهي تشعر باضطرابه، وتستعد لأي أمر منه، ثم وقع بصره على طريف، فنسي كل شيء سواه.

فالبربري كان مجروحاً جرحاً مثخناً فمال إلى الأمام بضعف على عنق جواده ولباسه فوق ظهره، ثم ترجل واعان طريفاً على النزول، فنزل طريف ثقيلاً بدون قوة، وهو يلهث من شدة الألم فوضعه عبد الرحمن على الرمل.

وانشقت ملابس طريف فوق ظهره وعلى عنقه ونزع عبد الرحمن برنوسه ووضعه تحت جانبه المجروح، واخذ لباس طريف، وأكمل تمزيقه حيث انشق كاشفاً لحمه. فاخذت اسنانه تصطك لذلك المنظر: لقد ظهر أمامه جرح واسع مرعب يمتد من جانب عنق البربري الأيسر إلى تحت كتفه ورأى ظهره. كان الجرح ينزف بشدة.

وعرف عبد الرحمن انه لا يمكن لرجل أن يعيش بعد ضياع هذا الدم كله منه، فحاول أن يلصق شقي الجرح بيده، أو يعمل أي شيء ليوقف النزيف، ثم حاول أن يفعل ذلك بالبرنوس الطويل فنجح في ربطه حول صدر طريف بيد مرتعدة، مرتين ثم ربطه بشدة، ولم يكن بالإمكان ان يفعل أكثر من ذلك. فالمغربي يموت تحت عينيه. واخذ طريف يتنفس بصعوبة وبطء فرفع عينيه إلى وجه عبد الرحمن، وتحرك جسمه قائلاً: «لم أقف متفرجاً والسيف في يدي هذه المرة».

ثم أغمض عينيه وتمتم بصوت خافت كأنه ينادي أحداً : يوسف! يوسف!» ففكر عبد الرحمن في الحين في ابن المعربي الذي مات مقتولاً سنين مضت في الأندلس. ومرت الدقائق مع دقات القلب، وكل لحظة تمر، كانت تأخذ معها شيئاً من حياة المغربي، وشعر عبد الرحمن شعوراً مريراً بعجزه أمام القدر، وفجاة فكر في الماء، وأراد أن يأتي بماء، لكنه

عندما أخذ يتحرك ليقوم، انفتحت عينا طريف، وكان نظره هادئاً كأنه غارق في الخيال.

وقال المغربي بصوت ضعيف: «سأصلي، ومسح بيديه متيمماً، لكن قوته خانته بهذا الإجهاد، وذهبت الحياة عن جسمه، فأغمض عينيه، ونزل نور السلام على وجهه.

ووقف عبد الرحمن ينظر إلى جثة صديقه وشعر بالأسى والألم يعصر قلبه. وقفار الصحراء الشاسعة تحتضنه. وزاد المنظرقساوة، وجود جثث أعداءه حوله.

حتى الخيل العديدة الركاب الواقفة بكل إهمال زادته غربةً في الزمان والمكان. ثم تقدمت السفانة إلى جانب عبد الرحمن تفتش عن صداقته فشعلت في نفسه بوجودها شرارة من شيء ما يمكن أن يسمى الأمل، فقال لها: «نعم، يا عزيزتي - هناك أشياء يجب أن نقوم بها» وأخذ الليل يرخي سدوله.

فتنبه عبد الرحمن إلى وجود جواد آخر يظهر وراء النباء الخالي من جديد، لكن البهيمة كانت بدون سرج ولا راكب فتقدم نحو النباء لتفحصه وهو يمسك بالسفانة مستعداً. فوجد وراء النباء فرسين آخرين بدون فرسان، كان يظهر عليهما الإجهاد الكبير من تعب السفر.

ثم فهم القصة، فالرجال الثلاثة الذين هاجموه هو وطريفاً كان لكل واحد منهم جوادان، وهذا هو السبب الذي جعلهم يتقدمون بسرعة ويصلون إلى هذا المكان منتظرين قدومهما، وكانت آثارهم ظاهرة على الرمل على يمين الطريق، لا شك أن علامة الدخان كانت إنذاراً لهما، ولا شك أن فرساناً آخرين سيلتحقون بهما. فيجب أن يقوم بعمله بسرعة ويذهب.

ورجع إلى طريف، وكان الظلام قد خيم والسفانة تتبعه عن قرب، فحمل جسم المغربي فوق ذراعيه وذهب بعيداً عن الطريق، وحفر بسيف طريف قبراً ضحلاً في الرمل. ووضع المغربي فيه، ووجهه متجه نحو مكة. وإلى أرضه كذلك حسب ما أمكنه أن يخمن الاتجاه.

وأخذ الرمل في ذلك الليل وتيمم به للصلاة، ثم توجه نحو الكعبة، وكانت النجوم قد ظهرت في السماء فأخذ يصلي صلاة المغرب عوضاً عن طريف الذي نواها ولم ينفذها وقال: «الله اكبر، الله أكبر، أشهد أن لا اله إلا الله . . . ».

وهو يصلي تقدمت وراءه عدة أفراس كأنهم يبحثون على يد وصوت رجل ليهدئ روعهم، في تلك القفار، وكانت تلك الجياد الشهود على دفن المغربي.

وعندما انتهى عبد الرحمن من صلاته، بسط يديه ورفع وجهه نحو السماء المليئة بالنجوم، وصاح بدعاء من أعماق قلبه متوجهاً إلى الله: يا رب اجعله يجد ابنه، واجعلهما تحت رعايتك في جنة الخلد».

وغطى وجه المغربي بعمامته، ثم واراه الثرى. وأخيراً عندما انتهى من دفن صديقه، وقف وسط الليل وقد شعر بوحشة لا نهائية تغمره.

الشاطئ

كان الليل مضائاً بضوء النجوم كما هي ليالي الصحراء عادة. ورجع عبد الرحمن إلى البناء المهجور. وكان تقريباً بدون سطح، ولذلك كان الضوء كافياً داخل البناء لكي يرى ما حوله. فتحرك باحتياط ووجد البئر ودلواً من الجلد وحبلاً. فسقى السفانة وفرس طريف الكستنائية، وملأ القرب مرة أخرى.

واقتربت منه باقي الخيل عندما أحست بوجود الماء، وكذلك من أجل حاجتها الغريزية للإنسان، وتوقف عبد الرحمن عدة مرات لينصت إلى مصدر الصوت وهو يتخيل أن مطارديه يقتربون منه باختلاس. في الظلام، ولكن لم تكن إلا حركة الخيل بدون فرسان خارج البناء. ورغم ذلك كان الخوف في نفسه يضطهده.

فحول السرج إلى ظهر السفانة، وأخذ القرب وبعض المؤونة لنفسه وللفرسين، وابتعد للذهاب، ورغم ذلك شعر أنه لا يمكن الذهاب هكذا، فلم تسمح له نفسه أن يترك الأفراس الأخرى بدون عناية.

فرجع إلى تلك الخيل وأزال عن ظهورها السروج وذهب للبئر وأخرج منها الماء لكي تشرب، وبينما هو يتحرك في البناء، أدرك أنه إذا جاء أعداؤه سيجد نفسه في فخ في ذلك البناء. حتى أفكاره حول الأموات الثلاثة المطروحين فوق الرمل خارج البناء، ملأت قلبه بالتهديد بطريقة غريبة. ورغم كل هذه الأفكار تمالك وبقي في البناء وجلب الماء للخيل.

وأخيراً انتهى من ذلك وركب السفانة من جديد. وقبض بلجام الفرس الكستنائية وكانت الطريق أمامه تذهب إلى الغرب وقليلاً إلى الشمال خارج الصحراء. فأخذ تلك الطريق من جديد بالفرسين. وأخذت الخيل الأخرى تتحرك تريد أن تتبعه، لكنه نهرها بكلمات قوية وجعلها تبتعد عنه. وترك تلك الخيل واقفة بقرب بناء البئر. وترك كذلك جثث الأعداء حيث وقعوا، لم يدفن إلا طريفاً بعيداً عن الطريق.

وتقدم حوالي اثني عشر ميلاً في الظلام، كانت الصحراء مضاءة بالنجوم القريبة، والطريق معلمة بآثار المسافرين قبله. وبعد منتصف الليل. عندما سار برج الجوزاء الكبير في سمت السماء، توقف عبد الرحمن عن السير.

وانسحب بضع مئات من الأقدام بعيداً عن الطريق. وحول السرج إلى الفرس الكستنائية وأمضى باقي الليل هناك. ونام الفرسان على قوائمهما مرة أخرى، بينما جثم عبد الرحمن بقربهما، وهذه الليلة كذلك لم ينم.

واغمض عينيه عدة مرات، ولكن فكره رفض أن يهدأ، كان لم يعد له شعور بالتعب، ولم يحس بجسمه كأنه مخدر، وفي حالة من الذهول تشبه النوم. وكانت النجوم العظيمة: رجل الجبار، ومنكب الجوزاء، والدبران، تتحرك بعيداً إلى الغرب في جريانها وهو يتأمل،

وأخيراً ذهب الليل وجاء الصباح وأشرقت الشمس وصار على الطريق من جديد.

ركب عبد الرحمن الفرس الكستنائية مدخراً السفانة أكثر ما يمكن. ففي داخله كان يشعر دائماً أنه لا يزال يحتاج إلى أحسن ما يمكن أن يعطيه فرس ما في وقت من الأوقات، وأراد أن تكون السفانة جاهزة عند ذلك. فمهما كانت نتيجة السباق فسينتهي هو والسفانة معاً.

واخذ السراب يتحرك أمامه بكل أشكاله: بحيرات وقوافل وبساتين من النخل وعدة مرات لم يستطع أن يميز هل ذلك وهم ضوئي أم وهم في مخيلته. وقبل أن ينقضي الصباح، التقى مرتين بجماعة من المسافرين وهي تتحرك نحوه في الطريق، وفي كل مرة كان يتقدم بحذر مستعداً للفرار. وكل مرة يكتشف أن تلك الجماعة لم تكن إلا قافلة صغيرة متوجهة إلى الناحية التي أتى منها.

فسلم عليهم. وكان جوابهم: «متولم» ناظرين باستغراب إلى الفرسين المنهوكين بالطريق، وإلى الراكب المنهك ذي العينين الحمراوين.

فقال لهم: «زناتة!» وفهموا عنه، فتلك الكلمة كانت كلمة سحرية في تلك المناطق. فأشاروا له نحو الغرب، وأفهموه بحركات أن المسافة تساوي ثلاثة أيام من السفر. وقالوا له بلغة عربية متكسرة، إن واحة وأرض نفزاوة ليست بعيدة أمامه، وأنه يمكنه الوصول إليها اليوم.

وتوقف في وهج الظهر للراحة تحت صخرة كبيرة، وأطعم الفرسين. أما هو فلم يأخذ إلا الماء وبعض حبات من التمر، ومالت الشمس نحو الغرب، وتوسع ظل الصخرة وعبد الرحمن ينظر عبر الرمل الومض وقع في خيال أسود كأنه غفوة.

وأيقظته السفانة. وعرف بنغمة صهيلها وقلق رأسها. واتجاه نظرها أنه حدث ما كان يخاف منه.

كانت سحابة من الغبار تتقدم على الطريق وراءه. وعلى رأسها فرسان لا يزالون على بضعة أميال منه، لكنه عرف أنهم ليسوا مجرد مسافرين. فهم رجال الوالي أو الخليفة، جاءوا يفتشون عنه! لقد وجدوا جثث الأموات بقرب البئر والتقوا بالقافلتين على الطريق، وهكذا عرفوا أن طريدتهم ليست بعيدة أمامهم.

وكانت أول حركة قام بها، هي القفز على ظهر السفانة، والعدو على الطريق، فكر لحظة، وأدرك أن هدفه لا زال بعيداً. فسوف يحتاج إلى كل ما يمكنه أن يأخذه من كلا الفرسين قبل أن ينتهي السباق. فتحول إلى الفرس الكستنائية، واتجه على الطريق نحو الغرب قائداً السفانة.

ونفخ في بوق بصوت رخيم من بعيد لقد رأوه، فأخذ يتخيلهم يجلدون جيادهم عند رؤية طريدتهم، فدفع بالفرس الكستنائية للعدو. وفر عبر الصحراء نحو مغرب الشمس.

وتبعوه كل ذلك العشي عبر الرمال المنتشرة، لم يكونوا إلا على ميلين أو ثلاثة وراءه،

كان خلفه الرجال والفرسان يثيرون الغبار، في طريقهم، غبار مشؤوم كأنه عاصفة.

وطاردوه كل العشي، وصار صعباً على الفرس الكستنائية أن تحتفظ بتقدمها، رغم ذلك كان بصر عبد الرحمن لا يزول عن السفانة التي كانت تعدو إلى جانبه، فعليها يعلق كل آماله في الهرب، وكانت الفرس الثانية تعدو بخطى متواصلة، ولا نهائية ودقات حوافرها كأنها إيقاع ساحر.

وعندما أخذت الشمس تغيب وراء خط الأفق في نهاية اليوم الطويل، رأى عبد الرحمن فجأة نخيلاً عبر أشعة الشمس، وانطلقت الخيام على سلسة تلال مطلة على وادي، وحولها الخيل والجمال والماعز ووراء كل ذلك رأى وميضاً ينبثق عن مساحات بيضاء كأنه بحر مزبد.

«أهذه أرض زناتة؟» هكذا أخذ عبد الرحمن يتساءل مع نفسه وهو ينحدر عبر نصف الميل الأخير نحو الخيام. ولم يصدق ذلك في قرارة نفسه لكنه عندما تقدم بين تلك الخيام، ولم يصدق ذلك في قرارة نفسه. لكنه عندما تقدم بين تلك الخيام واجتمع حوله الرجال والنساء والأطفال ينظرون إليه، حاول أن يتشبث بأمل أن يكون ذلك منتهى السفر.

وتوقفت الفرس الكستنائية بقوة حتى انتفخ جنباها حيث أمرها بالوقوف، وأحنت رأسها تجاهه من أجل التنفس، وجسمها يرتعش كله، فنزل عن ظهرها واستقام بإجهاد مؤلم.

وقال إلى الوجوه الغريبة المستديرة حوله: «السلام عليكم؟» فبهت أهل الواحة في الشاب الغريب المجهد من السفر، الهائج الشكل، الذي سافر على فرس حتى كاد يقتلها.

فأجاب رجل باللغة العربية: «سلام» ربما كان ذلك الرجل رئيس المخيم. فقال له عبد الرحمن: «تاهرت! أريد تاهرت وزناتة».

فتقدم الرجل عن الآخرين وأشار إلى الغرب حيث كان يغيب آخر طرف من الشمس. وقال: «ان تاهرت وأرض زناتة تقعان مباشرة عبر شاطئ الجريد!».

وفي تلك اللحظة نفخ في البوق مرة أخرى فوق كثيبات الرمل من الإتجاه الغربي الذي أتى عبد الرحمن منه، وظهر غبار ملاحقي عبد الرحمن، كأنه علم منتشر فوق الرجال الذين لم يروا بعد.

وأزال عبد الرحمن السرج بسرعة عن ظهر الفرس الكستنائية ووضعه على ظهر السفانة وشده بقوة ثم رمى بقربة نصف مملوءة بالماء على ظهرها وكانت الشكيمة في فمها فقفز على السرج وأرخى لها العنان.

وصاح لرئيس المخيم. وهو يشير إلى الفرس الكستنائية المنهكة: «احتفظ لي بفرسي» ثم انفجرت دائرة المتفرجين حوله وهو يضرب بعقبيه السفانة فاندفعت الفرس الشامية مسرعة نحو الغرب حيث غابت الشمس لم يرفع رجل يده ليوقفه أو يعيق سيره.

وعبر عبد الرحمن والسفانة الواحة الفسيحة والخيام المتناثرة، وبساتين التمر، والجمال والخيل المتجمعة للمساء ونظر فلم ير مطارديه خارج النخيل بعد.

ووصل إلى بركة ماء حيث كان قطيع من الجمال يشرب تحت رعاية بعض شبان من البربر. فأوقف السفانة والتفت وراءه مرة أخرى: فلم ير أحداً من مطارديه.

فأخذ الفرس إلى طرف البركة وتركها تشرب بقرب البربر المندهشين وقال: «باسم الله» ،ولم يتركها تشرب في الأول إلا قليلاً من الماء ثم ترجل وشرب هو كذلك وملأ قربته، ثم استدار حوله مرة تلو الأخرى، وترك السفانة تشرب من جديد كمية كافية. وفجأة رأى حركة بين النخيل البعيد ورأى الفرسان يأتون عبر الواحة. فوضع القربة المملوءة فوق السرج وقفز على ظهر السفانة واستأنف فراره عدواً. وبهت البربر فيه. حتى الجمال الغبية، رفعت عنقها الطويلة لتنظر إلى فراره بشيء من الاستغراب.

وانفتح بستان النخيل على حديقة صغيرة وعلى موضع مغروس بأشجار السرو، ثم انتهت الواحة فجأة وانتهت رمال الصحراء. وانفتحت أمامه مساحات الشاطئ البيضاء ، ذلك البحر الداخلي الذي جف في غابر الأزمان.

فتزلت السفانة على منحدر قصير بين أعشاب الدرن، ثم صار قعر البحر المنبسط الصلب تحت حوافرها. فكان كميدان سباق جاف ومتماسك، يوشك أن يكون مثالياً للعدو. وانتشرت تلك المساحة المخططة برواسب الملح الأبيض إلى مد البصر، نحو الغرب المتوهج. وكانت أرض زناتة عبرها في ذلك الإتجاه على بعد خمسين ميلاً أو أكثر، ذلك كان مقصد عبد الرحمن.

واستقبلت السفانة المساحة الصلبة تحت حوافرها بشيء من الفرح والنشاط لقد ارادت أن تعدو مرتاحة من رمال الصحراء. كانت وكأنها لم يمر عليها قط ألف ميل، من المسافات المرهقة في الحرارة، والعطش، كانت وكأن تعب ومشقة تلك الأيام وحتى هذا اليوم الأخير. لم تمر عليها قط.

وانحنى عبد الرحمن على جيدها وقبلها وقال لها: «ياجوهرتي ! ياجوهرتي» لو كنت في أول نشاطك لتركتهم كما يترك السهم القوس. ولكن ليحدث ما يحدث سنبقى سوياً أنا وأنت».

وفتح حزامه حيث يتدلى سيفه الأحدب الثقيل، ورماه على الطريق، وطرح خنجره كذلك فسيكون عديم الفائدة محاولته أن يقاتل على أي حال وحمايته الوحيدة صارت في سرعة وثبات فرسه. وعدا حوالي ميلين فوق الشاطئ قبل أن يرى أعداءه من جديد فظن أنه رآهم ينزلون عن الواحة إلى قعر الشاطئ وراءه وأخذ الليل يخيم على تلك المنخفضات، فلم يمكنه ان يميز إلا الحركة وليس الأشكال كانوا وراءه من جدد لأنه سمع نفخ البوق مرة أخرى ينادي عصاباتهم المشتتة.

لقد كانوا أقرب منه عندما ترك الواحة ربما توقفوا هناك ليغيروا خيلهم ويأخذوا ما أرادوا باسم الخليفة: أفراس جدد ضد فرس انهكتها شهور من السفر.» يا سفانة، التي لا يضاهيك فرس هذه الليلة ليلة اختبار عظمتك!.

ورسخت السفانة في عدو هادئ موزون مصحوب بتأرجح لطيف لم يكن ذلك أقصى سرعتها ولكنها السرعة التي تثبت عليها أكثر ويرتاح لها فارسها كذلك.

وطلعت النجوم في السماء وغمر الليل الشاطئ كله. ورفع عبد الرحمن رأسه إلى السماء ليتأكد من اتجاهه، لم يرد أن يتيه في الظلام ، فرأى وراءه نجوم الدبران، ومنكب الجوزاء ورجل الجبار، كأنها رؤوس مثلث سوف تسافر معه طيلة الليل وترشده في الطريق.

واندمج الزمان بالمسافة في وحدة متماسكة تقاس بدقات حوافر الفرس وسمع عبد الرحمن من وقت لآخر وراءه في الليل الصيحات البعيدة. وأحياناً تعبير البوق الواضح. وعندما أدار وجهه لم يستطع أن يرى شيئاً.

كان الشاطئ أكثر دكنة من رمل الصحراء، رغم رقع الملح هنا وهناك. ولم يعرف هل اقترب منه أعداؤه أم ابتعدوا، لكنه عرف أنهم يتابعون ملاحقته، وربما انتشروا بعيداً لكي لا يفلت منهم في الظلام. ربما كان بإمكانه أن يفلت منهم بالرجوع بقوة في اتجاه على اليمين أو اليسار ولكن لم يعد له وقت لمثل هذه الحيل. فهو والفرس كلاهما كان مجهداً لدرجة أنهما لم يكن في إمكانهما متابعة الإختباء والعدو ولم يبقى له سوى هذا المجهود الأخير فأمله الوحيد هو أن يصل إلى زناتة قبل أن يلتحق به أعداؤه.

ومرت الساعات الأولى من الليل، مع الأميال التي تتناثر وراء حوافر الفرس الحديدية. وظهر الشاطئ بلا نهاية أرض مظلمة مبقعة هنا وهناك ببقع مضيئة من الملح، كانت تظهر عن اليمين وعن الشمال في الظلام بسرعة كبيرة وتغيب وراءه.

ظهرت تلك النجوم العظمى الثلاثة: رِجل الجبار، ومَنكِب الجوزاء والدَّبران، تحد الساعات المسترسلة، كما توجه هروبه إلى الاتجاه الذي ابتغاه. كانت عندما ظهرت في نصف الجهة الشرقية من السماء، والآن صارت فوق قمة رأسه. تقوده الدبران، كبيرة وبرتقالية اللون والليل يقترب من منتصفه، والسفانة لا تزال تتقدم في الظلام.

وأخيراً أوقف عبد الرحمن الفرس فلا يمكن أن تتابع سيرها هكذا إلى الأبد حتى إذا كان نفسها لا ينقطع، فإن قلبها سوف لا يتحمل، يجب أن تأخذ قسطاً من الراحة فقط، ولكن لا يمكنهما أن يقفا نهائياً.

فترجل عن ظهر السفانة وأحس كأنه وقع من تيبس جسمه وإنهاك قوته. فنزل على قدميه متعثراً، وقبض بلجامها وهو يقبلها في جسمها: «جوهرتي! جوهرتي!». كان نفسها حاراً على حده البرد وعنقه وصدرها يعلو وينخفض بجهد مفتشاً عن الهواء.

فرفع عبد الرحمن رأسه لينظر إلى النجوم واتجه نحو الغروب على قدميه وهي تقوده فارتبك وتعثر في الظلام لكنه تابع سيره ولم يسمع وراءه أصوات متابعة في ذلك الحين.

ولم يعرف كم طال مشيه، كان ذلك كالحلم تقريباً بدون شعور في جسمه، فهذه ليلته الثالثة بدون نوم.

وأخذت حواسه تخونه كسراب النهار، فظن أنه سمع أصوات مطارديه ونفير البوق في

الظلام.

وأحياناً يشعر أنهم حوله في كل الاتجاهات وأحياناً أمامه، وأخذ يحس أن الأمل ضاع منه وهو يتقدم متعثراً في تلك الظلمة، وتشبثه الوحيد بالحقيقة هو اللجام في يده. والفرس بجانبه والنجوم فوق رأسه.

وظن أكثر من ست مرت أن أعداءه اقتربوا منه ثم بسرعة فائقة ذهبوا عنه عرف أن ذلك لم يكن إلا خدعات فكره. فتابع مشيه المتثاقل. ربما كان أعداؤه في مقدمته وقد سبقوه في الظلام ولكن لا يهم ذلك فليس له إلا أن يتابع سيره. ويمشي على رجليه.

وبعد وقت طويل شعر أن السفانة لم تعد تتنفس بصعوبة وراءه فلقد استرجعت نفسها وكانت النجوم أمامه في الغرب وفجأة سمع نفيراً حقيقياً في البوق كان الصوت قريباً منه.

وركب الفرس من جديد ودفع بها إلى العدو فانطلقت فوق الشاطىء مرة أخرى فلو كانت فرساً أخرى لأنهكت نهائياً ولانبطحت فوق الأرض الصلبة تلهث ولكنها السفانة ها هي الآن تعدو من جديدا وحتى في حالته هذه التي يرثى لها أخذ يمجد في عظمتها ناظراً إلى السماء قائلاً : «أيها الدبران يا رجل الجبار ويا منكب الجوزاء هل رأيتم في حياتكم مخلوقة كهذه في مراقبتكم الليلية؟ إنها تستحق أن تكون بين النجوم معكم؟ .

وأصبحت المسافة والزمان لا نهائيتين من جديد. كان عبد الرحمن يترك الفرس تمشي وفي أغلب الأحيان يدفع بها إلى العدو. ولم يعد يترجل عنها. فلقد كان منهكاً فوق السرج، وفكره وجسمه مخدرين لم يبق له من الدراية إلا أن يتبع النجوم.

لقد سهر ليال كثيرة فلم ينم وظهرت له أحلام من الماضي تمر بين عينيه وتطفو أمامه. عاش تلك الليالي المتوالية، ورغم ذلك شعر كأن الزمان قد توقف.

ثم فجأة أخذت السماء تنير وبدأ مستوى الشاطئ يظهر على مسافة أقدام تتزايد الواحدة تلو الأخرى في الوقت الذي كان لا يرى شيئاً قبل ذلك وأخذ الدبران ومنكب الجوزاء ورجل الجبار تتلاشى في السماء الغربية. لقد سافروا معه الليل كله. وتابعت حوافر الفرس الشامية دقاتها عبر الفجر.

وكشف ضوء الفجر البارد الشاطىء إنذاراً بطلوع الشمس. فلقد عبرت السفانة تقريباً كل عرضه إبان الليل، فظهر طرفه الغربي كاشفاً تلالاً منخفضة عندما طلع النهار وكشف كل شيء، وظهر رجال الخليفة وراءه مشتتين على قعر البحيرة اليابسة.

فلم يمسكوه في الليل ولا سبقوه لقد سافروا بإجهاد لقد التمسوا طريقهم في الظلام ففضحهم شروق الشمس وفضح طريقهم.

ونفخ في الأبواق بصفة واضحة في ذلك الصباح الباكر إعلاناً للكتيبة المنتشرة. وكان تلك الأبواق تقول: «إن الهارب أمامنا الحقوا به في ضوء النهار».

سمع عبد الرحمن الأبواق التي أيقظته من حلم يقظة طويل وسمعتها السفانة كذلك، فهزت أذنيها ورفعت رأسها عندما سمعت تلك الأصوات وكانت عيناها محمرتين وصدرها

منقطاً برغوة فمها، لكن معنوياتها كانت عالية لا تتكسر. فقال لها عبد الرحمن بصوت خافت أجش: «أسرعي يا جوهرتي، أسرعي!».

واستجابت له. فكانت مشيتها مشية المنهك إنهاك الموت. مشية المعذب. ولم تكن مشية الخيل التي تتبعها أحسن حالاً منها.

وطلعت الشمس الضخمة الحمراء فوق الشاطئ لتنظر إلى إنتهاء المطاردة، لم تكن هي المتفرج الوحيد بل أحد الفرسان نزل المنحدرات الغربية ينظر إلى السباق اليائس.

كان صياداً يجول عبر الصحراء في الصباح الباكر، يركب جواداً عربياً اصيلاً وقوياً. ويحمل فوق قفاز يده اليسرى الجلدي صقراً بدون عماء، وفوق ظهره رمح خفيف قد أتى وحده ليصطاد طيور مالك الحزين التي تحط على الأغصان أحياناً للمبيت في رقع السباخ الصغيرة التي كانت تحيط بالشاطئ في طرفه الغربي.

ففهم الفارس المنظر الذي أمامه في لمحة واحدة رجل هارب أمام أعداء كثر. لم يعرف هويتهم، لكن نظره الثاقب ميز لباس متابعيه، وأعلامهم السوداء ودفعت به شهامته الغريزية إلى العطف على الهارب.

وأمام ذلك المنظر لمعت عينا الفارس بضراوة، لا تقل لمعاناً عن عيني صقره المنحني فوق يده. فدفع بعقبيه جواده وأخذ يعدوا نحو الفارس الوحيد الذي يهرب من أجل حياته.

أرض زناتة

ووصل عبد الرحمن إلى حافة الشاطئ الغربي، فرأى أمامه حشائش الدرن والقصب، نابتة في التلال التي تخفي ما وراءها. لقد فازت السفانة في السباق عبر قعر البحيرة اليابس تحت الشمس.

لكنه فجأة اعتقد عكس ذلك، لقد رأى فارساً يتقدم نحوه من التلال فظن للحظة مرعبة أن أعداءه صاروا أمامه كذلك، ولكنه لم يبال فلم تبق له قوة للمقاومة.

ولكن سرعان ما اكتشف أن ذلك الفارس المتهور ليس جندياً من جنود الخليفة فتبعه في نزوله من التلال، تلال من الحصى والرمل وتوقف الفارس أمام عبد الرحمن يركب على جواد أسود جامح.

لم يسبق لعبد الرحمن أن رأى رجلاً مثل هذا. كان رجلاً طويلاً قوياً، يلبس سروالاً فضفاضاً وصدرية صغيرة مفتوحة، تكشف صدره الضخم. وعنقه العضلي، وذراعيه وشعر رأسه ولحيته مقصوص قصاً قصيراً جداً، كان وجهه باعثاً على الفخر والشجاعة. فالصقر والجواد الأسود والفارس، صورة على الإنفعال الشديد والجرأة.

ورغم أن عبد الرحمن لم يسبق له أن رأى رجلاً كهذا، فإنه خمن مع نفسه وتمتم بين شفتيه الجافتين: «زناتي!» وكان قد ضيع قربته في الليل.

فنظر إليه الرجل نظرة حادة. ثم أشار إلى الفرسان القادمين. وقال بلغة عربية فصيحة كلغة عبد الرحمن: «من يتبعك عبر الشاطئ».

فتمايل عبد الرحمن فوق السرج وقال: «جنود الخليفة أبي العباس ! زناتة! افتش عن قومي زناتة؟».

فبهت فيه الفارس باندهاش ثم قرر أن يعمل شيئاً لم يكن هناك وقت للأسئلة أو للتأخير، لقد سار المطاردون يقتربون منه الحين بعد الآخر.

واندفع الفارس بجواده موازياً للسفانة وقال لعبد الرحمن: «اركب ورائي!».

وبمعونة يد قوية من الفارس تمكن عبد الرحمن من الانتقال إلى الجواد، وفي الشاطئ أخذ بوق ينفر بإلحاح. فلقد كان حوالي إثنا عشر فارساً على بعد لا يزيد على ربع ميل وراءهما، فوصلت إلى اذني عبد الرحمن عبر تلك المسافة القصيرة قعقعة حوافر الجياد وصيحات الرجال الخشنة.

ونظر فارس الجواد الأسود إلى اقترابهم بنظرات غاضبة. وسل رمحه من وراء ظهره بيد قوية وزرع رأسه فوق الأرض بينه وبين الفرسان القادمين همس بين أسنانه: هذه أرض زناتة!».

وحتى في ساعة إنهاكه التام، فكر عبد الرحمن في السفانة! لقد حملتني ألفي ميل،

أأتركها الآن؟».

فأوقف الرجل الغريب جواده مرة أخرى وكان الصقر في يده اليسرى لا يزال واقفاً بكل توازن، فأرخى القيد الذي كان يعلق في رجله، ودفع به في الهواء بقوة وبصيحة حادة. فضرب الطير بجناحيه وارتفع في الهواء وقبض الصياد بلجام السفانة، لقد أطلق طيره ليخلص نفسه فقط.

وضرب جانبي جواده بعقبيه كذلك رجال الخليفة يضربون مطاياهم المنهكة في محاولة يائسة للقبض على طريدتهم. فكانت صيحاتهم الضاربة صيحة صيادين عندما يوشكون على قتل الطريدة.

والتطم الجواد الأسود بالقصب اليابس الموجود على طرف الشاطئ وتعلق عبد الرحمن بضعف بالفارس. وتبعتهما السفانة مسحوبة من لجامها فاندفعوا داخل القصب،ثم خرجوا منه يتسلقون المرتفع الصخري.

وتوقف الصياد الزناتي فوق المرتفع مرة أخرى ولمح لمحة وراءه فاطمئن أن المسافة بينه وبين الفرسان، لا زالت تسمح له بتوفير لحظة، فقفز عن سرجه وأخرج خنجره وشق به حزام سرج السفانة ورمى بالسرج فوق الأرض ثم ركب من جديد أمام عبد الرحمن، قافزاً قفزة رشيقة ودفع بالجواد الأسود إلى العدو من جديد. وتعثرت السفانة وراءهما مدفوعة إلى حد طاقتها ومستصعبة المكوث فوق قوائمها.

ولم يدر عبد الرحمن كم طال هروبهما هكذا فلقد شعر بنفسه منهكاً تماماً وقد تحول زمام الهرب من يديه وكاد أن يفقد وعيه.

وكل ما أمكنه فعله هو التشبث بالصياد والمكوث فوق ظهر الجواد.

وظهر أن الجواد سعى عبر أميال من كثبيات الرمل ووهاد الحصى، وبطريقة من الطرق تبعته السفانة دون أن تقع .

وعندما أخذ عبد الرحمن يشعر أنه لم تعد له المقدرة على التشبث وأن الصحراء لم تعد إلا سراباً متواصلاً من الرمال، طلعوا أخيراً فوق كثيب رمل فظهرت تحتهم واحة منتشرة. كانت كلها محاطة بجبال من الرمل التي اخفتها إلى آخر لحظة.

واستدار الصياد وصاح في أذن عبد الرحمن: «تاهرت؟»

وأطلق لجام السفانة وتركها وراءهما وهما ينحدران عدواً فوق الرمل نحو قعر الوادي، وخرجت من حنجرته صيحة إنذار هائجة طويلة، وهما يقتربان من مدينة زناتة المكونة من الخيام. فأخذ الصياد يعدو وهو مستدير فوق لجامه، فأمسك بجسم الشاب الهارب الغريب الذي يكاد أن يفقد وعيه.

ولم يكن عبد الرحمن يدرك ما حدث بعد ذلك إلا إدراكاً متقطعاً فكانت السماء والأرض تدور حوله كأنه في دوامة وكل حواسه تصاب بالدوار كان شعوراً مرضياً لا يوصف، ولقد كان منهكاً جداً فلم يستطع أن يقاوم كانت فترات الغيبوبة التي حدثت له

حينئذ رحمة عليه.

ونفخ في البوق نفخة عميقة عالية، أزعجت نوم عبد الرحمن السباتي، فأيقظته من ظلام غيبوبته العميق المرجف، ففتح عينيه متلهفاً إلى الهواء فشعر أن أحداً نثر الماء على وجهه، وشعر كأنه أفاق من غيبوبة ناتجة عن غرق.

فوجد نفسه مستلقياً على الأرض تحت ظل خيمة، وحوله رجال كثر، أكثرهم يلبس ثياباً تشبه ثياب الصياد الذي أنقذه، وسمع مرة أخرى صوت البوق وقد اقترب بعمقه وصداه. ولم يكن هذا البوق بوق متابعيه، ولكنه كان إشارة لأهل الواحة.

وحاول عبد الرحمن أن يجلس فأخفق في محاولته، وأقعدته يد قوية. وأخذت حواسه تدور، وشرق عندما وضع الماء بين شفتيه. ثم أخذ فكره يصحوا وتوقفت المناظر حوله عن دورانها، وأخذت أشكالاً مفهومة وكان الصياد الذي وجده ماسكاً بيده.

وتقدم رجل عن الآخرين ووقف قبالة عبد الرحمن، وكان يلبس لباس الشيوخ الأبيض الطويل، وشعر لحيته ورأسه تقريباً كامل البياض. موقراً تحت وطأة السنين. ومع ذلك لا زال نشيطاً ومستقيماً في وقفته. وكان على وجهه سمات الحكمة والوجاهة ووقف وراءه رجل أسود ضخم عار إلى خصره يحمل في يده سيفاً مسلولاً.

وعندما رأى الرجل علامة الوعي قد ظهرت في عيني عبد الرحمن قال له باللغة العربية: «أنا شيخ زعيم زناتة» وكان حوله حركة انفعال الرجال المسلحين وأصوات الأبواق وهي تقترب، ولكن أسلوب الشيخ كان هادئاً كهدوء النخيل عند انعدام الرياح وهدوء السماء عند انعدام السحاب.

فحرك عبد الرحمن شفتيه ولم يصدز عنه صوت فلقد سافر ليل نهار مئات الأميال ليلتحق بهؤلاء القوم، والآن لم يستطع أن يقول لهم شيئاً وجعل وجه الزعيم الزناتي اللطيف كل ما حوله يبدو هادئاً وخيالياً.

ثم سمع صوت بوق فوق التلال علامة مطارديه وهم يبحثون عنه، فأرجع عبد الرحمن إلى واقعه المرير، فخرجت الكلمات من فمه باندفاع، وقال وهو يلهث: أنا عبد الرحمن أبي أمية، إن غضب الخليفة مسلط عليّ، وفرسانه يلاحقونني لقتلي، إن أمي من زناتة، اسمها راح من قبيلة زناتة، لقد كلمتني عن قومها وقالت: «انهم قومي أنا كذلك، والآن جئت إليكم فافعلوا بي ما شئتم، لقد نفدت مقدرتي على السعي!».

وكلف عبد الرحمن قول هذه الكلمات كل طاقته القليلة التي استرجعها كانت تلك الكلمات استغاثته الوحيدة. وسمع الشيخ يتكلم كأنه في حلم فقال: خذوه إلى الخيام، إنه زناتي وفي أرض زناتة لننتظر فرسان الخليفة».

وغمر الجمهور ريح من الهيجان، منذراً بعاصفة. وظهرت السيوف المسلولة والحراب، وتسارع الرجال بين الأشجار وركبوا بسرعة الفرسان المسرجة، ونفخ في البوق من جديد باعثاً صداه إلى جوانب الواحة الكبيرة المختفية.

وحملت الأيدي عبد الرحمن حاول أن يتكلم ويسأل عن السفانة، لكنه لم يستطع. ثم غمره ظلام خيمة ودارت حوله أيدي النساء مسلية مهدئة.

عشرون ألف قطعة ذهبية، وعطف وترقية من أبي العباس: ذلك هو الطيف الذي أفلت من رئيس رجال الخليفة. ظل أمامه مسافة أربعمائة ميل على كل الطريق بين زواره وتاهرت، وفي الأيام والليالي الثلاثة الأخيرة، كان بقرب تلك الجائزة لدرجة أنه كان على وشك القبض عليها. إنه لا يريد أن تسرق منه الآن.

فتابع عبد الرحمن إلى طرف الخيام الزناتية، وعرف أن طريدته صارت هناك، فلقد رأى بأم عينيه الرجال يقودون فرس الهارب المنهوك بين الأشجار والخيام.

فانتظر بدون صبر تجمع فرسانه، فرسانه المنتشرين.

وقرر أن يطالب بالهارب باسم الخليفة، وباسم قوته الخاصة، لقد سبق له أن سمع بزناتة، لكنه لم يواجههم قبل هذا، ولم ير في ذلك الحين إلا قسماً صغيراً من خيامهم المتناثرة. فنزل إلى الواحة مع أربعين من رجاله ليأخذ الضحية بكبرياء هوجاء وثقة نفس.

وعندما تقدم فرسان الخليفة، كانت أطراف المخيم هادئة ولم تظهر النساء ولا الأطفال ولا تاهت الجمال والماعز بين الخيام، وأخذ يتكون بين النخيل تجمع خفي من الرجال والخيل، وسمع ضرب على طبل واحد، على نغم حزين خافت، وسوى ذلك لم يكن أي صوت. وتقدم رجال الخليفة مباشرة إلى الخيام، وخرج رئيس زناتة العجوز من خيمته ليستقبل الفرسان وصاح: «السلام عليكم» وكان بجانبه العبد الأسود الضخم بسيفه المسلول، وعلى طرفيه حوالي ستة من المحاربين مسلحين ويقظين.

وفي نفس الوقت، تحركت في بستان النخيل الكثيف الكتيبة الرئيسية من محاربي القبيلة. كان عددهم حوالي مائة شخص ثلثهم فرسان. فأخذوا أماكنهم مقابل رجال الخليفة، وظهرت طليعتهم تنتصب بالرماح.

كان قائد الخليفة رجلاً جريئاً ولكنه لم يتوقع هذا الاستقبال فأجاب: «سلام».

فسأل شيخ قائلاً : كيف يدخل فرسان مسلحون خيام زناتة هكذا؟ ولم يظهر على سؤال شيخ أي تهديد، تكلم كما يسأل شيخ عادي واقف بباب خيمته رجلاً غريباً يأتيه.

فأخذ الرئيس ينظر حوله لحظة ليوازن خطر الموقف، ثم بدأ يتكلم بصوت متغطرس: «أتيت باسم الخليفة العظيم أبي العباس...»

فأومأ الشيخ الزناتي برأسه بوقار وقال: « لقد سمعنا به».

وتكلم بصورة هادئة كأنه يسلم بوجود هذا الشيخ.

فاكفهر وجه الرئيس من الغضب، ثم أخذ يتكلم مباشرة في الموضوع:

«أتينا لأخذ عدو، خائن للخليفة، وتبعناه إلى هنا».

فأجاب الشيخ :« و هذا العدو ما هي جريمته ؟».

وكان كلام الرجل ذا نبرة معتدلة، حتى أن الرئيس كاد أن ينسى الرجال المسلحين حول

شيخ. فقال بكبرياء: «إن جريمته جريمة ضد الخليفة العظيم، وهذا يكفي!»

فانحنى شيخ و رفع حفنة من رمال الصحراء بين قدميه وقال: « هذه أرض زناتة، وعدالة زناتة هي التي تسود هنا!»

و أخذت فرائس الرئيس ترتعد وقال: « أتؤوي عدو الخليفة؟»

فنظر شيخ في وجهه مباشرة وقال: ليس هنا إلا زناتة، ومن هم من دم زناتة. وزناتة يدافعون عن ذويهم؟» كان صوته واضحاً وصارماً.

فبهت فيه الرئيس وهو مشدود بين الغضب والتعجب، فلم يكن يعرف دعوى الهارب بالقرابة لهؤلاء القوم، فارتاب أن يكون هناك خدعة. فسأل بشدة:

« بأي حق ترفض أن تعطيني الخائن؟»

فأجاب شيخ: «حسب شريعة آبائي و شريعة قبيلة زناتة، وكتاب الله الذي أعطى شريعة الأخوة للناس!»

فانفجر الرئيس غاضباً و قال: « وشريعة الخليفة العباس تقول إنه يجب أن يموت!».

و فجأة انقلب وجه شيخ إلى برودة و صرامة، كما لو مرت سحابة عبر الشمس.

فنظر إلى الرئيس كما لو أن الرجل تكلم كفراً. ونظر عبره إلى ما وراءه.

ثك تكلم ببطء ورزانة وقال: «قبل أبي العباس كان الله ! وعندما تكون عظام أبي العباس ذائبة في التراب سيبقى الله. وشريعة الله هي شريعة زناتة!».

فجمد الرئيس فوق سرجه لحظة، لقد ارتاع لكلمات الشيخ الربانية، ثم عندما ادرك أن طلبه مرفوض انتفخ وجهه بغضب أسود، ونسي كل شيء في حماسته لأخذ الهارب، فحرك يده نحو سيفه.

كانت تلك الحركة كعلامة أبرقت في وقت واحد عبر الواحة كلها، فكل رجل حول الشيخ وضع يده على مقبض سيفه، وتقدم الصفان الأماميان من الفرسان وأصحاب الحراب عشرة أقدام خارج النخيل، ووقفوا مستعدين ليحملوا حملة مركزة. فلقد قام رئيس الخليفة بتهديد، وجلب على نفسه العاصفة. فاقترب منه نائبه وهمس له: «لله كف عن ذها! إذا سللت سيفك فسنقتل كلنا».

وأخذ بوق زناتة الضخم يدوي من جديد. وتكاثرت ضربات الطبل، وقفز العبد الأسود الضخم إلى الأمام وأخذ يرقص رقصة حربية همجية، ويدير بالسيف فوق رأسه، واحمرت عيناه الهائجتان كأنهما تشتعلان ناراً وهو ينظر إلى رئيس الخليفة وفيها يظهر التلهف على القتل. وتقدم فرسان آخرون عدواً من كل أنحاء الواحة ليلتحقوا بزناتة، ولم يكن ينتظر كل هذا الجمع الا أن يرفع الشيخ يده فينقضون على العدو يداً واحدة.

وبلع الرئيس ريقه بشدة فلم ينزل في حلقه اليابس إلا غضبه، لقد كان ثلاثمائة رجل محارب يحيطون برجاله الأربعين المرهقين ، وآخرون لا زالوا قادمين، فهذه الواحة يمكنها أن تجند ربما خمسمائة محارب.

إذن فالفشل كان شيئاً مريراً لذلك الرئيس والجائزة كانت قريبة جداً. وسيواجه بعد هذا غضب سيده الوالي عندما يعود فارغ اليدين.

ورغم هذا كله، فسوف يكون سل سيفه ضرباً من الجنون. لقد سبق له أن سمع بحملات زناتة، الرماح القاتلة التي تنصب كالمطر وهجوم الفرسان الذين يتبعونها بالسهم، سوف لا يبقى رجل حياً من رجاله الأربعين عندما يتبع كل ذلك الرجالة بسيوفهم القاطعة. فعندما ازيلت عنه قوة اسم الخليفة، ذابت غطرسته وقال لشيخ: جئنا للسلام . ووضع يديه ظاهرتين فوق السرج ليراهما الجميع.

ولم ترتح نظرة الشيخ الزناتي الصارمة عن وجهه فقال: « اسقوا خيولكم عند البركة، واستريحوا لمدة قصيرة ثم عودوا من حيث أتيتم، سوف يصطحبكم رجال إلى حدود الشاطئ.

ثم أعطى أوامر قصيرة لرجاله المحاربين حوله. فتقدم بعضهم يجري ويصيح بأوامره إلى جماعة الفرسان المتهيئين، فيكررها الفرسان ليتأكدوا أنهم سمعوا الأوامر على ما هي عليه.

وبكل جسارة أخذ محارب بلجام جواد الرئيس وقاده إلى الماء وقال له في لهجة لا تخفي التهكم إلا قليلاً: «سأحميك» وابتسم ابتسامة اشمئزاز وهو يرى الرئيس يمسك غضبه ويتحمل هذه المعاملة.

كان ذلك المحارب هو الصياد الذي أنقذ عبد الرحمن فوق الشاطئ. وعندما كان يسحب جواد الرئيس سمع صفير أجنحة، وصيحات خشنة فوق رأسه ونزل صقره بقوة من السماء ووقف فوق ذراعه العاري. وظهر الدم في منقار الطير ومخالبه. لقد قتل حيواناً وذاق طعم حريته، ومع ذلك رجع إلى سيده. وضحك الزناتي عندما وقف ذلك الطائر ذو العينين الوحشيتين فوق ذراعه. وصرصر الصقر لسيده، فنظر إليه بحنان، وتجاهل الألم الذي احدثته مخالب الطير الحادة في ذراعيه.

وقال للرئيس: انظر حتى الصقر الوحش يأتي ألى يد الزناتي متذللاً.

ولم يجب رئيس الخليفة فسقا هو ورجاله خيلهم لمدة قصيرة عند البركة، ثم ركبوا واتجهو من حيث أتوا. وذهب معهم فرسان زناتيون إلى طرف الشاطئ.

وفي خيمة شيخ كان عبد الرحمن ملقى في نوبة من السبات والإجهاد.

يتمايل ويلتوي ويتنهد المرة تلو المرة. من آلام الجسم والنفس وحلم بأشياء كثيرة عندما انهزم فكره المتعب بالإجهاد والمشقة.

و رأى في المنام رؤيا واضحة و شديدة، فرسان الخليفة يلتحقون به و سيف الموت ينزل برأسه. و في نفس الوقت تختلط ذكرى الحوراء في منامه، فينزل سيف الموت عليها عوضه، وعلى ابنه في يدها، فيصيح:« لا. لا! ترجوا رحمة الله وارحموا، لا!» و يستيقظ مرتعداً مرعوباً.

فتدور حوله أيدي حنونة، وكلمات طيبة مطمئنة، و تدريجياً تذكر أين هو، فميز وجه

شيخ الرحيم في ظل الخيمة. و حوله شيوخ زناتيون و رؤساء واقفين ينظرون إليه باهتمام. و كانت نفسية عبد الرحمن ضعيفة ومريضة، كشيء يطفو في محل غريب، كأنها أحلام ملفقة. لم يشعر بسلام، ولم يشعر بمأوى.

فأخذ يلهث ويصيح، وأفكاره تحوم حول الخيمة: « فرسان الخليفة! سيجدونني هنا، ليس لي بلد، وليس لي أهل، وحكم الموت علي. لا تحموني!».

ثم أغمض عينيه المتألمتين، وعندما فتحهما، رأى وجه شيخ قريباً من وجهه ويده قابضة بيده. و كانت في عيني ذلك الزعيم الزناتي حكمة لا نهائية وعطف ورحمة. لم يعد رئيس جنود، ولكن صار رجل ولاية وصلاح، يشعر بقدرة الله و وجوده.

و وضع شيخ يده الأخرى على وجه عبد الرحمن ليبارك فيه، وقال بصوت رباني هز الخيمة كلها: « إن أرض مولدك بعيدة، ولكن أمك التي حملتك،كانت من أرض المغرب! فدم زناتة يجري في عروقك. ولن يمكن لكل أوامر الخليفة أن تأخذ منك استحقاق الأخوة التي منحك الله إياها عند ولادتك! فالدم يحن على دمه، و أين تظن أن يستريح الرجل المطارد والمجهد إلا في بيت أمه. وبين خيام قومه! ارتح بسلام يا إبني، ودافع عن وجهك أشباح الخوف التي تبعتك إلى هنا، فلن تسمع كلمة لا ترضيك معنا، لا من رجل ولا من امرأة، ولا من طفل ومن يحاول أن يخونك من أجل ذهب أو ربح فسوف يطرد إلى الأبد من قبيلتنا وستبقى يد زناتة دائماً وراءه، أنا شيخ زناتة أقول لك هذا!».

وعندما انتهى الشيخ من كلامه، عم الخيمة سكون تام، وكان الشيوخ والرؤساء الآخرون كأنهم سمعوا بلاغاً ربانياً، ولم تسمح لعبد الرحمن صحته الضعيفة، أن يدرك معنى ذلك الكلام الحقيقي. فلقد تعهد له شيخ بمساندة قبيلة زناتة كلها التي تمكنها أن تجند خمسة آلاف جندي للدفاع عنه حتى الموت.

التاجر سميل

وبقي عبد الرحمن مريضاً لعدة أيام بعد وصوله إلى تاهرت. كانت كل حواسه وأعضاءه قد انهكت نهائياً نتيجة الهروب الطويل، وعانى فكرة وجسمه ونفسيته مشقة واحدة، وكانوا ثلاثتهم في حاجة إلى الشفاء.

ومكث عبد الرحمن عدة أيام في غرفة من غرف سرداق الشيخ الفخم، وكان ضعيفاً جداً وقلقاً فلم يخرج قط. وعندما كان ينام في الليل نوماً متقطعاً، كانت تزعجه كوابيس ومخاوف خيالية، وفي ساعات النهار عندما يجلس هناك ضعيفاً، كان فكره كثيراً ما يسبح في خيالات ترجع به إلى السنين الماضية.

وتدريجياً بدأ فكره وجسمع يتحسنان في أمن تلك المدينة. كان الزناتيون قوماً طيبين فأعطوه أحسن ما كان في إمكانهم إعطاؤه، حتى الفواكه أتو له بها من بعيد مثل المشمش والأجاص، الذين احضروهما من هضاب الشمال.

وخدمته النساء بلطف، عندما كانت النساء تفتحن باب السرادق في النهار، كان يظهر لعبد الرحمن منظر لطيف هادئ للنخيل ولحياة الواحة الآمنة، وتحت هذا التأثير الطيب أخذت تلك الأشياء الغامضة الغريبة، التي تجمع أطراف الإنسان بعضها مع بعض، تترابط مع عبد الرحمن من جديد.

وكان شيخ يأتي لزيارته كل يوم؛ فلقد أعطاه ذلك الزعيم الزناتي حماية وضيافة لا يعطيها إلا ملك من ملوك الصحراء، فكان ينظر بارتياح إلى ضيفه العظيم والقوة والصحة تعودان إليه تدريجياً.

وفي أحد الأيام بعد أن تحسنت صحة عبد الرحمن قال لشيخ: «فرسي أريد أن أذهب إليها». فقال له شيخ: «سنأتي لك بها». لقد أنقذ الزناتيون حياة الفرس المنهكة بمهارتهم. أتو بها قبل ذلك عدة مرات إلى الخيمة لتزور سيدها المريض.

ووقف عبد الرحمن وقفة غير مستقرة وقال: «اريد أن أذهب إليها». فقال الزعيم الزناتي: «اذهب إذن» وقاده نحو باب السرادق وقال: «إنها ترعى وراء تلك الأشجار وأشار إلى جندي له يحمل سيفاً اسمه امقران، وأمره أن يتبع عبد الرحمن بتكتم.

ومشى عبد الرحمن بين خيام الواحة. فكانت هذه أول مرة خرج فيها إلى النور بعد وصوله. كان ضعيفاً ومتعثراً في مشيته. وشعر بأن الأرض غريبة تحت قدميه، لكنه بقي مستقيماً بمجهود متعمد. وعندما تقدم كانت بعض العيون تنظر إليه باستغراب، وشاع الخبر بهمس بين الخيام، أنه خرج اخيراً من خيمة شيخ. لقد صار بطل أسطورة عند الزناتيين، ولكنه لم يعلم بذلك بعد. فهروبه من الشام إليهم على مقدرة حدسهم كان ضرباً من العجب، وجعله مولده في بيت الملك، وحالته اليائسة محط فضول هؤلاء الناس. وأخذ

الرجال يسلمون عليه بوقار عندما يمر بهم، وتنظر إليه عيون النساء السوداء باهتمام لقد كانت النساء الزناتيات من اجمل النساء. وكانت السفانة مع قطيع صغير من الخيل فوق هضبة تشرب في الواحة، فرأته يأتي إليها، فرفعت رأسها وأخذت تصهل محيية له. وكانت قد شفيت وأصبح بإمكانها أن تعدو نحوه لتستقبله.

فعانقها كما كان يفعل من قبل صائحاً في أذنها : «عزيزة»، وقبلته بخدها وشفتيها، وأخذ يفحصها كلها، فلاحظ بلطافة كل خدش وكل جرح، وكل انتفاخ في قوائمها. ولم يدر هل سيمكنها أن تشارك في سباق بعد هذا أو هل سيعود نفسها إلى ما كان عليه من الثبات بعد المحنة المفجعة التي مرت عليها فوق الشاطئ. وأرادها أن تسترجع صحتها كاملة، فهي سوف تبقى عنده عزيزة مهما كانت حالتها. ثم أخذ يتجول معها فوق الهضبة.

وبدأ عبد الرحمن يسترجع صحته تدريجياً وبرجوع صحته أخذ شيء من الكسل يحيط بتصرفاته. كان كثمل من يحاول أن يعوض تلك الشهور من الإجهاد والخوف والهرب التي مرت عليه، فلقد كان راضياً بعيشته في تاهرت مدينة الخيام، وبين زناتة يكون ضيفاً على شيخهم. وهكذا مرت الأيام وكاد أن ينسى حياته الماضية، حتى حدث شيء ذكره بها.

ففي أحد الأيام ذهب عبد الرحمن مع الصياد خالد لزيارة إحدى الواحات المجاورة، فركب السفانة التي كانت عند ذاك قد استرجعت قوتها كاملة. و وضع عليها نفس السرج الذي استعمله في هروبه من الشام إلى تاهرت. و كان الحزام قد خيط من جديد. و عند وضع السرج فوق ظهر السفانة، لاحظ أن بطنها أخذ ينتفخ فقال خالد: « إنها حامل من ثلاثة أشهر».

حامل من ثلاثة أشهر! و كأن أحداً أيقظه من سبات، تذكر أن الشهر شهر شعبان. لقد غادر الحوراء في شهر محرم قبل ثمانية أشهر، ففي هذا الوقت لا شك أنها ولدت. فهذه الأشياء كادت أن تمحى عن فكره لوقتٍ ما، لكنها الآن رجعت بكل قوتها.

ففي مساء ذلك اليوم، عندما جلس مع شيخ، سنحت له الفرصة أن يتكلم بما يروج في خاطره. وعبر باب السرداق المفتوح، كان منظر البركة و النخيل يظهر لهما، و النساء الرشيقات القوام يحملن قرب الماء فوق أكتافهن للعشاء. و كان منظرهن منظر رشاقة و جمال رغم بعد المسافة.

فقال عبد الرحمن: « إن هؤلاء النساء يدخلن الفرحة إلى قلبي، إنهن يذكرنني بأمي، و بالأشياء الطيبة و الجميلة التي مرت بها حياتي».

فابتسم العجوز بافتخار و حنان لجمال نساء قبيلته، وقال: « ستعيش معنا يا أمير، وفي يوم من الأيام ستتزوج واحدة منهن».

فنظر عبد الرحمن إلى ما وراء النساء وما وراء البركة، ثم تنفس الصعداء وقال: « إنهن يدخلن الفرحة إلى قلبي والأسى في نفس الوقت، لأنهن يذكرنني بامرأة أخرى، تركتها ورائي عند هروبي».

فاومأ شيخ برأسه بتفهم، لكنه قال: « من الأفضل أن ينسى الماضي عندما لا يكون بالإمكان الرجوع إليه. وامرأة أخرى من قوم أمك تعينك على نسيانه».

فهز عبد الرحمن رأسة ووقف وقد ثارت مشاعره بشدة. وقال: « لا يمكنني ذلك عندما كنت مريضاً ظهر علي أنني نسيت كل شيء. ولكنني الآن أتذكر، أتذكر الزوجة التي كانت عزيزة على قلبي كعزة اليوم الذي أتمنى فيه لقاء الله. وكان هروبي أكثره في سبيلها، تركتها تحمل ابني سراً، فهربت من انتقام الخليفة لأنقذها وأنقذ ابني أكثر مما أنقذ نفسي!».

وتوقف عن الكلام واشتد تنفسه. وأدرك انه تكلم كفراً بمقارنة حبه لامرأة بحبه لله. ورغم ذلك لم ير توبيخاً في عيني شيخ.

فنظر إليه الشيخ الزناتي طويلاً ثم أحنى رأسه وتكلم بلطف قائلاً: « نعم وأنا، كذلك أحببت امرأة كحبك في حياتي».

وتابع عبد الرحمن كلامه: «وكيف حالهما؟ لا أدري!» كان لا زال مدفوعاً بكل الانفعالات التي كبتها ونسيها في الأسابيع الكثيرة الأخيرة، وقال: «لا أدري هل ولد ابني، أو هل لا زالت زوجتي على قيد الحياة. و هل لا زالا مختفين بسلام».

ووضع عبد الرحمن يده فوق جبهته حسرة. وبعد لحظة رجع إليه هدوءه وثباته.

ثم قال: «اسمح لي أيها الشيخ العظيم، إني أشعر وكأن بي نقصاً ويبقى هذا النقص حتى أسمع عن زوجتي وابني فإن تفكيري فيهما كسحابة تخفي سعادتي».

فقال شيخ بلطف: «إجلس إجلس، إنك ضيفي وحزنك يعنيني»، كان شيخ الزناتي صادقاً في عطفه. وكان يعتقد أن الله عزوجل بعث إليه بهذا الأمير الشاب إلى خيمته ليحميه. لقد أقسم أن يدفع عن عبد الرحمن كل أعداءه، وسيفعل أكثر من ذلك إذا كان في الإمكان.

وجلس عبد الرحمن، وأتت فتاة من غرف السرادق الداخلية، مستجيبة لإشارة شيخ بيده. وأحضرت صحناً فيه فواكه المشمش الطرية، ووضعته أمام الرجلين. كان شعرها أسوداً على شكل حلقات صغيرة كشعر زين الفتاة الغجرية. ولباسها الألوان. كانت إحدى تلك الفتيات اللواتي أعطين النساء الزناتيات شهرة الجمال. ولكن عبد الرحمن لم يلاحظها. وذهبت عنهما كأنها لم تات.

وأشار شيخ بيده إلى الصحن وقال: «كل الفاكهة. وبعد لحظة نتعشى سوياً. فهذه خيمتك».

فأخذ عبد الرحمن مشمش بيده، لكن أفكاره كانت بعيدة عن الأكل في ذلك الحين، فقد قال كل ما في قلبه لشيخ، و لا زال به اندفاع ليقول أكثر وشعر بالعظمة والقوة في شخص الشيخ الزناتي أيقظت اندفاعات جديدة قوية في نفسه.

فقال فجأة: «قل لي أيها الشيخ العظيم، هل هناك رجل يمكنك أن تثق به فوق كل المغريات، هل هناك رجل يسافر شرقاً إلى مصر أو ما وراء مصر؟ ربما إلى الشام أو مكة

المكرمة؟».

فهز الشيخ رأسه ببطء وقال: « نعم هناك رجل مثل ما تقول، وهو تاجر مغربي يعيش بين قومنا، لقد ذهب عدة مرات مع قوافل مصر والحجاز وسيرجع بالعطور والتوابل، اسمه سميل».

وخمن شيخ ما يجول في خاطر عبد الرحمن ولم يعارض في ذلك، فقال: «نعم، يحب الذهب، ولكنه يحب امرأته وابنه كذلك وهما يمكثان هنا تحت رعايتي».

فأخرج عبد الرحمن صرة من جيبه، تلك الصرة التي حملها معه عبر طريق هروبه، كلها من الشام إلى تاهرت وقال: «إذا كان يحب الذهب فهو له !» وفتح الصرة وصب في كف يده ستة أحجار كريمة مدهشة.

وقال عبد الرحمن: «تحتوي هذه الاحجار على ذهب يكفي لتجهيز قافلة كاملة، من بعد إذنك أيها الشيخ العظيم سوف أعطي سميل هذا ما يكفيه لهذا السفر. وهذه . . . .». ورفع في يده جوهرة كبيرة لامعة تسطع بألوانها المختلفة كاللهيب تحت الشمس، وقال: « . . . هذه له عندما يرجع».

ولم يستغرب شيخ لرؤية الجواهر، فلقد سبق له أن رآها عندما كان عبد الرحمن مريضاً، ولم يهتم بها. فقال سائلاً: «ماذا تريد من سميل؟».

فاقترب عبد الرحمن من العجوز، ومال نحوه وقد اشتعل وجهه بالأحاسيس، فأفشى سره بلهجة خافتة لكي لا تسمعه حتى حيطان السرادق وقال: «خبر عن زوجتي وابني. ولو كان بالإمكان لذهبت بنفسي، ففي منطقة وادي السرحان توجد قبيلة بني زنقل مترحلة. إنهم إخوتي إخوة الدم، فليبحث عن شيخهم روض، وليسلم عليه مني، ويسأله عن الأشياء الثمينة الغالية عليّ، والتي تركتها عنده. إذا فعل ذلك بسلام وسرية وأتى لي بجواب الشيخ، فله هذه الجوهرة !».

فأخذ الشيخ يعبث بشعر لحيته البيضاء، وهو يفكر لمدة طويلة، كان بإمكانه أن يعد الأسباب التي تدفعه لأن يرفض طلب عبد الرحمن. وربما قد يرفض ذلك الطلب،دون أن يعطي أي سبب، ولكن بعد مدة وجيزة من التفكير قال: « تابع تفكيرك في الموضوع هذه الليلة»، إذا اردت سأبعث وراء سميل لتكلمه».

ولم يغير عبد الرحمن تفكيره في اليوم التالي فكلما فكر فيه وأمعن التفكير، لم يزده ذلك إلا شدة في رغبته أن يبعث بسلام إلى الحوراء، وأن يعرف خبرها.

وأتى له الشيخ بالتاجر سميل، كان رجلاً له ألوان كثيرة، وأوجه عديدة لا تقل عن أوجه الجوهرة التي ستكون جائزة له، ولكن رغم ذلك فلقد عرف الشيخ الزناتي، كيف يعامله. ووقع الإتفاق. قبل سميل أن يذهب في السفر الطويل، وسينفق في شراء الحيوانات والمؤن من بعض الجواهر الصغيرة التي أعطاه إياها عبد الرحمن. أما الجوهرة الكبيرة التي ستكون أجرة سميل في آخر سفره فقد أمنت عند شيخ. وأوضح الشيخ الزناتي

للتاجر أن زوجته وإبنه سيبقيان عنده رهينة لضمان أمانته.

وفي اليوم التالي وقف عبد الرحمن ينظر إلى سميل، وهو يبتدئ سفره بصحبة جماعة قليلة وهم يعبرون شاطئ الجريد، ولم يكن يعرف أحد إلى أين يذهب سوى عبد الرحمن وشيخ. وفي مَدَنّين، سيلتحق سميل بقافلة متجهة نحو الشرق كانت الطريق طويلة وشاقة أمامه، رغم أنها كان أهون بكثير على شاطئ البحر من التي هي عبر الصحراء كانت المهمة صعبة، ولكن التاجر كان رجل تجربة ودهاء، فنظر إليه عبد الرحمن وهو يبتعد، وأمل جديد يغمر قلبه.

الرسل

ومرت الأشهر: رمضان، شوال، ذو القعدة، ثم جاء شهر ذي الحجة آخر شهور السنة، وبانتهاءه مرت سنة تقريباً على خروج عبد الرحمن من وادي السرحان.

وكانت أرض زناتة هادئة، لم تغزها جيوش الخليفة، ولكن في مناطق الشمال النائية وفي الغرب، كان بربر الجبال في ثورة و هجماتهم تهدد طريق الأندلس المحفوفة بالمخاطر. واحتاج ولاة هذه المنطقة إلى جميع جنودهم المشتتين للدفاع عن المدن.

ومرت حياة عبد الرحمن خالية من الأحداث، وفي غالب الأحيان كان يعيش في خيام مدينة تاهرت، وأحياناً يذهب في حملات صيد صغيرة، أو أسفار تشابه ذلك مع أصدقاءه الزناتيين.

وعندما مرت الشهور، أخذ يتطلع إلى الطريق في ناحية الشرق، وكلما عاد إلى تاهرت أول ما يفعله هو سؤال الشيخ عن خبر التاجر سميل، فيكون الجواب دائماً: «لم يصل أي شيء بعد».

وثقل حمل السفانة، فكف عبد الرحمن عن الركوب عليها، إلا قليلاً للتمارين، رغم أن وقت وضعها لن يكون إلا بعد ثلاثة أشهر، واقتربت السنة من نهايتها ومعها الأمل والبشير بالأفضل. وفجأة، في أحد الأيام قبل انتهاء السنة حدث شيء غير مرتقب وفي غاية الأهمية.

لقد وصلت قافلة صغيرة من التجار إلى تاهرت من الشمال، وكانت لهم بضاعة للتجارة والبيع: جلد الحبال اليابس للاستعمال كاتراس، وثياب الحرير، والسيوف الحديدية، والسيوف الأندلسية. ونصبوا خيامهم القليلة بقرب البركة المركزية غير بعيد عن سرادق الشيخ. وأخذوا يقايضون بضاعتهم بقرب البركة ويريحون بهائمهم التي جاءت من سفر طويل.

وفي أحد الأيام نزل عبد الرحمن إلى البركة بعد الظهر مع السفانة، معه الصياد خالد، فتوقفا في مربط التجار ليفحصا سلعهم، فلم يجدا شيئاً مهماً تبقى، لأن الزناتيين قوم أثرياء ومتلهفين على الشراء فلم يبق من السيوف المعروضة سوى بعض الاسلحة المستعملة.

فرفع عبد الرحمن سيفاً منها، وقال لخالد في خيبة: «كان علينا أن نأتي قبل هذا الوقت، فلقد سمعت أنه كان لهم سيوف جيدة للبيع، و يقال إن حديد الأندلس هو في نفس جودة حديد الشام».

فهز خالد كتفه و سل سيفه العادي المستعمل إلى نصف غمده وقال: «إن الحديد لا يزيد جودة على الذراع الذي يستعمله».

فضحك عبد الرحمن حتى ظهرت نواجذه. لقد أخذ يشعر بالعطف على هذا الشاب

الزناتي الصريح الذي أنقذ حياته. و أجاب: « إن السيف الأفضل يجعل الذراع أكثر جودة! »

و كان تاجر طويل كهل واقف عن بعد، و هو يراقب عبد الرحمن بتركيز، عيناه الفضوليتان تقيس السفانة التي كانت واقفة وراء سيدها. فانحنى ليسأل بصوت خافت إحدى الشباب الزناتيين عن شيء، ثم اختفى في خيمة، وبعد لحظة، خرج و في يده سيف وغمد.

فقدمهما إلى عبد الرحمن و قال: « ربما سيعجب هذا الشيخ ».

فأخذه عبد الرحمن بتعجب و سل السيف الرفيع، كان سيفاً جميلاً حقاً، كان حديده أزرق خافتاً، و مقبضه منقوش لمطابقة اليد، و مغطى بالفضة. و غمده مصنوع من قطعة عاج واحدة. فابتهج عبد الرحمن به ابتهاجاً كبيراً.

و قدمه لخالد و قال: « كيف يناسب هذا ذراعك؟ خذه فهو لك ».

لقد كان يود أن يعطي هدية مناسبة للزناتي منذ زمن طويل، و فعل ذلك فجأة الآن بدون أن يسأل عن ثمن السلاح.

فتعجب خالد لكنه سر كذلك، فحاول أن يوازن السلاح و قال: « إنك كريم القلب يا أمير! »

و أشار عبد الرحمن إلى التاجر ليأتي معه جانباً، فلم يرد أن يتذاكر معه في ثمن السلاح و خالد يسمعه بعد أن أعطاه إياه هدية، فسأل التاجر: « كم ثمن السيف؟ »

فهز التاجر رأسه و قال بلطف وعيناه تلمعان بالمعرفة: « ليس له ثمن يا أمير، إنه هدية لعبد الرحمن بن أمية ».

فقال عبد الرحمن متعجباً: « هدية! »

فأجاب الرجل بصوت خافت سري: « من الأندلس، ألست عبد الرحمن؟ »

فهز عبد الرحمن رأسه بتان: « نعم، أنا هو »

فهمس التاجر قائلاً: « تحية لك يا أمير و ثق بي، عندي هنا شيء يخبرك عن منزلتي ». ثم وضع يده على خنجره في حزامه يريد أن يخرجه.

فتراجع عبد الرحمن محتاطاً، لكن خالداً كان أسرع منه ومن التاجر. فوثب المحارب بينهما. و سيفه الجديد مسلول و موضوع على صدر التاجر، و صاح بصوت غاضب: « يا كلب الخيانة! هنا في أرض زناتة ستموت و يموت كل من معك ».

فصاح التاجر: « لا! ليست هناك خيانة! لي رسالة للأمير، ها هي سأريك إياها ».

وبينما ترك خالد رأس السيف فوق قلبه، أخذ التاجر يخرج الخنجر من الخزانة ويتحسس بارتباك جانب الخنجر، ثم فتحه من مؤخرته حيث كان له مخبأ سري صغير جداً، فأخرج منه ورق رق مطوي حتى صار رقيقاً وطويلاً، وكان يرتعد من وجود السيف المسلول على صدره، لكنه حافظ على كرامته. فقال: «هذه لعبد الرحمن بن أمية». ولم

يتحرك رجل من التجار أو خدمهم من موضعه.

فأخذ عبد الرحمن الرق من يد التاجر وفتحه، فوجد مكتوباً عليه باللغة العربية: «حامل هذه الرسالة عبد الملك من قبيلة قريش الموقرة، ومن وجهاء مدينة مالقا من بلاد الاندلس، لقد فوض هو ورفيقه موسى بن خازن للكلام باسمنا نحن رؤساء وكبار الأندلس، أنجح الله مسعاهما!».

وتبع ذلك سلسلة من التوقيعات، فعرف منها عبد الرحمن أسماء لأشخاص خدموا الأمويين عندما كانوا في الحكم.

فتقدم عبد الرحمن وأبعد السيف العاري عن صدر عبد الملك، وسأل ذلك الرجل الذي يدعي التجارة قائلاً: «ما معنى هذا؟».

فتنفس عبد الملك الصعداء، وكان لباسه قد تمزق وانفتح على صدره. واحمر من أثر الدم الذي نزف عليه، نتيجة رأس السيف الحاد الذي كان مضغوطاً على صدره، إلى بعد أصبع من قلبه. ورمى عبد الملك الخنجر وغمده على الأرض وقال: «لي كلمات أيها الأمير أريد أن أهمس بها في أذنك، اريد أن أتكلم معك في خلوة. وليفتشني الزناتي إن أراد عن أي سلاح مخفي . وليقتلني وليقتل كل من معي إذا حاولت أن أؤذيك».

فقال خالد بشراسة: «سأفعل ذلك!». وأتى رجال زناتيون آخرون مسلحون بسرعة عندما رأوا ذلك الاضطراب، حتى شيخ وقف بباب خيمته.

ولم يكن عبد الملك مسروراً بالانتباه الذي أحدثه، فقال: «يا مولاي الأمير، أريد أن أتكلم معك وحدك. لي شيء في غاية الأهمية أريد أن أقوله لك».

فقال عبد الرحمن: «هؤلاء أصدقائي، ليس لي معهم سر. لنذهب إلى خيمة الشيخ».

فقاد عبد الرحمن الجميع إلى سرادق الشيخ وذهب معه عبد الملك وتبعهما رجال من بين التجار ظهر عليهم أمارات الوجاهة، وتبع الجميع خالد وأربع زناتيين آخرين وبأيديهم السيوف.

عندما وصلوا إلى شيخ، قال عبد الرحمن: «أيها الشيخ العظيم، يقول هؤلاء الرجال إنهم من الأندلس وإنهم يأتونني برسالة، أريد أن أسمعها بحضرك. فأشار لهم شيخ بالدخول إلى سرادقه المفتوح، فانحنى التاجران له، وقال عبد الملك: «يا شيخ زناتة إن حياة كثير من الرجال العظام مرهونة بالكلمات التي سأنطق بها. أرجوك أن لا تترك أحداً يسمعها سواك أنت وبعض أعوانك الموثوق بهم. اترك سيف يدك فوق عنقي إن أردت وأنا اتكلم، ولكن اسمح لي بهذه الخلوة».

كان يتكلم ويده ترتعش من صدق رغبته. فنظر إليه شيخ بصرامة وهو ممسك بذراعيه ثم أومأ برأسه ولكن لم تفارق الصرامة وجهه.

فادخل إلى الخيمة عبد الرحمن والتاجرين وخالداً وثلاث زناتيين آخرين من الرؤساء ثم أسدل ستارة باب الخيمة وأبعد الآخرين، وواجه عبد الرحمن الرسولين وقال لهما: «قولا

رسالتكما».

فانحنى عبد الملك لعبد الرحمن وانحنى رفيقه بجانبه، وكأنهما نسيا باقي من في الخيمة. ثم استقام عبد الملك وكان على وجهه وقار، ثم تكلم : «هذه رسالتي لك: «تحية لك يا عبد الرحمن آل أمية! إن الخلافة تنتظرك في الأندلس، ليس لك إلا أن تأتي وتستلمها، فالرجال الذين وقعوا على الرق يعاهدونك بجيش عند رسوك على بر الأندلس»».

فبهت عبد الرحمن في الرجل وقال له: « ما معنى هذا ؟ ».

فقال خالد باحتقار: «هذه خدعة . خدعة جبناء ابتكرها الخليفة ليبطش بك؟».

فأخذ رفيق عبد الملك يهز رأسه. كان قبل ذلك صامتاً، لكنه أخذ يتكلم الآن بسلطة وفصاحة لا يمكن أن تكونا صادرتين عن تاجر بسيط.

فقال: «ليست هناك خدعة. لقد سافرنا مئات الأميال في سرية تامة من أجل غاية عظمى. إسمع، إنك تعرف ان الأندلس فرقها الشقاق، فالنصارى يزدادون قوة يوماً بعد يوم. في الجبال الشمالية، وكل شيخ أو والي ينازع جاره على الشبر والشبرين من الأرض. إن الأندلس عاشت في كنف الإسلام أربعين سنة. ولكنها لم تعرف السلام يوماً، فبعد الخليفة في الشام كبير جداً ولا يمكنه أن يحل مشاكلنا، وأرضنا التي تستحق أن تكون مزدهرة وسعيدة، فرقها النزاع بين الطوائف ولا يوجد رجل واحد له القوة الكافية لكي يضرب عليهم بيد من حديد ويوحد البلاد».

وتوهجت عينا المتكلم، قد أثرت فيهما عظمة الرسالة التي أتى بها، ثم تابع كلامه قائلاً: «إسمع جيداًيا عبد الرحمن، إن قصة هروبك المدهش وصلت أرض الأندلس، والكل يعرف فضائلك وشجاعتك مقابل المحن الضخمة. وكذلك حظك الكبير أن الله عزّ وجلّ حفظك من كل المخاطر! وكثيراً من أعيان الأندلس، عندما عرفوا هذه الأشياء اجتمعوا خفية واتفقوا على مساندة قضيتك. إن دم الأمويين أشرف من أولئك الرؤساء الصغار، أنت وحدك يمكنك أن تجمع الطوائف حولك وأن تأتي بالسلام والازدهار للأندلس!».

وتوقف عن الكلام وخيم سكون تام على الخيمة وجلس عبد الرحمن ضائعاً تحت عظمة المسؤولية. فهذا الرجل يعرض عليه ملك الأندلس!.

وأخيراً خرج عن صمته وقال: «وما يدريني أنك تقول الحقيقة؟»

فتقدم الرسول الأول بكل سرعة وقال: «إن إبني معي. فليأخذه الزناتيون كرهينة. والموت له إذا نحن خناك».

وفي هذا الوقت كان شيخ يدرس الرسولين بتفحص حاد، فقال: «ما قالاه عن الأندلس صحيح. فالبلاد في حرب مستمرة كما يعرف أهل إفريقية. وانظر كيف أن الخليفة لا طاقة له في نشر الطمأنينة حتى في بلاد البربر».

فقال عبد الرحمن : « إذن تعتقد أنني يجب أن اثق بهؤلاء؟» .

فأجاب شيخ: «إن كلامهما معقول. وسوف يكون الموت عقوبتهما إذا كانا كاذبين» .

فتكلم عبد الملك بتلهف محاولاً أن يقنع بحججه فقال: «أيها الأمير، إن كل كلمة نطقنا بها هي صحيحة. خذني أنا وابني وموسى بن خازن هنا كرهائن إن شئت. وكل ما نطلبه هو أن نبعث بخبر ذهابك إلى الأندلس لكي يكون الناس الذين ينتظرون قدومك على استعداد لمساندتك. وحياتنا ضمان لحقيقة وعودنا» .

وتنهد عبد الرحمن بعمق وقال: «أصدقكم، ولكن كل هذا غريب ومفاجيء. اتركني أسير قليلاً وأفكر في الموضوع» .

فقال الرسول الآخر ملحاً: « زن قرارك جيداً يا أمير! فالزناتيون شجعان وكرماء ولكن هل بامكانهم أن يحموكم إلى الأبد، والخليفة يزداد قوة كل يوم؟» .

فوقف عبد الرحمن وأدار وجهه نحو باب السرادق وهو خرج فقال: «سأفكر قليلاً ، ثم أخبركما بقراري» . وذهب مباشرة إلى الكثيب العالي الذي يشرف على الواحة.

وسار كأنه في حلم، كل ذلك أتى من لا شيء ! وأتت إلى قلبه بكل إشعاعها وكل حياتها، تلك الآمال والطموح اللذان يشتعلان في قلب كل حي، وتذكر في الوقت القديم كلمات ذلك العراف الغجري في وادي السرحان، وهو يقول: «وأصوات تصيح: عشت! عشت! وكأنهم يكلمون زعيم جيوش» .

وفكر في وجه الحوراء، وفي ذلك الأمل البعيد بأنه سوف لاجيء ليس له ملجأ يأويه! .

ووصل إلى قمة الكثيب الطويل، وهو يفكر في هذه الأفكار العظيمة، وظهرت تحته الواحة الفسيحة، وحوله متاهات الصحراء، كانت الشمس تميل نحو الغروب، وكل الأشياء في غاية الجمال.

وظهر المشهد من أعلى الكثيب كأنه لا نهاية له. فالأندلس إلى الشمال ومصر إلى الشرق. وظهرت المسافات الكبيرة، وفجأة قد ذهبت وكشفتها عيناه بنظرها البعيد.

وجاءت إلى مخيلته فكرة أخرى لتوقف من حد ابتهاجه. ذكرى حديثة. لم تغير عزمه، لكنها جعلته يتواضع ويتزن في أفكاره.

تذكر ذلك الوقت الي كان فيه مريضاً، وتلك الأيام والليالي المزعجة التي عاشها وقد انقطع طموحه إلى الأبد. وكل ما كان يتمناه حينذاك هو أن تعود إليه صحته، وتعود إليه سعادة بسيطة مثل تلك التي وجدها مع الحوراء في وادي السرحان، ما أيسر النسيان على الإنسان.

فرفع رأسه إلى السماء الزرقاء، وقال: «يا رب إنك تعلم ما في قلبي، لست إلا بشر له آمال لا تنقطع كأي بشر، وما سأقوم به، سأفعله لأني أحب طريق العزة، والشرف، وسأسمو بنفسي وبالذين أحبهم إلى مراكز حسنة، سوف لن أضل عن صراطك، ولن أخدع نفسي ولن أنسى الدروس التي علمتني، سوف لن أنسى الدروس التي مرت بي؛

ولا الخير الذي عرفته في حياتي، سوف أتذكر كل ذلك، إذا أنا صرت اميراً على الأندلس».

و أتخذ قراره هذا ونزل نحو الخيام، وأخذ الرجال الزناتيون والنساء ينظرون إليه ويتهامسون بتعجب، وهو يمر بهم، فلقد شاعت في المخيم إشاعات غامضة عن الغريبين اللذين تعرضا للأمير الشاب.

وجلس الرسولان ينظران بقرب شيخ، وبعض الزناتيين في الخيمة، وعندما دخل عبد الرحمن وقفا متطلعين إلى ما سيقول.

وذهب عبد الرحمن مباشرة إلى شيخ وقال له: «لقد كنت كاب لي، وأنا مدين لك ولزناتة بحياتي وبآمالي للمستقبل، فلك أنت أريد ان اقول: إنني احب أن أذهب مع هؤلاء إلى الأندلس، إني أطلب إذنك وموافقتك».

وصار الأمر الآن بيد الشيخ ليعطي موافقته. فعبد الرحمن يمكن أن يكون أسيره مثلما كان ضيفه. فلقد كان له إعتزاز الحكام الأقوياء ولن يبل أن يستخف به. وعندما حدق الشيخ الزناتي في عبد الرحمن، كانه وجهه الوقور مفعماً بالابتهاج غامراً كأنه ينظر إلى طيف. لقد عرف معنى القوة في حياته وهو الآن يشاهد حلماً عظمياً.

فقال: «إنني أعطيتك موافقتي يا أمير. وأكثر من ذلك، ، إني أسمح لكل من أراد من الرجال الزناتي أن يذهب معك إلى الأندلس، إن الاسم العظيم لا يبقى عظيماً إلا بمعونة حراب الشجعان».

ورمى خالد بسيفه المسلول عالياً داخل الخيمة وصاح: « عاش الأمير! سيسافر معك الف فارس زناتي وأكون أنا من بينهم!».

وجثا الرسولان ذوا اللحية البيضاء على ركبيتهما أمام عبد الرحمن وقالا: «السلام على الأمير! لنكن أول أندلسيِّن يبايعانك بالإمارة».

فأخذ عبد الرحمن كلا الرجلين من ذراعيهما ورفعهما حتى وقفا، وقال والإنفعال يشد صدره: «صديقي، سأعمل جاهداً لأكون مستحقاً لهذه الثقة العظيمة!.

وقال الرسول عبد الملك وعلامات التأثير ظاهرة عليه: «يا أمير . . . ».

وتوقف عن الكلام والآمال الغامضة التي تحملها رسالته ظهرت وكأنها تحققت بوعد ابن بيت الخلافة الأموية هذا، ثم قال: «إن أمر الله غريب. فلقد جئنا خفية آملين ان نأخذك معنا خفية لأن هناك ناس كثيرين سوف يحاولون إيقافك وستضطر إلى النضال بشدة للاستيلاء على الأندلس كلها، ولكن قد جاء معك هؤلاء الزناتيون الشجعان، فالطريق مفتوح أمامك.

فأشار شيخ بيد مهيبة وقال: « إضرب بسرعة ومباشرة الآن، وقد اعتمدت، سوف أبعث بالرسل الليلة لجمع محاربي زناتة. فستذهب معك زهرة شبابنا!».

إلى البحر

كان الجمع كبيراً وكأن كل قبيلة زناتة استجابت لنداء الانتصار في الأندلس، فلقد أتى الرجال المسلحون نحو تاهرت من مقرين، وتماسين وحتى من عين صالح البعيدة، فامتلأت الواحات بجمع قوي، وسار عبد الرحمن الذي تجري في عروقه دماء بين أمية و دماء زناتة، سار مستعداً لفتح الأندلس. فكل من أراد أن يشارك في النصر في تلك البلاد البعيدة، عليه أن يتبع العلم الأبيض.

واجتمع حوالي ألف محارب والمسلحون لا زالوا يتقدمون وكل واحد منهم كان له جواد جيد للحرب والأسلحة كالسيف والتراس والحربة. فملأوا الواحة ، وأتى رؤساؤهم يبايعون الأمير وتزاحم هؤلاء الرجال المحاربون الأشداء حول خيمة عبد الرحمن.

وإذا كان قد تبقى شيء من الشك في ذهن عبد الرحمن فلقد غاب نهائياً عندما رأى هذا الجمع فهو استجاب لطلب الرسل وسانده الزناتيون بكل قواهم. ولم يعد هناك خط للرجوع، ووجد نفسه زعيم جيش تقريباً قبل أن يستعد لذلك. وألح عليه الرؤساء بالتحرك فوراً، فوافق عبد الرحمن وبدأت المسيرة بسرعة خاطفة.

كان ضرورياً أن يسارعوا قبل أن يشيع خبرهم إلى المناطق النائية، وبعثوا أمامهم الرسل مع فرق صغيرة من الحراس الزناتيين لكي يهيئوا النقل البحري، ويخبروا أهل الأندلس. ورفض عبد الرحمن بكل شهامة أن يحتفظ بأحدهم كرهينة لسلامته، فالمغامرة كبرت، ولم تعد تقاس بحياة بعض الرهائن.

وفي الصباح الذي قرروا فيه مغادرة الواحة، خرج عبد الرحمن من خيمة شيخ لآخر مرة. وخرج الشيخ الزناتي، ووجهاء القبيلة معه لتوديعه وتوديع جيشه. كان ذلك مغامرة عظمية ومثيرة لقبيلة زناتة، فلم تكن هناك عائلة ليس لها على الاقل رجل واحد محارب ذاهب معهم.

وقال شيخ: «يا أمير لا تشكّ في مصيرك أبداً إن الله قد حفظك لغاية سامية تذكر هذا دائماً!».

فأجاب عبد الرحمن موافقاً: «لقد رعاني الله وسوف لن أنساه ولن أنساك أنت كذلك الذي آويتني عندما طردني الناس. جئت إلى خيمتك مريضاً ضائع الأمل، واخرج منها الآن وآمال عظمية تغمرني. وحتى إذا صرت أميراً على الأندلس فسوف لن يقل إجلالي لك أبداً».

فعانقه شيخ وقال له: « يا ابني! سوف نعيش لنسمع أخبار انتصاراتك ليتني كنت شباباً قادراً على الذهاب معك !».

وكان عبد الرحمن قد سلم على الآخرين مودعاً وسلم على النساء وأطفال الخيمة.

فركب على جواد كستنائي اسمه جريد، وتبعته السفانة لكنها لم تحمل أي راكب.

ووقفت حفيدة شيخ مع النساء تلك التي أتت بصحن مشمش من قبل. فأخذت تنظر والحزن ظاهر على عينيها، وكانت صغيرة وناضجة للزواج. وكان عبد الرحمن يشعر بلمحاتها الصبيانية عدة مرات في اللحظات القصيرة التي التقى بها فيها في الأشهر الأخيرة وابتسمت له فتيات زنايات أخريات فشعر بجمالهن البالغ يغمره.

وسر عندما رأى أن شيخ لم يلمح له من جديد بزواج امرأة زناتية، وربما كان ذلك الشيخ السياسي الماهر، معتمداً على فعل ذلك في المستقبل ، لكن نداء الأندلس غير كل شيء، فلم يبقى إلا التهيؤ للحرب والسفر الطويل، لقد وضع شيخ مصير قبيلة زناتة كلها في مخاطر عظيمة وفي ذلك الوقت لم يعد مجال للتفكير في النساء. وكان عبد الرحمن مسروراً فقد أخذ نجمه يرتفع عالياً. وقدم شيخ لعبد الرحمن علماً أبيض مثبتاً عليه رمح طويل وقال: «هذا علمك يا أمير أين ذهب ستتبعه شجاعة زناتة!».

وعندما أمسك عبد الرحمن بالعلم انجرت صيحة عظيمة من الجماهير الذين حوله، وأعطاه لخالد الذي كان راكباً بجانبه وهكذا اختار ذلك الزناتي الجريء حامل لواءه.

وصاح عبد الرحمن: «وداعاً! وتقدم وهو فوق جواده الكستنائي، وخالد بجانبه يحمل اللواء الأبيض، وجيش الفرسان يتبعهما. وأخذ فارس طبال في الطليعة يضرب على الطبل بوقع بطيء وكأنه الرعد يتتابع.

وخرج الزناتيون يتدفقون من بين بساتين النخيل وخارج الخيام المفتوحة، وتقدم النساء والأطفال يمشون بجانب الفرسان. وظهر المنظر وكان كل القبيلة ستهاجر.

وتبعت تلك الجماهير اللواء الأبيض ودقات الطبل على كثبيات الرمل خارج الواحة. وأخذ أولئك الناس الذي تبقوا يتركون المسيرة تدريجياً، وتجمعوا فوق قمم الكثيبات ينادون بأعلى أصواتهم ويلوحون إلى الفرسان وهم يشاهدونهم يتقدمون إلى الصحراء نحو الشمال الغربي.

وتقدم الجيش الزناتي بسرعة مذهلة. لقد كان حب النضال في دمهم وكانت سرعة الهجوم في تراثهم. وأخذت مسيرتهم ثلاثة أيام بين تاهرت وطلقة التي كانت آخر قرية في أرض زناتة، وكذلك آخر قطعة من الصحراء.

وعلى طول الطريق التحقت بهم جماعات جديدة من المناضلين حتى وصل عددهم إلى ألف وسبعمائة رجل. وكان ذلك تقريباً ضعف ما كان عبد الرحمن يتوقعه، فسوف تكون هناك مشكلة لحمل هذا الجمع كله إلى الأندلس وبعد طلقة، انتشرت السلاسل الجنوبية من جبال الأطلس وأرض أولاد نُعَيْل.

وبدون توقف تابعت سحابة الحرب الزناتية طريقها، كان بالإمكان أن يبعثوا الرسل أمامهم ليخبروا القبائل أن نيتهم آمنة ولكي يطلبوا منهم مروراً سالماً ولكن الجيش كان يتقدم بسرعة لا يمكن أن يوقفها الرسل، فأخذوا يعلنون الأمان في طريقهم وكانت قوتهم أقوى

من أن يعارضهم أحد.

وأخذت إشاعة مدهشة عن حملتهم تنتشر إلى الخارج عبر الجبال: جيش زناتي يغزو الأندلس تحت إمارة شاب غامض الهوية. وقبل أن يمكن لتلك الأخبار المدهشة أن تسافر عبر القرى البربرية الصغيرة، كان الزناتيون أنفسهم قد سافروا عنها وسبقوا حكاية قدومهم نفسها.

وأخذ سفرهم عبر الأطلس الصحراوي والسهل الذي بعده أسبوعاً كاملاً وبعد الصحراء صارت الأرض جديدة ومنعشة ومنتجة كذلك وكانت جداول صغيرة تنزل من الجبال وتضيع في السهل، وغابات البهشة (الفلين) تنتشر على سفح الجبال والطريق كلها كانت مدهشة، وأهلها معروفون بغدرهم ولكن كان ألف وسبعمائة سيف يرعون الجيش الزناتي الذي سافر عبر تلك المنطقة كزوبعة قادمة من الصحراء.

وبعد عشرة أيام من سفرهم، وصلوا إلى وادي الشليف جنوب قرية قصر البخاري، وارتفعت معنوية عبد الرحمن عندما رأى المياه الصافية تجري في النهر، فإذا استثنينا نهر النيل الموحل، فإن هذا النهر هو الأول الذى رآه عبد الرحمن بعد سنتين، كان كوعد من الأندلس وبشرى للأيام القادمة.

وأخذ القواد الزناتيون ينظرون بشدة إلى سهل شليف الفسيح، الخصب، ينفتح أمامهم وهم يغامرون بقوتّهم، والشمس تلمع في سيوفهم.

كان بإمكانهم أن يجربوا طريقاً من السلب والنهب عرضها خمسة أميال عبر ذلك السهل كله، وربما فكروا في ذلك في قرارة أنفسهم ولكن وجه أمير أمية الموطد بالعزم، كان يرى أعلى من ذلك فقاد لواءه الأبيض بدون توقف وتبعه فرسان الصحراء الأقوياء وكان عبد الرحمن قد اتفق على الخطة مع الرسل في تاهرت وهي أن اللقاء يكون في مدينة تنس على البحر قرب الطرف الغربي من وادي شليف الفسيح على بعد مائة ميل، منهم.

الشعير وأشجار الزيتون ! البساتين والكروم هذه قطعة من الأرض كانت مزرعة روما القديمة، إنها ترتعد الآن ذعراً من عبور جيش زناتة عبرها. وأخذت قبائل الجبال المجاورة تتحرك بقلق عندما رأت الجيش يتقدم من بعيد، وأملها نهب السهل، ولكن الزناتيين لم يحطموا شيئاً وأخذ القرويون الذين ارتاحوا لهذا التصرف، يأتون بالأكل والأدلة، لقد كان مرورهم العاصف مكان رهبة لأهل البادية، وحتى لأهل الجبال.

وبعد أربعة عشر يوماً من خروجهم من تاهرت، ترك عبد الرحمن وأتباعه النهر واتجهوا نحو الشمال عبر واد واسع يمشي فيه المسافرون وقد قال لهم الأدلة: إنه يؤدي إلى تنس وإلى البحر.

وفي طريقهم، التقوا بقوافل صغيرة من الرجال والحيوانات في طريقها بين الجبال وسبقوها، وكانت هذه الحركة ناتجة عن نقل إنتاج وادي شليف إلى البحر الأبيض عبر هذه الطريق، وكانت دائماً تحدث الفوضى بين هؤلاء المسافرين عندما يكتشفون أنفسهم فجأة بين

هذا الجيش وأخذت علامات من الدخان تعلوا من أبراج الحراسة فوق الجبال مرتين ولكن لم ينازعهم أحد على الطريق، وفي عشية ذلك اليوم وصلوا إلى هدفهم، تنس على شاطئ مياه البحر الزرقاء.

فخرجوا من مدخل وادي هلالة بين جروف برتقالية، فظهرت لهم المدينة الصغيرة البيضاء وميناؤها. وعلى الشرق انتشر جبل ضخم على بعد ميل أو أكثر خارج المدينة، كانت تنس ميناء هاماً فيه أيام قرطاجة، وبعد ذلك صارت معسكراً للرومان، ثم عادت الآن ميناء ترسو في السفن الشراعية.

وعندما ظهر الفرسان وهم يأتون من الجبال حدث انزعاج كبير في المدينة فنفخ في البوق بصوت عميق من أعلى سور المدنية وأخذ الناس يدخلون بهائمهم بكل سرعة عبر أبوابها كانت الشمس المائلة نحو المغيب تسطع ببريق من النور، منعكس من أسلحة الرجال على أسوار المدينة.

وأحاط القواد الزناتيون بعبد الرحمن، وتقدموا قيلاً ليستطلعوا الطريق واللواء، الأبيض في مقدمتهم، وخرج فرسان الصحراء في تنظيم منسق على السهل وراء القواد وانفرج بسرعة أمامهم ذلك السماط الضيق من حدائق أشجار الفواكه الذي يحيط بالمدينة، واجتمع الناس على الأسوار.

وأخذ حامد، أحد القواد الزناتيين يحدق في ذلك المنظر، ثم قال: «وسيف أبي، هل سافرنا هذه المسافة كلها على وعد فارغ، فليحذر هؤلاء التجار سنقتحم هذا المكان ونحطمه إرباً إرباً إلى الأرض!».

وأخذ القواد ينظرون إلى عبد الرحمن باندفاع واحد، لقد قادوا الرجال عبر الجبال، وأمسكوهم عن النهب، وأخيراً وصلوا إلى غايتهم، فليظهر أمير أمية قدرته الآن.

وكان عبد الرحمن يتهيأ للنزول إلى المدينة، عندما خرج من إحدى ابوابها جماعة من الرجال، كانوا مترجلين ويحملون علماً أبيض صغيراً على عصا، فتقدموا عبر الفراغ وراء الحدائق وقدموا نحو عبد الرحمن، وسرعان ما تبين أنهم غير مسلحين، لا شك أنهم بعثوا كمنتدبين إليه، وعندما اقتربوا ميز عبد الرحمن عبد الملك، ذلك الرسول الذي أتى برسالة من الأندلس إلى تاهرت.

فصاح عبد الملك من بعيد: «السلام عليك يا أميرا» وانحنى الآخرون مسلمين، وتقدم عبد الملك بمفرده.

فأجاب عبد الرحمن: «وعليك السلام» وترجل عن دابته وعانق الرجل الكهل بكل حرارة. ثم سأل بصوت خافت: «لماذا أقفلت المدينة أبوابها في وجوهنا وسلحت نفسها ضدنا؟».

فأجاب عبد الملك بشدة: «لا هذا تمثيل فقط، ربما في يوم من الأيام يأتي جيش من الخليفة، فيمكن حينذاك أن يقول أهل تنس إنهم أقفلوا الباب في وجهك، فإنهم لن

يزعجوك فاترك رجالك يخيمون الليلة على الشاطئ وغداً نبحر بهم».

ونظر إلى جماعة جنود زناتة وراء عبد الرحمن، ثم قال: «لقد أتى معك جيش ضخم يا أمير»!.

فصاح فيه قائد زناتي منذراً بصراحة: «جيش يكفي لتحطيم هذه الأسوار إذا كان هناك غدر».

فأجاب عبد الملك ملحاً: «ليس هناك غدر، سأمضي الليل معكم في خيامكم أنا ومن معي، فأهل هذه المدينة أصدقاؤكم».

وقدم عبد الملك الرجال الذين أتوا معه لاستقبال عبد الرحمن، كانوا يمثلون الفرقة الحاكمة في المدينة التي لها مصالح تجارية مع الأندلس، وكانوا متذللين في تحياتهم ومؤكدين أن كل شيء سيمشي على ما يرام.

فقال عبد الرحمن للقواد الزناتيين: «سنخيم للمبيت خارج المدينة».

هكذا خيم الزناتيون بجانب المدنية على ساحل البحر، وبجانبهم مدينة تنس وسكانها الثلاثون ألفاً، ربما كان بإمكان تلك المدينة أن تجند عدداً من الفرسان أكثر مما عند عبد الرحمن ورغم ذلك فلقد زرع الزناتيون مؤخرات حرابهم فوق الأرض بقربهم، كأنهم جيش فاتح، فأخذ معسكرهم يلمع كبحر من الحديد برؤوس الحراب التي تعكس ضوء الشمس على ساحل البحر.

وفي أول الليل أخذ وهج النار يضيء المخيم الزناتي هنا وهناك، حتى أضاء أسوار المدينة والجنود المدافعين عنها.

ولقد حدثت بعض الفوضى والعداء داخل تنس، وتبين أن وجهاء المدينة كانوا على علم بالخطة، لكن الشعب لم يخبر بقدوم الزناتيين.

فعملوا على تهدئة الناس حتى نزلت السكينة على المدينة بنزول الظلام.

وبعث عبد الملك بسرادق ووسائد لعبد الرحمن من أجل راحته، وجاء هو وجماعته بحوالي أربعين خروفاً مذبوحاً للمعسكر الزناتي وصار السهل أمام الأسوار يلمع بالنيران العديدة التي أوقدت لشوي الأكباش، وأخذ الناس يخرجون من المدينة لبيع بعض البضائع للزناتيين، وهكذا مر الليل بسلام.

وفي الصباح ظهر وكأن أهل تنس انقلبوا إلى أنصار الزناتيين إبان الليل، فلقد تبين أنهم نسوا كل المخاوف التي يمكن أن تكون عندهم من غضب الخليفة البعيد. فخرجوا في مزاج حافل ليتفرجوا على الزناتيين وهم يتهيّأون لذهابهم. وبعد الفجر بقليل، جاء عبد الملك يخبر أن السفن على استعداد، ولكن لحسن الحظ، كانت هنالك سفن في ميناء تنس. لقد فوض له حزبه في الأندلس الذي يمثل وجهاء التجار بأن يدفع أجورهم فعمل ترتيبه مع الربابنة إبان الليل.

ورغم ذلك لا يمكنهم أن يأخذوا الخيل كلها. فلم يكن معهم سوى ستة عشر سفينة،

ولهذا فلن يأخذوا سوى نصف الخيل، وسوف يضطرون إلى ترك الباقي في تنس. ووعد عبد الملك الذين تركوا جيادهم بأنهم سيعطون جياداً عوضها في الأندلس، فأزيح من الخيل كل الحيوانات الجريحة أو التي تعبت في سفرها، وأجرى القواد القرعة على باقي الخيل، وأخذ هذا العمل نصف الصباح، وطبق بدون أن يحتج أحد.

وطبعاً اختيرت السفانة مع الخيل التي ستسافر، ولو اضطر عبد الرحمن لألح في ذلك، ولكن الزناتيين أنفسهم، يعرفون حكاية تلك الفرس الغريبة. وكانوا ينظرون إليها كحيوان من نوع ممتاز، كمخلوق اختاره الله. ويتيمنون بها. وأخذوا ينظرون إليها بعناية مزدوجة بسبب حملها. فكان أخذها نوعاً من الرفاهية، لم يريدوا أن يتنازلوا عنه.

وفي الضحى، كان الكل مستعداً. ونزل الزناتيون إلى البحر خارج اسوار تنس وهم يقودن الخيل الي ستركب، وكانت سفن من نوع القراقير الشراعية راسية بجانب المرفأ الصخري الطويل الذي كان بارزاً من الشاطئ نحو البحر. وكانت أسوار المدينة على شاطئ الماء. لكن البحر كان جزراً فلم يجد الرجال ولا الحيوانات أية صعوبة في الذهاب حول سور المدينة إلى المرفأ.

وخرج جمهور كبير من تنس لينظروا إلى الزناتيين وهم يبحرون، وكان ربابنة السفن هناك وكذلك وجهاء المدينة فقد عمل عبد الملك جهده على أن تسير الأمور حسب الترتيب وكان نسيم الصبا يجعل ماء البحر يرقص في الميناء، وأخذت القراقير تهتز بلطف بفرسانها، كانت تظهر صغيرة وهشة من الشاطئ وأضحى من المستحيل أن يركب هذا الجيش كله عليها.

وأخذ عبد الرحمن يفكر، إن هذا كله خيال وهو يقود السفانة على رأس زناتة، فكثيراً ما كان في الأسابيع الأخيرة يشعر أن كل ما يراه ليس إلا مناما، لكن هذا مصيره هو كذلك، فمنذ سنوات كانت قوى تدفعه لا يعرف كنهها، ولم يظهر له إلا اتجاه واحد. فتبع ذلك الاتجاه.

وكان ربابنة السفن يعلقون قرطاً ذهبية في آذانهم، فأخذوا يسلّمون على عبد الرحمن هم ووجهاء المدينة يقولون: السلام عليك يا أمير ! انجح لله مسعاك يا أمير وسدد الله خطاك!».

وكان ذلك علامة للجماهير وراءهم لكي يصيحوا بدعواتهم ويمدوا أيديهم طلباً للمال، وكان عبد الملك مستعداً لذلك، فلقد أتى بكيس فيه قطع فضية، فتقدم أمام عبد الرحمن، وأخذ يرمي بحفنات من الدراهم على الجماهير.

وأخذ الناس يزدحمون على المال. وتقدموا وأخذوا يمدون أيديهم لعبد الرحمن ويصيحون : «صدقة - صدقة».

ووضع خالد يده على سيفه وباقي قواد زناتة المحيطين بعبد الرحمن وصالح: «اذهبوا لحالكم!».

وأمسك هؤلاء الزناتيون بقبضة سيوفهم مستعدين لسلها، فليسوا متحملين سماع غوغاء الدين يسكنون داخل الأسوار.

فوبخ عبد الرحمن الزناتيين وقال: «لا، ليسوا إلا أناساً فقراء يطلبون لقمة العيش».

وأسرع عبد الملك والرجال ذوو النفوذ الذين معه، بابعاد الناس عن الطريق فإنهم يعرفون خطر سيوف زناتة إذا سلت، وليس من المستحيل أن يهجم رجال الصحراء هؤلاء على تنس ويقتحمونها.

وقاد عبد الرحمن السفانة إلى المرفأ، وتبعه الرجال والخيل على ذلك الطريق الطويل الممتد في البحر إلى السفن، وكان البحارة قد حملوا البهائم قبل ذلك، فهناك معابر خشبية تودي إلى ظهر السفن. وجاء عبد الرحمن بالسفانة على ظهر السفينة وربطها على حبل من الأوتاد كانت معلقة على شراع السفينة العالي.

ومباشرة بعد ذلك أخذت الواح السفينة تدوي تحت ضربات حوافر عديدة، وأخذ سيل من الرجال والخيل والزاد يتدفق من المرفأ إلى السفن، يصحبه ضجيج وشيء من الفوضى، لم يكن ذلك المنظر جديداً على تنس. فالمدينة رأت قبل ذلك مرور جنود الصحراء ففرسان نوميديا أبحروا هنالك في طريقهم للإلتحاق بحنابعل، في الأندلس، أيام الحروب الفينيقية. وأخذت السفن تبحر الواحدة تلو الأخرى عندما تكمل حمولتها.

ووقف عبد الرحمن في مؤخرة إحدى السفن الأمامية ينظر إلى أرض المغرب وهي تتباعد وراء اسطوله المنتشر. كان لا زال يشعر أنه في حلم وحتى انزلاق السفينة اللطيف أعانه على أن يفكر أن كل ذلك خيال. كان خيالاً غريباً يتقدم الخطوة تلو الأخرى إلى تحقيق الحلم.

وشعر بالتعب والارتخاء وفي نفس الوقت شعر بسلام عميق، فدائماً كان للبحر تأثير مهدئ ومسكن له. وفكره كان في هناء رغم أن في أعماقه تنام رؤيا الأشياء العظيمة التي ستأتي بمشيئة الله. وخرج عن رأس الأرض، فظهرت مساحات الماء متناهية في الأفق، وبدأ النسيم يهب ببرودة أكثر حيث تحرر من الجبال، فكان المنظر جميلاً والسير هادئاً، والريح تهب كبشارة خير نحو الأندلس.

الأندلس

انظر! إنها الأندلس!

صاح ذلك الصوت في صباح اليوم الثالث من إبحارهم وتزاحم الزناتيون على حواجز السفن لينظروا. لقد سافروا طيلة يومين وليلتين تحت تأثير ريح شرقية متواصلة كانت تعكس عطف البحر والسماء عليهم.

وعبد الرحمن كذلك واقف وراء الحاجز في مقدمة السفينة، فرأى كتلة الجبال البعيدة السوداء وتحتها مدينة مالقة خافتة في بداية الفجر، فلقد أبصر مرشد السفينة ضوءاً من منارة المدينة في آخر الليل، فأخذ يتجه نحو اليابسة. وعندما أشرقت الشمس، أخذت البروج والأسوار تظهر كأنها تخرج من الظلام عبر سواري من سديم الصباح، هذه هي مالقة إحدى موانئ الأندلس القديمة العظيمة.

وكانت حولهم سفن أخرى من الموكب فبسبب الجو اللطيف، لم يبتعدوا كثيراً عن بعضهم البعض، فأخذ البحارون يبعثون بالإشارات لبعضهم متهيئين للرسو.

وأتى خالد ووقف بقرب عبد الرحمن ثم قال: «السلام عليك أيها الأمير» كان بيده حزام سيف وضعه جانباً بمناسبة الإبحار. وقال: «ربما يكون من الأفضل أن نبعث بإشارات للسفن الأخرى وترسوا في نقطة ما على الشاطئ نجتمع كلنا ونتعرف على نزعة أهل المدينة».

وكان حوله قواد آخرون فأخذوا يزنون الفكرة أنها ربما تكون قراراً حكيماً.

فقال عبد الرحمن: «لا! إذا كان الناس ضدنا فلا فائدة في مغامرتنا هذه كلها، سوف نرسوا بفخر وثقة في النفس كما لو أتينا بدون خوف.

ورفع خالد رأسه إلى السماء وأخذ يقهقه ضاحكاً وقال: «سنتبعك يا أمير» على أية حال، فقد فضل أن تسير الأمور هكذا رغم ما اقترحه من الحذر فيما قبل. وتقدم عبد الملك من مؤخرة السفينة بين الخيل إلى مقدمتها، وانحنى على عبد الرحمن ثم قال: «مولاي العظيم، لقد قلت للربان أن يرفرف علماً أبيض على صواري المراكب. كعلامة لأصدقاءنا فوق الشاطئ ستعرف حينئذ مالقة بقدومكم وستستقبلنا بأيد مفتوحة. واحمر وجهه تأثراً للحدث العظيم الذي هم مقبلون عليه، فهذا هو الإنجاز العظيم لمهمته الصعبة الطويلة.

وعندما دخلوا إلى مرسى تلك المدينة البيضاء، انزلوا الشراع، وكانت حولهم سفن الأسطول الأخرى ملأى بالزناتيين وهم يستعدون للنزول إلى اليابسة، وكانت تلك السفن قريبة إلى بعضها حيث أنه بإمكانهم أن يبعثوا بالعلامات لبعضهم البعض، وعندما دخلت السفن نحو أرصفة المرفأ، تحت أسوار مالقة المدرجة الضخمة وقف الزناتيون بأسلحتهم.

وفجأة شعر عبد الرحمن بغربة شديدة عندما كان واقفاً على ظهر السفينة ينظر إلى الماء يسيل حوله، وينظر إلى الأرصفة وإلى السفن الراسية عليها، فكان شعوره شبيهاً بشعوره في أحد الليالي وسط الصحراء عندما دفن طريفاً بعد المعركة بقرب البئر.

نعم، رغم وجود مئات الزناتيين معه، شعر بوحدة عارمة. لقد كان مصيره يلوح قرب عينيه كطيف، وكان على وشك أن يتصرف تصرفاً يجعله معفى من أن يستجيب لأمر أية قوة فوق الأرض، وكان المركب يأخذه إلى ذلك المصير أخذاً لا مفر منه وفجأة أخذ يتساءل هل سيستطيع أن يتحمل هذه المسؤولية؟

ونزل بضع درجات إلى أرضية المركب الرئيسية، حيث كانت تجتمع الخيل والسفانة هناك معلقة بحبل إلى وتد. كان السفر في البحر مضنياً لتلك البهائم، وكانوا متشوقين بقلق للنزول إلى الأرض فأخذوا يصهلون ويضربون ظهر الباخرة بحوافرهم عندما رأوا الشاطئ وشموا رائحة الماء. فهمس عبد الرحمن في أذن السفانة قائلاً: « يا عزيزة لا يعرف إلا الله وأنت الطريق الطويلة التي أتينا منها!» وطمأنت الفرس تلك الملاطفة التي تعودت عليها، وكذلك وجود عبد الرحمن بقربها فكلاهما مرّ بصعوبات جليلة حقاً لا يعرف قصتهم إلا الله.

ولف شراع السفينة وانزلقت بتأن إلى مرساها وأخذ البحارة يسلمون على بعضهم ويغنون وهم يرمون بالحبال إلى الرصيف. وجرت القرقورة إلى مرساها، وتبعتها السفن الواحدة تلو الأخرى، ووثب رجال زناتة فوق الرصيف العريض قبل أن تلتصق سفنهم به، وكأنهم يحتلونه إحتلالاً ولكن لم تكن هناك حاجة لاحتياطهم هذا.

كانت مالقة مدينة تجارية و ميناؤها يكتظ بالأشغال في صبيحة كل يوم، أما اليوم فسيكون الإزدحام أكبر بكثير من أي يوم مضى. لقد شاع خبر السفن وراكبيها في مالقة وخرج من أبواب المدينة جمع غفير للتفرج لقد كان اليوم كأنه يوم عيد.

ولم ينس الزناتيون خيلهم فأخذوا ينزلون إلى الرصيف ونزلت السفانة في ذلك الرصيف الصخري، وارتاحت عندما شعرت بالأرض الصلبة تحت حوافرها من جديد، فأخذت ترقص فرحاً، كانت حاملاً من تسعة أشهر، ولم ينقص ذلك من رشاقتها كأنها لا زالت بكراً.

وعندما أتى الزناتيون بجواد لعبد الرحمن ليركبه قال: « سوف امتطي الفرس». كان بديهياً أن مالقة فتحت أبوابها له، ودخوله إلى المدينة سيكون مهرجان سلام. فأراد أن تشاركه السفانة هذا النصر.

فوضعوا سرجاً فوق السفانة التي ركبها عبد الرحمن بعد ذلك وتابع الزناتيون نزولهم من السفن الأخرى حتى اكتظ بهم الرصيف.

كان عبد الملك فوق الرصيف مع الناس فجاء مسرعاً نحو السفن مرة أخرى عندما رأى أن الجماهير كثرت على الشاطئ وأخذ الناس يزحفون نحو الأرصفة فأشار بذراعيه

المقبوضتين نحو المدينة وصاح، : «أيها الأمير إن المدينة تنتظرك!».

والتف الزناتيون حول عبد الرحمن فرساناً وراجلين وعلمه الأبيض يحمله خالد وهو يرفرف بجانبه. وأخذت الخيل المزدحمة تحتك ببعضها البعض وتقدم عبد الرحمن ممتطياً السفانة نحو الشاطئ الصخري. وتبعه جيشه الصغير.

وفتح المحتشدون الطريق لعبد الرحمن وجنوده بينما أخذ الناس في المؤخرة يتطاولون لينظروا إليه لقد كانوا يترقبون شيئاً جديداً بكل حماس ورغم ذلك بقوا في سكوت تام كأنهم تحت تأثير سحر.

ثم تقدمت امرأة عجوز عن باقي الناس في آخر الرصيف. كان وجهها أسود متجعداً كأسوار المدينة من أثر السنين. لكن عينيها كانت تلمعان لمعان من يكاشف رغم وهج شمس الضحى فصاحت بملء صوتها: «عشت يا عبد الرحمن يا أمير المؤمنين!». كانت بائعة ورد، وفي يدها سلة مملوءة بورود صفراء طرية، وعندما وصلت السفانة إلى الشاطئ نثرت تلك الورود على حوافرها. وصاح من حولها وكأنهم يستجيبون لصداها: « عاش عبد الرحمن عاش أمير الأندلس! عشت، عشت». وتضخم الصوت حتى صار كالرعد ينتشر عبر تلك الجماهير المتضخمة.

واستدار عبد الرحمن بالسفانة لحظة نحو بائعة الورد العجوز وفتح له حراسه الزناتيون الطريق نحوها.

انحنى ليأخذ آخر وردة صفراء من يدها المرتعشة وقال: « يا أم لقد توجتني ! ورمى في سلتها الفارغة صرته الجلدية التي حملها معه عبر الطريق كلها من الشام، كان لا زال فيها بعض الاحجار الكريمة والقطع الذهبية.

وصاح الناس: «عاش عبد الرحمن، عاش عاش » وتقدم من هناك إلى المدينة في موكب منتصر. وخرج قاضي المدينة ووجهاؤها إلى الباب لاستقباله وعندما وصل انحنوا له هم كذلك، بينما أخذ الناس وهم يهتفون من أعالي الأسوار. لقد قال له الرسل الحقيقة عندما استدعوه للأندلس.

فقال القاضي: «أهلاً يا عبد الرحمن ابن أمية، ولتكن مالقة أول مدينة في الأندلس تبايعك بالإمارة».

ولم يتركوه يقف عند باب المدينة طويلاً بل قادوه إلى الجماهير لتراه ورئيس المدينة يمشي مترجلاً أمامه.

وصاح الناس: «عاش عبد الرحمن!» وخرج كل سكان مالقة المائة الف ليروه ويحيوه. كانت مدينة زهور فأخذت الورود تعطر عليه من النوافذ والزجاج وكانت حكايته الخيالية قد سبقته وأشعلت مخيلة الناس.

وأحبه الناس من أول نظرة لشبابه الطري، ومشيته المهيبة، وكانوا يعرفون أنه أشجع الناس، كان محياه بشوشاً وصدره رحباً. وظهر كأنه ملك في وسط حراسه الزناتيين،

وتيمنوا خيراً عندما رأوه راكباً فوق فرس بيضاء حامل، مستبشرين بقدوم أيام خير ورخاء، هذا هو القائد الذي أتى ليجمع شتاتهم، ويصنع منهم أمة فصاحوا: «عشت يا عبد الرحمن، يا أمل الإسلام في الأندلس، ويا منقذه!».

وعندما وصل إلى الساحة العامة أمام قلعة المدينة خرج، جنود الحامية بنظام لاستقباله وحملوا العلم الأبيض علم عائلته، علم الأمويين.

وضموا أصواتهم إلى هتافات الجماهير صائحين: «عاش عبد الرحمن!» وانسل الفا· سيف يلمع تحت الشمس تحية له.

وترجل رئيس الحامية الذي يسمى عبد الرحمن من فوق فرسه وتقدم نحو عبد الرحمن. كان قائداً محنكاً على وجهه أمارات السلطة، فانحنى بركبتيه إلى الأرض أمام الأمير الشاب كعلامة على ولائه له.

وقال: «السلام عليك أيها الأمير العظيم، إني أقدم لك ولاء جنود مالقة، لقد بعثت بالرسل إلى المدن الأخرى أخبرها بقدومك، فبعد سبعة أيام أو أقل نكون قد حشدنا لك جيشاً.

وهكذا، على تلك الطريق بين الرصيف إلى القلعة التي لا يزيد طولها على النصف ميل. صار لعبد الرحمن إمارة مدينة مالقة كمحط قدم في بلاد الأندلس، فنسي مخاوفه وشكوكه وحمل تاج الإمارة الذي سوف يقوده إما : إلى العرش أو إلى الهلاك.

تاج وسيف

لقد رفع عبد الرحمن ابن أمية لواءه في الأندلس، شاع هذا الخبر عبر الجبال المحيطة بمالقة بأقصى سرعة يمكن للخيل فيها أن تسافر تلك الطرق الصعبة وأعلنت مناطق الساحل الشرقي ولاءها للأمير الشاب بدون تردد، وأعطت المدن التالية:

البيرة، والمرية، وشريش، وشذونة، أكثر من الولاء بل أعطت الجند كذلك. فبعد وصول عبد الرحمن بسبعة أيام صار له أربعة عشر ألف جندي مجتمعين في ضاحية مالقة، مستعدين للسير تحت لواءه.

وكان الزناتيون نواة هذا الجيش وحرس الأمير الخاص، فكلهم وصلوا إلى مالقة بسلام وزودتهم منطقتها الغنية بجياد صارت الأندلس مشهورة بجودتها، وأخذوا يتدربون في البقاع خارج مالقة ويجربون جيادهم على طريقتهم الخاصة في الحرب.

كان من السهل على عبد الرحمن أن يمكث في مالقة ليستقبل فيها ولاء الولاية. لكن هذا كان خطيراً للغاية. ولا يعرف هذا جيداً أحد مثل مستشاريه.

لقد كان في الغرب والجنوب والشمال رجال عنيدون وطموحون، مستعدين لمعارضته، وعبد الرحمن بالنسبة لهم عدو لا يتجاهل. ومن المحتمل أن يتحدوا في وجه هذا العدو رغم أنه لم يسبق لهم أن فعلوا ذلك من قبل.

ومثلما حمل عبد الرحمن التاج، عليه الآن ان يحمل السيف. وعليه أن يبدأ هو بالمهاجمة ليأخذ المدن الداخلية، إذا أراد أن يبقى على قيد الحياة وأن يفوز بهدفه. فبعد عشرة أيام من وصوله إلى مالقة سار منها في جيش عدده أربة عشر ألف رجل. كان هدفهم النهائي قرطبة. قاعدة بلاد الأندلس التي كانت في أيادي معاوية.

فتوغلوا في الجبال على طرف شارات رندة التي عبرتها قبلهم بقرون الفيالق الرومانية. كانت الطريق متوحشة في بعض المناطق بين وهاد جميلة، ومرت الجياد العربية على طريق عبرتها من قبل النسور الرومانية. وكان أكثر من نصف الجنود فرسان، والباقون مترجلون فأخذوا يركبون الجياد بالتناوب ليحتفظوا بقوتهم وسرعتهم.

وعندما مر الأمير الشاب وجيشه بألورة وطبية، وقمبلوش، تلك المدن المسورة الجبلية، صاحت له بولاءها وزودته بالجنود وعندما ظهر الجيش من الجبال إلى سهول الأندلس المترامية، قرب مدينة أشونة، صار تعداده يقارب ثمانية عشر ألفاً.

كانت إشبيلية إلى الغرب، وقرطبة إلى الشمال. وكان هدفهم الرئيسي هو قرطبة، لكن غايتهم الأولى المرور باشبيلية للحصول على ولاءها ولكن قبل الوصول إليها علموا أنها قد سبقتهم وأعلنت بيعتها لعبد الرحمن ، فالتقى الرسل بعبد الرحمن في الطريق خارج أشونة قادمين له بولاء إشبيلية وفرحها بقدومه. وأخبروه أن ألفي مجند من المدينة يتبعوهم

للالتحاق بجيش عبد الرحمن، فقرر عبد الرحمن على الفور التوجه مباشرة نحو الشمال، إلى قرطبة. فإذا كان باستطاعة جيشه أن يفتح المدينة، فسيكون حكمه قد وطد في الأندلس كلها.

وفي نصف الطريق إلى قرطبة في وسط السهول، التحق به فرسان إشبيلية فصار جيشه يعد بعشرين ألف جندي، وكانت تسير معه ألوية خمسين مدينة وقبيلة مختلفة، وعلى رأسها يزفرف لواء أمية الأبيض.

وعندما خاضوا نهر شنيل، جاءهم رجال الطليعة إلى ضفة النهر يخبرونهم أن مدينة أستجة أقفلت أبوابها في وجههم، لكن الجيش لم يعبأ بذلك وترك أستجة وتابع طريقه نحو قرطبة التي لم تكن إلا على مسافة عشرين ميلاً.

وظهرت أمامهم كتائب صغيرة من الفرسان فوق التلال وهم ينظرون تقدمهم، ثم ينسحبون.

فكان بديهياً أن قرطبة عرفت بمجيئهم ولكنها معادية لهم، حتى البادية ظهرت خالية من فلاحيها وماشيتها، وأرضها الخضراء الخصبة، أصبحت الآن فارغة ومنتظرة ثم ظهرت مآذن قرطبة الجميلة وراء السهول المترامية.

كان الوقت ظهراً عندما خرج عبد الرحمن مع طليعة الجيش من البقاع المزدهرة وأصبح أمام المدينة، وكان الوادي الكبير يلتوي بين الحقول والبساتين ووراءه ظهرت أسوار قرطبة وأبراجها المتعددة. فأوقف عبد الرحمن فرسه على قمة تل صغير، وأخذ يتأمل بنشوة في المنظر الرائع أمامه. كانت قرطبة مدينة جميلة تستحق أن تكون عاصمة الأندلس!

وظهر جسر عظيم من الصخر له أقواس متعددة تعبر الوادي الكبير: أثر هندسي يدل على عبقرية روما الغابرة كان الشجر مكتظاً بالجنود وعلى مدخله اجتمعت كتيبة فرسان، كانوا بعيدين فلم تكن وجوههم واضحة لكن بريق أسلحتهم أظهر أنهم جنود مسلحون والأعلام ترفرف بين صفوفهم وكان عبد المولى قائد مالقة بجانب عبد الرحمن يدرس ترتيب العدو فهو من أهم جنود الأندلس وكان عبد الرحمن يطلب استشارته المرة تلو الأخرى.

فقال عبد المولى: «إنهم سيحاولون أن يختبروا طاقتنا عند الجسر إذا نحن عبرناه فوق البقاع مقابل المدينة».

فهز عبد الرحمن رأسه متأسفاً وقال: «كنت أتمنى أن نأخذ تلك المدينة الجميلة بدون إراقة الدماء، ومع ذلك فلنحاول أن نبعث رسولاً لنعرض عليهم السلام، ربما القوم معنا».

فأجاب عبد المولى: لا فائدة في ذلك يا أمير» كان يعرف هؤلاء الناس بتجربته الخاصة، ثم قال: «إن ابن يوسف الفهري يمسك قرطبة بيد من حديد، فهذا الإبن سوف لن يستسلم كما أن أباه سوف يكون أكبر عدو لك».

وأشار عبد المولى إلى طرف بستان كثيف بالأشجار تحته وقال: «انظر». فإذا بعبد

الرحمن يرى سيوفاً تلمع هناك. فقد اختبأت بين الأشجار مجموعة كبيرة من الفرسان إذا هم يهجمون بغتة على فرقة من كشافة عبد الرحمن المتقدمين.

ثم قل عبد المولى: «ها هو سلام قرطبة»

ودفع القائد الزناتي حامد فرسه المضطرب وقاد جماحاً مكوناً من نصف جنود زناتة وقال قبل أن يذهب: مولاي الأمير! إئذن لي بصد هؤلاء الذئاب!».

سوف لن تكون هناك هدنة مع قرطبة ولم يكن هناك وقت للضياع إذا أرادوا أن ينقذوا تلك الفرقة فأشار عبد الرحمن بيده إلى حامد بالتقدم.

فوقف القائد الزناتي على سرجه، وأشار إلى الأمام بسيفه المسلول، واشتعل وجهه بهيجان الحرب، وأخذ فرسه يتقدم ويتأخر بوحشية تحت ضربات عقبيه.

وصاح حامد بأعلى صوته إلى الصفوف المسلحة وراءه صيحة الحرب: زناتة! الله أكبر! وترك العنان لفرسه الهائج بالتقدم فتبعه ستمائة جندي زناتي وهم يصيحون بهتافات المعركة الحماسية.

وعندما رآهم فرسان قرطبة قادمين، هربوا بين الأشجار، وغير الزناتيون اتجاه هجومهم في وسط المنحدر وانقسموا إلى أربعة أقسام ليعترضوا انسحاب العدو في الناحية الأخرى من البستان.

واخفت الأشجار القوتين المعاديتين على بعضها البعض لمدة دقيقة أو دقيقتين، وعندما خرج فرسان المدينة من الناحية الأخرى من البسان وهم منسحبين بنظام وجدوا الزناتيين في وجههم متجهين إليهم من الناحية الأخرى.

كان المنظر يظهر لعبد الرحمن من أعلى التل، كأطفال يلعبون لعبة الحرب، فرأى فرسان المدينة المفاجئين يتشتتون فوق البقاع عندما رأوا أنفسهم قد اعترضوا في انسحابهم إلى الجسر. وأعان اندفاع الزناتيين انحدار الأرض في اتجاه هجومهم، فاستدار مائة فارس منهم إلى اليمين ليتبعوا الفرسان الهاربين.

أما الباقون فتوجهوا مباشرة نحو الجسر، وهم يتبعون قوادهم الذين يشيرون لهم بالسيوف فوق خيلهم.

وتوقف عبد الرحمن عن التنفس برهة، كانت المعركة كلها أمام عينيه. ولم يكن يتوقع أن يفعل الزناتيون أكثر، من أن يرجعوا فرسان المدينة إلى البستان، ورغم أن عددهم لا يزيد على الخمسمائة، فهم يحاولون أن يخوضوا المعركة، فأخذ عبد الرحمن ينتظر الإلتحام برعب واندهاش، اذ لم يكن مستعداً لهذا.

وكان الجسر مكتظاً بجنود العدو. عدة مئات من الفرسان مجتمين عليه فانسحبوا إلى مسافة قصيرة بين حواجز الجسر العالية إلى حيث يمكن لعد محدود من الرجال أن يهاجموا، وهناك انتظروا حملة الزناتيين.

وهبت تلك الحملة كريح عاصف من الصحراء أتت بأمطار الموت!

وبطريقة ما وبسبب براعة الزناتيين السحرية في الحرب وغريزتهم أمكن لحشدهم المندفع نحو النهر، أن يأخذ شكلاً منتظماً وكانت علامة سيف القائد وصيحاته القاسية التي يعرفونها كلهم، كافية بأن تخلق نظاماً حيث لا تظهر إلا الفوضى وصاروا منتظمين في صفوف عرضها أربعون فارساً أشداء وهم ينزلون على الجسر، وكان منظر تحول الفرسان غير النظاميين في قوة عدوهم رائعاً. ودووا كالرعد على الطريق يهتفون بصيحات الحرب، وأعلامهم ترفرف، واستعد الفرسان فوق الجسر لاستقبالهم، لكنهم لم يستقبلوا سوى الموت الخاطف.

وبانسجام تام دفعت خطوط زناتة الأمامية بالرماح، ثم انشطرت في وسطها واندفع نصف إلى اليمين ونصف إلى الشمال على بعد لا يزيد على خمسين قدماً من رماح العدو اللامعة. وتبع الخط الثاني قريباً من الأول وتبع نفس المناورة، ووقعت تلك الرماح القاتلة كوابل من السهام على حراس الجسر وابل من أعلى ووابل من أسفل بالتناوب، لم يكن لهم شيء يحميهم منها فصارت الصفوف الأمامية مقطعة ووقع الرجال على الطريق، وأخذت الخيل المجروحة تصيح وتفلت.

ثم فجأة أخذت صفوف زناتة التابعة تبسط الرماح وتندفع مباشرة في فوضى العدو وعوضاً أن ترمي برماحها، فبعثوا بهجومهم القاتل إلى الوسط، وفتحوا شقاً في جبهة المدافعين المضطربة وبعدهم أتت الصفوف المكونة من جديد من الذين سبق لهم أن رموا برماحهم وأخذوا يضربون بالسيوف.

لم يكن لهجومهم مرد. فعندما حطمو صفوف الفرسان المجتمعين في مدخل الجسر، حملوا على ذلك الجسر الطويل بسيوفهم القاطعة المرعبة فأصيب الجيش المنسحب بالذعر، وأخذ البعض يثب من أعلى حواجز الجسر إلى الوادي للهروب بينما الآخرون يفرون فوق الجسر بأرواحهم.

وكان عبد المولى يراقب المعركة بجانب عبد الرحمن بإعجاب الجندي لشجاعة زناتة فصاح: « يا أمير! لقد أتيت بسيف بتار من بلاد المغرب! اتركنا نساند القوم».

وفوجىء عبد الرحمن هو الآخر ببراعة جنوده الصحراويين التي لا مثيل لها وشجاعتهم وتبين له أن هؤلاء الزناتيين سوف لن يتوقفوا فلقد كانوا يشقون طريقهم عبر الجسر بقوة للوصول إلى البقاع. حيث كان جيش صغير ينتظرهم هناك.

وصاح عبد الرحمن إلى القواد من حوله: «تقدموا ثم صاح في خالد حامل لواءه: «قدم لوائي إلى المعركة!».

ولم يحتج خالد لمن يحرضه فصاح: «سمعاً يا أمير !» كان يشتعل حرقة على اتباع رجال قبيلته إلى المعركة. فهجم هجوماً واحداً إلى الأمام وهو يحمل العلم الأبيض عالياً بيده اليمنى، وانحدر من أعلى التل.

وبعد لحظة كان عبد الرحمن يعدوا نحو الجسر ومعه ثلاثمائة محارب زناتي يكونون

حرسه الخاص وتبعهم سيل من الفرسان عندما أخذت الأبواق تنفر بكل شدة على قمة التل الطويل. وكان من بينهم الفرقة الزناتية الثانية التي كانت متحمسة لكي تفوق الفرقة الأولى في شجاعتها، ولكي يلتحقوا بأقربائهم الصحراويين في المعركة.

واحتلت فرقة حامد الجسر من أوله إلى آخره عندما وصلهم فرسان النجدة وهم يعدون، قد قذفوا وقتلوا كل من في طريقهم ثم نقلوا المعركة إلى الضفة الأخرى من النهر وتبعتهم سرايا جديدة فوق أقواس الجسر الصخرية لتلتحق بهم.

وأخذت قوات المدينة تتقهقر. فلقد ذهلوا للسرعة التي أخذ فيها الزناتيون الجسر. كانوا يظنون أنهم سوف لا يزيدون على مناوشة طليعة الجيش الغازي ويختبرون قوته فوق ميدانهم وتحت أمان أسوار قرطبة، لكنهم رأوا هجوم الزناتيين المذهل، وفي دقائق معدودة رأوا بأم أعينهم الجسر يضيع من أيديهم، وأخذ العدو الذي لا يقهر في أعينهم يسقط من الجسر فوق البقاع.

فبدأ الذعر يسري فيهم، وأخذ فرسان الفرق المتقطعة التي كانت فوق الجسر يفرون نحو البلد وهم يحملون جرحاهم في فوضى عارمة، فرجعت القوات كلها نحو المدينة، وعندما رأى قاسم بن يوسف الفهري جيشه يتقهقر هكذا كظم غيظه، وأمر بالإنسحاب ليحميه من هزيمة منكرة.

لقد كان يشبع غرور نفسه بأنه سوف يعطي درساً قاسياً لجيش هذا الأمير المتهور، الذي أراد أن يغزوا الأندلس ولكنه الآن يرى عكس ذلك، فلقد ارتبك هو كذلك عندما رأى براعة وقوة هجوم الزناتيين إذا كان بإمكان فرقة واحدة أن تقوم بكل هذا التخريب فما بالك بالجيش كله؟

وعندما عبر عبد الرحمن النهر مع السرايا الأول فكر في أن يوقف فرسانه عن انهاك العدو المنسحب. فالصراع الذي لا ضرورة له كان يؤلمه جداً لا زال يأمل أن قرطبة سوف تستسلم .

لكن عبد المولى لم ينصحه بذلك فقال: «ان الزناتيين علموهم درساً مريراً فدعهم يقتحمون عليهم موطنهم».

فتبعوا العدو إلى أبواب قرطبة نفسها يدفعون بهم في فوضى تامة إلى النهاية ولم ينقذ قوات قاسم سوى قرب المدينة، فلقد أجبر سيل من السهام والرماح التي ترمى من أعلى الأسوار الزناتيين القليليين على التوقف فأمكن العدو أن يقفل أبواب المدينة، فلو عبر النهر عدد أكبر من جيش عبد الرحمن لأمكنهم دخولها، ووقف قاسم قائد قرطبة فوق السور وهو يلهث وأخذ ينظر إلى الجيش المنتشر فوق البقاع.

ثم قال وهو عابس لقواده المحيطين به: «انتظروا، إن يوسف الفهري في طريقه لنجدتنا بجيش عظيم سيلقي بهم في الوادي الكبير ويعلق رأس عبد الرحمن فوق باب المدينة».

وهكذا ابتدأ جيش عبد الرحمن في محاصرة قرطبة مطوقاً المدينة من جهاتها الثلاث

بمعسكرات قوية، ولم يترك بدون حراسة سوى الجهة التي تشرف على النهر، وهكذا أمكنهم أن يقطعوا كل طرق مواصلات المدينة، لقد قرر عبد الرحمن أن لا يحاول في هذا الوقت أن يهجم على أسوار المدينة القوية وأبراجها بالقوة وكان يأمل أنه سوف لن يضطر لذلك، فقرطبة كانت مدينة حصينة رغم تسحاب مدافعيها السريع بعد أخذ الجسر منهم.

ويمكن أن يقال: إن هذا الأمل قد تحقق فلم يضطر جيشه أبداً من اقتحام قرطبة، وبعد خمسة أيام من بداية الحصار، جاء كشافة عبد المولى يعلموه بمجيء جيش كبير سريع من الغرب تحت قيادة يوسف الفهري، الذي هو أبو القاسم وهو أكبر قائد في الأندلس.

وكان جيشاً عظيماً تعداده خمسون ألفاً كلهم رجال ذوو خبرة في الحرب، جمعوا من كل أطراف البلاد لم يكن هذا الجيش إلا على بعد أربعة أيام من قرطبة، كانت هذه الأخبار خطيرة للغاية، فعقد عبد الرحمن مجلساً سريعاً جمع فيه قواده.

قال عبد المولى: «يجب أن نتخلى عن حصار المدينة ونسير للقاءهم فلا يمكننا أن نحتل قرطبة في هذا الوقت القصير بدون أن يضيع منا كثير من الرجال، ولا يمكننا أن نترك أنفسنا بين جيش يوسف الفهري والمدينة واستعد القواد الآخرون لموافقة عبد المولى وإن كان على مضض.

لكن عبد الرحمن أخذ يهز رأسه فلقد تذاكر في هذا الموضوع مع قواد زناتة فقال: « لا! لا شك أن قرطبة تدري بقدوم هذا الجيش وقاسم يتوقع أن نرفع الحصار فيستبعنا عند ذلك علي مسافة بفرسانه ويبقى مستعداً للهجوم علينا في الوقت المناسب وهكذا سنكون كذلك بين عدوين.

لم يكن هذا كلام شاب هارب بل كلام قائد جيوش: أمير يثق بتفسه وبهدفه في الحياة لقد شعر عبد الرحمن بنداء الملك وعليه أن يستجيب في الوقت المناسب، والمكان المناسب.

ثم قال للقواد المتبهين ذوي اللحى المخططة بالشيب: «لا سوف لا نرفع الحصار، فنصف الجيش سيبقى هنا تحت قيادة عبد المولى ويشدد الحصار على قرطبة أكثر من ذي قبل وأنا سأقود العشرة آلاف الباقين بما فيهم زناتة ونذهب للقاء يوسف، وبلقائنا سوف يحدد مصير الأندلس!».

المعركة

ووقعت تلك المعركة العظيمة في غرب قرطبة، في منطقة متوحشة، على طرف جبل العروس. وتقدم عبد الرحمن مباشرة للالتقاء بجيش يوسف، فسافر بسرعة مسيرة يوم ونصف بفرسانه العشرة آلاف حتى وصلوا إلى وادي سكر السريع. فعبروه في نقطة ضحلة، وأخذوا أماكنهم في الضفة الأخرى منتظرين مقدم يوسف الذي كان لا زال على مسافة يوم من السفر.

واختار عبد الرحمن وقواده مكانهم باحتياط على منعطف من الوادي وصار ذلك السيل الجبلي السريع وراءهم على جهتين وأمامهم سهل فسيح، كان ذلك السهل ممتازاً لهجوم الفرسان لأن منعطف النهر وراءهم يجعل من الصعب على عدو أقوى منهم أن يلتف حولهم.

لكن النهر يمكنه أن يقطع صفوفهم إذا اضطروا إلى الرجوع إليه، فذلك الموقع يمكن أن يكون موقع امتياز أو خطر حسب شجاعتهم، فاخذون بثقة بالنفس، وجلسوا ينتظرون قدوم العدو، وفي آخر اليوم جاء الكشافة يخبرون بان يوسف معسكر على بعد عشرة أميال منهم، اذن فالمعركة سوف تكون غداً .

وبقي عبد الرحمن مستيقظاً طوال تلك الليلة وحوله عشرة آلاف رجل خيلهم المنزعجة، نائمون نوماً غير هادئ على الأرض الصلبة. فسوف تطلع عليهم شمس الغد لكن كثيراً منهم لن يروا غروبها، كان عبد الرحمن يشعر في ذلك الظلام بثقل أرواحهم على نفسه وأرواح الآخرين التي كانت متعلقة بهم.

وهو ممدد على الأرض، ملتف بغطاء كأي جندي آخر، أخذ عبد الرحمن ينظر إلى السماء المليئة بالنجوم، وفتش على أصدقاءه القدماء، الدبران ورجل الجبار ومنكب الجوزاء، لكنه لم يجدهم هناك. لقد تغيرت الأبراج بتغير الفصول. والتفكير فيهم أخذه إلى التفكير في الأيام الماضية فمنذ أن وضع رجله على أرض الأندلس قبل شهر مضى لم ينظر إلى الماضي إلا قليلاً . لم يكن له وقت لذلك. فالأيام كلها كانت مليئة بمجهود جمع القوى والأرض، ودائماً كان يوم مليء ينتظره للغد، لهذا كان ينظر إلى المستقبل أكثر من الماضي.

أما في هذه الليلة الصعبة، فلقد شعر بشيء من الراحة في الرجوع إلى الماضي لقد كان من الخير لنفسه أن يفكر في الأيام المتواضعة والحياة السعيدة، عندما كانت هي نفسها عطاء يشكر عليه. كان من الخير تذكر الحوراء من جديد، واقترابها منه وحتى القناعة البسيطة التي كان يشعر بها بالقرب منها، وأخذ يشعر بالسكينة في وحدته وبالراحة في نفسه عندما تذكر الرجال الذين توددوا له ليس لأنه أمير، ومعه عشرون الف سيف تحت قيادته، بل كشخص غريب يحتاج إلى يد مساعدة من إنسان في القفار أو الصحراء.

وهو يتذكر هذه الأشياء البسيطة في وسط الليل الثقيل، أخذ عبد الرحمن ينظر إلى النجوم المتناهية فوقه. ويدعو ربه : يا رب انصرني على الذين يريدون أن يحطموني غداً وانصرنا على نفسي في الأيام التي ستأتي! ولا تجعلني أنسى أبداً ! ولا تجعلني أنسى أبداً !.

وفي وقت ما بعد منتصف الليل، نام عبد الرحمن نوم المجهد.

وانشق الفجر على أصوات الأبواق المزعجة، كانت كالنفخ في السور يوم القيامة. فاستيقظ عبد الرحمن منتعشاً مرتاح البال، ومشى بين الجنود، فأخذوا يهتفون باسمه وعليهم علامات الاستعداد للمعركة.

وقاموا بواجباتهم الصباحية العادية ولكن وجوههم لم تزل عن الغرب حيث سيأتي العدو.

وعندما أشرقت الشمس كانت الخيل قد سقيت في النهر قطعياً قطعياً، ثم أرجعت وأعطيت أكلها الخفيف، أما مواقع المفرزات المختلفة، فلقد حررت في اليوم التالي، فأخذ الرجال فطورهم وهيّأوا خيلهم وجربوا أسلحتهم.

وبعد شروق الشمس بساعة، جاء الكشافة مسرعين من الجبال يصيحون بالخبر: «إن جيش يوسف الفهري يتقدم نحونا» لا شك أن يوسف لا يعلم بوجودهم كما يعلمون هم بوجوده.

وأخذت الكتيبات الثلاثة تشكل خطوط المعركة على نصف دائرة ضخمة، مكونة من عدة صفوف وأطراف متركزة على شكل منعطف النهر، كان على اليمين فرسان اشبيلية ومدن السهل وعلى الشمال رجال مالقة والجبال، وفي الوسط زناتة الذي كان عبد الرحمن يعلق عليهم اكبر الآمال.

أما عبد الرحمن، فقد أخذ موقعه في وسط الدائرة، و معه مفرزة احتياطية، تعدادها ألف رجل بما فيهم الزناتيون الثلاثمائة الذين يكونون حرسه الخاص. فسيكون مستعداً لمساندة أي قطعة من الجيش إذا احتاجت لذلك. هذا هو ترتيب القتال المحكم والبسيط الذي اختاره.

وهطل المطر قليلاً في الليلة الماضية، أما ذلك اليوم، فلقد كان الجو جميلاً و السماء صافية. وهبت ريح خفيفة جعلت الأعلام الكثيرة و الألوية العظيمة ترفرف في الهواء و عندما طلعت الشمس، اشرقت بكل شعاعها على هذا الجيش الألمع المنتظر.

وأجاب ذلك اللمعان، لمعان آخر ظهر من الغرب، أخذ يبرق بين التلال المنخفضة، حتى ظهرت كتلة عظيمة تتحرك نحو السهل.

و جاء فارس يعدو بسرعة فوق البقاع. و فتش على اللواء الأبيض حيث يجلس عبد الرحمن مع قواده. و وثب فرس الرسول عندما أجبره على الوقوف بشدة بعد عدوه الهائج.

فأخذ يلهث، و هو يشير إلى شيء أمكنهم أن يروه، و قال: « أيها الأمير العظيم، إن

جيش يوسف الفهري يتقدم نحونا!»

و قال هشام القائد الإشبيلي ملاحظاً: « إنهم خرجوا قبل الوقت، سأذهب إلى رجالي الآن».

و سلم القواد الآخرون على عبد الرحمن، و ذهب كل واحد منهم إلى فرقته. لكن عبد الرحمن تغاضى عن حركات وداعهم، و قال: « سأذهب إلى فرقكم أنا كذلك، أريد أن أراكم و أرى جنودكم قبل المعركة».

و أشار إلى خالد بأن يتبعه، و تقدما مع هشام و قواد الجناح اليميني إلى تلك الناحية. كان عبد الرحمن يركب جواداً رمادي اللون في ذلك اليوم، لأنه ترك السفانة ترعى في ضواحي مالقة. فلقد صارت حاملاً من عشرة أشهر، و اقترب وقت ولادتها.

وكان فرسان الجناح اليميني من إشبيلية، و أشونة، و قرمونة، فتقدم عبد الرحمن نحوهم مع قائدهم هشام، و لواء بني أمية الأبيض الضخم يرفرف فوقه.

ومد هشام يده مشيراً إلى عبد الرحمن، و صاح في رجاله قائلاً: « هذا هو الأمير الذي سيصير ملك الأندلس هذا اليوم!».

و بطريقة عفوية، أخذت تسطع آلاف السيوف المسلولة، و صاحت آلاف الأصوات بكل حماس: « عاش عبد الرحمن، عاش!»

و مرة أخرى، و كأنه في حلم عابر، عادت إلى عبد الرحمن كلمات العراف، و هو يقول: «. . . . و سيوف كثيرة براقة مشرعة، و كأنها في ساحة قتال، و أصوات تصيح عشت! عشت! و كأنهم يكلمون زعيم جيوش!».

فشعر عبد الرحمن بالتعجب والاستغراب يغمره، فأخذ يصيح بكل انفعال: « يا أهل الأندلس! اعتقد أن نتيجة هذا اليوم مكتوبة في كتاب الله. فيما يخص انتصارنا، فأني لا أشك فيه ، و أعدكم أنه من كتب الله له الشهادة هذا اليوم، فسوف لا أنسى أرملته و لا يتاماه، إني أرجو رحمة الله و أعدكم بذلك!».

لم يتمكن من سماع كلامه إلا القليل. لكنهم قرأوا التأثر في وجهه. فلوحوا بسيوفهم معلنين ولاءهم، و صائحين: « عاش عبد الرحمن! عاش!».

و تقدم على طول الجناح اليميني، و كأنه ترك عبر طريقه لهيباً تبعه، فالأصوات الكثيرة، و السيوف العديدة، هتفت تشريفاً له، حتى الخيل أخذت ترتعش و ترقص تحت فرسانها المتحمسين عندما مر لواءه. ثم أتى إلى زناتة في الوسط، فحيوه برماحهم المرتفعة، وبثقة عالية و جدية لم يصيحوا إلا قليلاً، لكن سكوتهم كان كسكوت الريح عندما يجمع قوته للعاصفة. و أمامهم عبر السهل، ألوية العدو البعيدة، قادمة، وراءها جيش عريض قاتم.

وأخذوا يسمعون أبواق العدو تنادي.

فقال عبد الرحمن لحامد قائد زناتة: « إني أعتمد على زناتة اعتمادي على يدي اليمنى وعلى سيفي!» كان فعلاً فخوراً بهم كقومه الخاصين.

فأجاب حامد: « يا أمير اعمل على جعل الجناحين يتشبثان بمواقعهما، و سيفك سيقطع أعداءك كما تمسح ريح الصحراء تموجات الرمال!».

و تابع عبد الرحمن طريقه إلى الجناح الأيسر، فأخذ رجال مالقة، و الحرة و رندة، و المدن الجبلية، يهتفون و هو يتقدم إليهم. فتكلم لهم بنفس الكلام الذي قاله للفريق الأول، و هم كذلك آمنوا كما آمن هو بحتمية انتصارهم. ثم رجع إلى الوسط ليراقب تقدم العدو السريع.

لم تكن الأخبار التي أتته قد بالغت في جيش الفهري. فلقد جمع الأمير الفهري من المناطق القريبة والبعيدة، حتى الغرب النائية، جنوداً ذوي خبرة باسم الخليفة أبي العباس. فظهرت كشبكة متناهية من الفرسان والمشاة وهي تتقدم بتأن فوق السهل.

وأتو يصحبهم دوي الطبول المشؤوم وتتقدمهم جبهة من الرماح كأنها غابة أشجار. وأخذت أجنحة خطوط المعركة تنتشر بتقدم فيالق الفرسان من المؤخرة وشعر عبد الرحمن وهو يراقبهم بحكمة قواده عندما اختاروا موقعه. فلولا منعطف النهر وراءهم لالتف العدو حول جيشه بسهولة. واضطرهم إلى الدفاع عن مؤخرتهم.

لم تقع أية مفاوضة بين الجيش، لا عرض سلام ولا استدعاء للاستسلام لقد أتى يوسف الفهري ليسحق ويحطم منافسة الشاب، وتبين أن جيشه سوف لا يتوقف ليسترجع قوته أو ليكمل تشكيله للمعركة، ولم يبق بين الجيشين سوى نصف ميل، ومرة أخرى صار علم الأمويين الأبيض يقاوم العباسيين الأسود. عشرة آلاف رجل مقابل خمسين ألفاً.

وأخذت طبول زناتة تنبض واستجاب الجناحان الأيمن والأيسر لهذا الدوي المهدد.

واتجه حامد إلى جانب عبد الرحمن، وأشار إليه بالرجوع فقال: «أيها الأمير إنهم سيصلون عن قريب، إن مكانك مع حرسك الخاص الاحتياطي كما خططناه فوجودك هنا سيعرقل هجومنا».

وعرف عبد الرحمن أن حامداً مصيب في صراحته. فالزناتيون كان لهم مخطط المعركة فإذا بقي عبد الرحمن أمامهم فسيضطرون لتغييره للدفاع عن شخصه.

واعتاض عبد الرحمن لاضطراره انسحاب لواءه أمام العدو، ولكن ذلك كان واجبه، فتراجع ببطء مع خالد عبر صفوف زناتة إلى حيث ترك الكتيبة الإحتياطية والحراس، وهناك أخذ مكانه فوق مرتفع بسيط من الأرض حيث أمكنه أن يراقب المعركة ويكون مستعداً.

وتشكل جيش يوسف في شكل هلال ضخم يغطي جبهة الجيش الصغير الذي يحاربه كل كلها وظهرت الأعلام الخاصة، وأخذ القواد يروحون ويغدون أمام هذه الكتلة البشرية، ويلوحون بأيديهم بدأ كل الجيش يتقدم ببطء.

وفجأة خرج من بين صفوف زناتة محارب كان اسمه قاصد وكانت فيه نشوة الشاعر وروح البطل، ويجري في شريانه دم الصحراء الحاد، وظهرت أمام عينيه رؤيا المجد والموت. فلقد جاء وقت التضحية واستجاب إليه. فكانت ضربات الطبول تدوي في أذنه لدرجة الجنون فغيرة انفعال الحرب الذي ورثه عن أجداده.

فأخذ يلف بجواده الهائج أمام قومه، ويلوح بحربته في الهواء، ثم صاح: «يا بني جلدتي، إنني أطالب لوحدي بأول نقطة دم العدو، ولتفتح الطريق حربتي، وسيتعرفون عن طريقي على الموت الذي ينتظرهم الله أكبر! الله أكبر!»

وأخذ يطعن أعداء خياليين أمامه، وجواده يهجم مرة ويرجع أخرى، ثم يقف على قائميه الخلفيين، وصاح قاصد: «احكوا قصتي في خيام زناتة، وليغني الشعراء باسمي ولتهتف النساء باسمي ولتفتخر أمي باسمي، سأذهب الآن إلى موتي في سبيل قبيلة زناتة وشرف أبي، الله أكبر الله أكبر!».

وهو يصيح صيحات الحرب، ترك عنان فرسه الهائج وهجم مباشرة نحو الجيش المتقدم، ولم يحاول أي نفر أو قائد من قومه أن يوقفه، فهذا هو امتياز محارب شجاع في قبيلتهم، أن يهجم بمفرده على العدو، ويقتل خصمه أمام زملاءه. ويفتش على موته بنفسه.

ولم يكن يعوز صفوف العدو ابطال كذلك. فلقد تقدم عدة أفراد ليبارزوا قاصداً ثم باتفاق متبادل اعطيت الأولوية لواحد منهم وكان يركب جواداً أسود. فأخذ يعدوا وبيده ترس وباليد الأخرى رمح مموجة لمقابلة الزناتي المهاجم. ووقف الجيشان يراقبان هذا الإلتقاء.

لم تكن إلا لحظة حتى التقى الرجلان في وسط الميدان فتقدم البطلان في اتجاه بعضهما البعض، ثم تجاوزا بعضهما وكأن كلاهما أفلت من الموت في أول التقاء، لكن محارب يوسف انقلب على ظهره فوق جواده المسرع فانقلب الرمح الطويل الذي طعنه نحو السماء قبل أن يقع على الأرض فأخذ الجواد الأسود يعدو بدون راكب.

وسمع دوي من الزفرات يتصاعد من الجيشين: ابتهاج من جيش وخيبة وغضب من الآخر فأول دم اريق في المعركة أراقه زناتي.

وسل قاصد سيفه وهجم مباشرة على الخمسين ألف جندي وهو يصيح: «الله أكبر!» وبعد لحظة مرت كالبرق صار قاصد بينهم يضرب يميناً وشمالاً ثم اجتمع حوله فرسان كثيرون بسيوفهم حتى غاب عن البصر.

وسمع صوت كدوي من التأثر يعم زناتة المتفرجين: «الله!» وظهر الرجال والخيل وهي ترتفع كأنها على وشك أن ترمي بنفسها إلى الأمام ولكنها بقيت في مكانها تحت تأثير مجهود قوي. فلقد مر حامد والقواد الآخرون ليكبحوا جماح القوم والجبهة.

ثم أخذت الأبواق تنفر في السهل الفسيح. ليس بوقاً واحداً أو لمدة قصيرة بل الأبواق كلها تدوي لوقت طويل، بصيحات حادة رنانة، تثقب الروح وتهز النفس وتجعل الحرارة والبرودة تمر علي جسم من يسمعها، كانت الأبواق تقول: «تقدموا واهجموا كلكم في موجة واحدة أيها الفرسان اهجموا!».

فانبطحت غابات الرماح وتقدمت الأعلام السوداء إلى الأمام وطلعت صيحات خمسين ألف حنجرة واهتزت الأرض تحت ضربات الحوافر التي تدوي كالرعد وتقدم فرسان يوسف

كأنهم سيمسحون العالم في طريقهم.

وأمكن لعبد الرحمن أن يرى من مرتفعه البسيط تقريباً كل هذه الكتلة من الفرسان وهي تهجم. لقد كان شجاعاً كانت له الثقة بالنفس لكن قلبه خانه عندما رأى الألوية السوداء، تتقدم وهذه الآلاف العديدة من الرماح البراقة. تطير فوق الأرض أمام تلك الألوية فظهر وكأنه من المحتم أنهم سوف يكتسحون جيشه الصغير وفجأة صار أمله الوحيد هو أن يموت موتة شريفة في هذه المعركة.

وتقدموا عبر ربع الميدان، ثم نصفه وأخذ ذلك الجنون وذلك الرعد يقترب ولم تتوقف الأبواق أبداً من تحريضها المسعور، وأخذ الفرسان يصيحون بأصوات عالية تظهر شراستهم وتلهفهم على القتل، لكن طبول زناتة الضخمة صارت تغطي هذا الضجيج كله، ووقفت صفوف الفرسان المنتظرة كالصخور أمام مياه البحر.

وتقدم فرسان العدو عبر ثلاثة أرباع الميدان، وفجأة هجم الزناتيون بكل حيوية. فأشار حامد بسيفه وضربت الطبول بشدة وهجم ألف ومائتا محارب صحراوي إلى الأمام هجوم رجل واحد.

فصاح خالد بشدة وكان بقرب عبد الرحمن: «الله أكبر ! اضربو يا إخواني اضربوا!».

وهجم الفرسان الزناتيون في ثلاثة خطوط طويلة متقاربة. واختاروا وقتهم اختياراً ممتازاً فلقد أخذوا أقصى سرعتهم فوق السهل حتى صاروا والعدو يهجمون على بعضهم البعض الحربة ضد الحربة.

وشد عبد الرحمن على سيفه وهو يراقب المعركة لقد تبين له أن رجاله الزناتيين البواسل ستقذف بهم كتلة الأعداء إلى الوراء وجمد في مكانه وهو يترقب الصدمة بين الفريقين. لقد كان مستعداً ليطير إلى معونتهم بجنوده.

ولكن شيئاً مذهلاً حدث أمام عينيه، فقبل حوالي خمس ثوان من اصطدام خطي الجيشين الأولين، وقف فرسان الخط الثاني الزناتي فوق سروجهم، ورموا برماحهم القاتلة رمية واحد، رموا بها فوق رؤوس رجال خطهم الأول في وجه العدو مباشرة.

وكانت المفاجئة تامة. فخط العدو الأول لم تكن له أية فرصة للدفاع عن نفسه ضد هذا الوابل من الرماح التي يتبعها وابل آخر من خط آخر، فانفتحت مائة ثغرة في صفوفهم. وزادهم خط زناتة الأول ضرباته حتى عمت الفوضى بينهم.

وتراجع فرسان وسط جيش يوسف إلى الوراء. فلقد صار الرجال والفرسان المضروبون أمامهم عثرة في طريقهم. ثم أخذ فرسان الخط الثالث الزناتي طريقهم عبر الخطوط الثانية والأولى ورموا العدو بسهامهم. ودخل الفرسان الزناتيون الذي رموا برماحهم بين الثغرات وأخذوا يستعملون سيوفهم.

كل ذلك ظهر كالخيال لمن يراقبه فوق ما يصدق. فالقوة الصغيرة من الزناتيين أمكنها أن تقطع مقدمة فرسان يوسف قطعاً كاملاً وصار الميدان مكتظاً بالقتلى. ولم يعبر خطوط المهاجمين سوى الخيل التي لا فرسان لها. فلقد غطس الزناتيون في كتلة المشاة وراء

الفرسان.

وصاح خالد: «زناتة!»وهو يراقب عن بعد واللواء الأبيض يهتز في يده من الابتهاج فلقد تلاحم الجيشان في النواحي الثلاث وأخذ الجنود يتقاتلون بالأيدي أما في الوسط فلقد حطم الزناتيون أمواج جيش يوسف الأول.

وتقدمت سرايا للعدو جديدة تحت أوامر الأبواق واخذت تهاجم الجناح الأيمن الطويل الذي ظهر لهم أنه هو أضعف وتحركت ألوية اشبيلية ومدن السهل وكأنها أشرعة سفن تتحرك تحت تأثير العاصفة، كان يوسف لا زال بعيداً كل البعد عن الهزيمة في ذلك اليوم. فإذا تمكن أن يحطم الجناح الأيمن بجيشه الضخم، فسيمكنه أن يحيط بالميدان ويهاجم الزناتيين من الأمام ومن الوراء رغم شجاعتهم.

وعندما رأى عبد الرحمن السيوف تتضارب والناس تتساقط في غبار المعركة والأبواق تحرض والطبول تهز النفس وهو يرى ويحس بصدمة المعركة. شعر بسحر لا يوصف يدفعه إلى المعركة. وأخذت نشوة القتال تغلي في نفسه. ففوق هذا الميدان لم يعد مكان للرحمة. أو الشفقة! أو الخوف!.

وصار جناح جيشه اليميني تحت ضغط شديد فأشار إلى نقطة كان يظهر فيها الخطر على أشده، وصاح في خالد: «احمل لوائي إلى هناك!»

وأشار لقواد الاحتياطي قائلاً: «امكثوا هنا حتى احتاج إليكم». ثم دفع فرسه بعقبيه ووثب لإسعاف الجناح. وكان بجانبه خالد يحمل اللواء الأموي وتبعهم بتهور خمسمائة رجل نصف الاحتياطي للدفاع عن أميرهم ودخلوا المعركة حيث كان رجال قرمونة يتقاتلون قتال المستميتين للسيطرة على موقعهم. لم يشعر عبد الرحمن بالوقت الذي عبر فيه مسرعاً الميدان حتى وجد نفسه فجأة وسط الغبار والمعركة يتبعه فرسان العدو ذوو العمائم السود.

واقترب منه رجل رهيب ورفع سفه ليضربه لكن قبل أن يضع يده كان الرجل قد خرقته حربة من اليمين تبعتها أخرى من اليسار والتقت الحربتان في صدره فخر على الأرض من أعلى جواده، ووجهه لا يزال يعبر المعركة التي وقعت بقرب البئر عندما انقذت حياته حربة طريف المغربي.

ثم اندفع الحرس الزناتي بينه وبين العدو وأخذت سيوفهم القتالة تخلط بين اللحم والحديد. كان هجومهم الضاري ضرباً من الجنون على جنون العدو واجتمع رجال قرمونة في المعركة بمعنوية جديدة، وهم يصيحون:

«عبد الرحمن اعبد الرحمن!» حتى دفعوا العدو إلى الوراء بجدار من السيوف ومن لم يتراجع قتل.

ورغم ذلك فجنون زناتة كان جنوناً كاملاً يعرف الصواب. فعندما اجبروا العدو على التراجع، واقفلوا الفجوة التي في خط المعركة توقفوا عن الهجوم.

فواجبهم هو حماية الأمير وواجب الجناح الأيمن هو أن يحافظوا على مركزه ويقدم جبهة شديدة أمام فرسان يوسف.

ومرة بعد أخرى وجد عبد الرحمن نفسه قد تعرف عليه الأعداء لكي يجدهم في مكان آخر فعندما يدخل المعركة لا مجال له أن يتراجع عنها، فعلى طول خط المعركة المتغير، كان الخطر واقعاً، وكان مكان عبد الرحمن حيث وجوده يحدث إيحاء الصمود. فقاد الزناتة على طوال الجناح. فأتوا بشجاعتهم وقوتهم حيثما احتيج إليهم.

وأخذ العلم الأبيض يحيي الهمم المتعبة، فيصيح الناس: «عبد الرحمن اعبد الرحمن».

فلقد تشجع رجال إشبيلية وأشونة عندما رأو أميرهم وسط الخطر بينهم.

وقاد عبد الرحمن حرسه الزناتيين من أسفل الجناح الأيمن الطويل إلى أعلاه، حيث المعركة مستعرة، والموتى يتساقطون بدون أن ينتبه لهم أحد فأخذوا يحطمون هجوم العدو الواحد تلو الآخر ولكن الأبواق لم تنقطع عن نفيرها، والعدو لم ينقطع عن هجومه عبر الغبار ودوس جرحاهم وقتلاهم. فظهر أنهم سيغلبون بإجهاد أيدي زناتة الضاربة إذا لم يتغلبوا بطريقة أخرى.

وفجأة عندما كان عبد الرحمن بعيداً عن المعركة للحظة وجيزة نظر وراءه فلاحظ أنه لم يبق معه احتياطي، لقد ذهب الخمسمائة محارب الباقون لمساندة الجناح الأيسر وفي الوسط لم يدر ماذا جرى بالزناتيين فلم ير إلا الغبار والفوضى العامة.

وضرب عبد الرحمن والتحم بنفسه صار سيفه أحمر بالدم وجسمه مبلولاً بالعرق. وفوق رأسه كانت الشمس من نار وتحت ارجله كانت الأرض من دم. ولم تكن هناك راحة، ولم يكن لهذه الحالة من نهاية، فلم ير إلا طرقاً ملتوية في وسط السيوف وعدواً لا ينقطع سيله.

وفي وسط هذه الملحمة، وفي وسط هذا الإعياء، إعياء الروح والجسد ظهرت الشمس المحرقة كأنها وقفت في السماء لا تتحرك، وكان الجناح الأيمن مهاجماً هجوماً خطيراً ضايق صفوفه وفي ذلك الوقت المحرج طلعت صيحة عظيمة من مؤخرة العدو. لقد جاءت كتائب جديدة من الفرسان بآلات غريبة، وعمائم ذات ألوان مختلفة، واندفعت للقتال وفكر عبد الرحمن في عددهم الذي لا يحصى، وأخذ يجمع قواته الجديدة. محاولاً أن يقابل هذا العدو الجديد.

وفجأة صرخ خالد بملء فيه: «إنهم زناتة!» واللواء الأبيض في ديه اليسرى، والسيف بيده اليمنى الدامية، وضربت الطبول، وطلعت صيحات الحرب مبحوحة منفعلة. ورمى الفرسان الجدد بأنفسهم على العدو بسيوفهم المرعبة. كان هؤلاء الفرقة الرئيسية من فرسان زناتة. فلم يتعرف عبد الرحمن على ألويتهم في وسط الغبار. فقطعوا طريقهم حول فرسان العدو الذين كانوا يهاجمون الجناح الأيمن وظهروا في مؤخرته فأخذوا يضربون بنفس الشراسة التي دخلوا بها أول مرة المعركة.

وأخذت أبواق العدو تنفر لقد ضاع منها الأمل وهي تطلب المساندة، ولكن من أين؟ واجتمع رجال إشبيلية وقرمونة وأشونة للهجوم. واندفع عبد الرحمن بحرسه بشدة.

وفجأة أصبح فرسان يوسف الفهري محاصرين من كل جانب، وصارت كتائبه متفرقة

عن بعضها من طرف عدو لا يقهر، وفي طريق الهلاك. بعضهم ذهب هارباً نحو النهر، والبعض الآخر هرب في أية ناحية أمكنهم الإفلات منها، لقد حطم الزناتيون وسط فرسان يوسف من البداية، والآن، أخذوا يحطمون هذا الجناح كله ويزيحونه عن الميدان.

وكانت المعركة لا زالت حامية الوطيس في الجناح الأيسر. وعندما رأى عبد الرحمن أن المعركة قد ربحت في هذا المكان، أمر حامل لواءه أن يتجه إلى رجال مالقة والجبال لمساندتهم، وذهب معه زناتيو الجناح اليميني المنتصر، وعددهم أربعة آلاف. وكان مدهم هو الذي قرر المعركة في ذلك اليوم.

وهرب ما تبقى من فرسان يوسف عن الميدان، ولم يبق معارض يذكر لعلم أمية الأبيض. أما مشاة يوسف الذين لم تسنح لهم لفرصة لدخول المعركة، فلقد هربوا بعيداً. وتلقى جيش يوسف هزيمة منكرة.

وأخذت كتائب فرسان عبد الرحمن تتابع الهاربين بجنون تحت تأثير هيجان المعركة. ولم تكن لكتلة المشاة غير المحفوظين اي ستر منهم كان بإمكانهم أن يدوسوهم ويذبحوهم كيفما شاءوا.

وسار عبد الرحمن يتقدم وسط الجيش المنتصر يهدئهم ويصيح فيهم: « أظهروا الرحمة!» وخالد بجانبه يحمل اللواء الأبيض عندئذ زال عن الرجال غضبهم ووحشيتهم عندما سمعوا أوامر أميرهم فساروا يهتفون به باحترام وشغف وهو يتقدم بينهم.

وأوقف عبد الرحمن فرسه في وسط الميدان المفرغ، فانتصاره كان كاملاً لقد قتل من العدو على الأقل عشرة آلاف شخص، أما الباقون فتشتتوا وأكثرهم أخذ يستسلم.

وعندما وقف عبد الرحمن في وسطهم تقدم نحوه حامد قائد زناتة ومعه قواده المنتصرون مدججين بالدماء، دماء العدو ودماء جروحهم.

والسيف الذي قاد هذا التنفيذ البارع كان لا زال في يد حامد، وكان في وجهه عبارات افتخار كافتخار النسر.

فصاح في عبد الرحمن: «عشت يا أمير ، أيها الملك العظيم! لقد أعطيناك الأندلس في هذا اليوم».

فاستجاب عبد الرحمن لبيعة زناتة وهو يشعر بقيمتهم وشجاعتهم، لكنه تمكن من أن يرى وراءهم عن اليمين وعن اليسار القتلى والجرحى، فتنفس الصعداء، وشعر بتعب شديد، لقد انتهى كل شيء. وذهب الانفعال وذهب معه الشعور بالنصر والابتهاج، وفجأة أخذ يشعر بعظمة المسؤولية التي صارت امامه. وبالمملكة التي يجب ان يعاد إليها النظام، وأن يحكم بالعدل.

الكنوز

وسرعان ما عرفت نتيجة المعركة، واستسلمت قرطبة. فدخل عبد الرحمن تلك المدنية كالملك، وحيته الجماهير كمحرر وليس كمحتل وهناك قرر حاكم الأندلس الجديد أن يتخذ قرطبة عاصمة له، فهذه المدينة كانت هي قلب الأندلس الإسلامي النابض.

وجاء الرسل من كل أنحاء الأندلس يقدمون بيعة المدن من لاقوش في الغرب إلى غرناطة في الشرق، إلى سرقسطة في الشمال. واستسلم أبناء يوسف الفهري إلى رحمة الملك الشاب. وأخيراً دخل يوسف ذليلاً إلى قرطبة لينحني ويطلب العفو من سيد الأرض الجديد.

وسامح عبد الرحمن الجميع، وأعطاهم الرتب، وتقاعدهم المحترم عن الاشغال العامة. ولم يعاقب أحداً قاومه، ولم يشعر بأي خوف أو خطر منهم يدفعه للقضاء عليهم ولم يكن له أعداء لينتقم منهم فالماضي لا يهمه شأنه، ولم يكن يهتم إلل بالحاضر والمستقبل.

وبايعوا أمير الأندلس في قصر قرطبة وجاء قواد وأشراف الأرض بالمئات، ليقدموا ولائهم كما اجتمعت العامة في جماهير ضخمة تظهر عطفها ولأول مرة، بعد الفتح العربي رجع السلام لأرض الأندلس.

ولكن لم يكن هناك مجال للراحة للأمير الجديد. فلقد كانت له العبقرية والنظرة البعيدة، اللذان عرف بهما أفراد عائلته، ولم يعوزه إلا فرصة اظهارها وها هي الآن سنحت له، في أرض غنية قوية، فظهرت يده بسرعة في الأشغال العامة، رغم صغر سنة.

أولاً كان من الضروري إصلاح ادارة الحكومة وتقويتها فراجع لائحة قضاة وولاة المدن المختلفة حسب مؤهلاتهم المدونة. فاحتفظ بالعادلين منهم وأزاح عن الوظيفة الفاسدين، ونقش في الصخر على باب قاعة الاستقبال في القصر اسم الأمير الجديد هكذا: «هذه قاعة عبد الرحمن للعدل، كل من كنت نفسه صادقة، فلا يتوان عن القدوم لأخذ حقه».

ثم كانت هناك الأشغال العامة التي يجب القيام بها فمسجد قرطبة الأعظم صار حلماً في مخيلة الحاكم الشاب، يجب تحقيقه كما فكر عبد الرحمن في بناء السدود على الوادي الكبير لاستثمار فيضانه واستصلاح الأراضي الزراعية المحاطة به، ثم فكر في بناء جسر وقناة لجر المياه، وفكر كذلك في بناء المدارس والمكتبات فالأندلس أخذت تخرج من سباتها القوطي، وصارت على القدوم إلى قرطبة والإحاطة بالأمير الجديد.

وفي وسط هذا الجاه وهذه القوة لم ينس عبد الرحمن تلك الأشياء الخاصة التي كانت عزيزة على نفسه لم ينسها ولم يكن في استطاعته الا بعث استفسارات سرية وانتظار الجواب، وكذلك اخذت الرسوم تضعف شيئاً ما في فكر ملك كثير الشغل، فالعالم كان كبيراً والبحر شاسعاً ومملكته تنتهي بابتداءالبحر.

لكن الأيام تسير، وزهرة الربيع التي تغرس في هذه السنة تزهر في السنة التي بعدها، وهكذا ففي احد الأيام وبعد ستة أشهر من بداية ملكه، جاء حاجب القصر يخبر الأمير بأن جماعة من المسافرين أتوا من بعيد لزيارته جاءوا من المغرب عبر طريق زناتة، يحملون رسالة خاصة من شيخ إلى الأمير الشاب.

كان عبد الرحمن في اجتماع حكومي، لكنه عندما سمع هذا الخبر من الحاجب، ترك الاجتماع على الفور فشيخ كان كالاب بالنسبة له، وعبد الرحمن يكن له كل الاحترام والاعتراف بالجميل. وفي قلبه يعيش ذلك الأمل أنه في يوم من الأيام سيأتيه خبر عن الحوراء أو ربما التاجر سميل قد أتى بنفسه ليخبره عن نتيجة سفره.

ولكن لم يكن سميل على الباب، فعندما خرج إلى ساحة القصر حيث كان الفرسان المتعبون يستريحون بين الجنود والحراس لفت انتباه عبد الرحمن وجه رجل واقف بين الخيل، كان بلباسه بدوياً من الصحراء ولكن النساء العديدات الآتي كن واقفات وراءه لم يظهرن كنساء البدو. فعلى عكس البدويات العاديات كن يلبسن الأحمر والذهبي مع لباسهن الأسود.

إنه روض بني زنقل! فاسرع أمير الأندلس بمشيته، وسبق حراسه فاتحاً ذراعيه ليسلم على الشيخ المجهد بالسفر.

فقال روض: «السلام عليك مولاي العظيم» وانحنى امام عبد الرحمن فوق أرض الساحة المغبرة.

فأمسك عبد الرحمن الشيخ من يده ورفعه إليه وقال: «لا تفعل هذا! لا تفعل هذا ربما ينسى الملك الاعتراف بالجميل مع الأيام لكن ديني لك هو أكثر مما أنساه ولن ينسى! اتذكر الأيام التي اصطدنا فيها سوياً واتذكر وفاء بني زنقل لي».

وتعجب عبد الرحمن لرؤية روض لدرجة أنه صعب تصديق حواسه، وفجأة انتبه لأهمية وجود روض الكبيرة فتأخر عن الشيخ الغجري وأخذ ينظر إلى أفراد جماعته الصغيرة وراءه، فعيناه الواسعتان انتبهتا بتعجب مفاجئ،وأمل إلى جماعة النسوة الصغيرة الواقفات تحت ظل عريش في جانب الساحة.

وتابع روض نظراته المسحورة، ثم قال:« يا أمير إني أعيد إليك الأمانة التي تركتها عندي».

وتقدم عبد الرحمن فاتحاً ذراعيه وانسحبت النساء تاركات واحدة منهن واقفة بمفردها كان شكلها شكل فتاة في لباس السفر الذي تلبسه نساء البدو عادةووجهها البيضاوي المحاط بمنديل أسود كان بارع الجمال، إنها الحوراء تمسك بيدها طفلاً ذا عينين حادتين ووجهه ريان وخدان بغمازتين، طفلاً عمره سنة كاملة.

واندفع عبد الرحمن نحوها اندفاع الشاعر نحو الجمال. والرجل العطشان نحو الماء. ونظرت إليه الحوراء بعينين واسعتين مفتوحتين، ويدها الناعمة تشد بيد ابنها كأنها تستوحي

منه القوة للوقوف، وظهر في وجهها خليط من الخوف ونشوة الفرح والحب. كانت ترتعش وهي واقفة هناك.

وأخذ عبد الرحمن بيدها وقال: «ليس لي كلمات أعبر بها، إن قلبي لم يكن معي حتى هذه اللحظة تركته في وادي السرحان وها هو الآن قد رجع الي» كان كلامهما همساً لايسمعه سواهما.

فقالت الحوراء: «مولاي، وإحنت رأسها كأنها تريد أن تخر على ركبتيها أمامه لولا أنه أمسكها ومنعها من ذلك، ثم انحنى وأخذ بيد الطفل - ونظر الولد إليه بدون خوف، وتجعدت جبهته الطرية كأنه يقلد رؤية أبيه.

وأخذ عبد الرحمن يضحك والفرح يعم قلبه فلقد رأي نفسه بشكل أصغر؟ في وجه الطفل: العينان والوجه والأنف والفم، كان طابع الطفل من طراز بني أمية، ولد ابن لسلالة امية- حتى لو أن عبد الرحمن مات في الصحراء فنسله كان سيبقى حياً. كان هذا وعد قد أنجزه وعداً لعائلته المغدورة.

وأخذ الانفعال يشد حلقه، وظهرت الدموع في عينيه. وأمام كل الخدم والجنود، والآخرين في وسط الساحة، حمل عبد الرحمن ابنه وضمه إلى صدره، وضم الحوراء كذلك بين ذراعيه.

وظهرت الدموع في عيني الحوراء دموع الفرح لحنانه وقالت: «مولاي كنت خائفة وأنا واقفة هنا انتظرك، لقد فرق بيننا الزمان مدة طويلة وباعدت بيننا المسافات، لكن كل ذلك كأن شيئاً لم يتغير بيننا. وحلاوة اللقاء ظهرت لها فوق ما يصدق.

فأجابها عبد الرحمن: «لم يتغير أي شيء ففي سفري كنت دائماً قريباً من الله لدرجة أنه لا يمكنني أن أنسى الأشياء التي عاهدت الله علي أن لا أنساها، وتعلمت إن اعرف حاجات روحي، ففي أوقات يأسي كان الشوق اليك وإلى ابني هو الذي يرجع إلى الأمل. كيف يمكنني أن أتغير؟».

وبدد هذا الكلام كل ما تبقى في نفس الحوراء من تخوفات، فهذا نفس عبد الرحمن الذي عرفها في الصحراء وأحبها وظهر لها كأنها لم تفارقه الا البارحة.

ولم يستطع عبد الرحمن أن ينسى وجه زوجته وطفله، فلقد شعر بالغبطة تملأ قلبه أكثر من اليوم الذي ملك فيه الأندلس.

وأشار إلى روض بالتقدم إليه وقال له: « هذه معجزة أكبر من أي معجزة حصلت لي قبل هذا».

فأجاب روض: «ان شيخ هو الذي جعلها ممكنة أيها الأمير، إنه هو الذي بعثنا من مدينته مصحبة حرس عبر المغرب إلى البحر حيث ركبنا في السفينة».

فأحنى عبد الرحمن رأسه باحترام وقال: «أبي الشيخ، انني أعيش تحت ظل جنانه!».

وتابع روض قائلاً: «انه الذي بعث برسالة مع التاجر لكي نأتي لك بزوجتك وطفلك

في الوقت الذي كنت تأمل أنت أن تسمع عنهم خبراً فقط، وقررت أن آتي أنا كذلك مع بعض قومي من جهة لأن الطريق طويل.

ومن جهة شعورنا بالشوق إلى السفر البعيد قلت لك يا أمير إننا سنلتقي يوماً.

ولم يكن لعبد الرحمن إلا أن ينظر والفرح يملأ قلبه إلى الحوراء وإلى ابنه.

وأشار روض إلى بهائمه وسط الساحة وقال: «واتيت لك بهدية من شيخ زناتة لقد كلفني أن أقول لك : «ازرع جذورك عميقة في أرض الأندلس كما ستزرع جذور هذه النخيلات التي بعثتها لك».

وكان في سلات محمولة على ظهر فرس أحواض صغيرة مزروع فيها نخيلات يانعة وكانت تلك النخيلات فروعاً قوية، من تلك النخيلات التي يزرعها الرجال بكل اعتناء في الواحات ومنها ستنبت نخلات عظيمة تحمل يوماً ما التمر.

وقال عبد الرحمن: «من أحب الله أحب خلقه ومن أحب خلقه أحب النخلة التي خلقها، سازرع هذه النخيلات بيدي».

ثم تذكر شيئاً أراد ان يشاركه فيه الحوراء وروض في هذه الساعة السارة فقال لهما: « تعالوا لأريكما شيئاً».

وأعطى الأوامر للخدم وأصحاب الخيل ان يعتنوا بالمسافرين ثم قال لروض: «ليرتح رفقاؤك، ويتنشطوا من تعب السف»ر.

وحمل ابنه ثم قاد الحوراء وروض عبر الباب إلى بستان كبير وراء الساحة فخروجوا إلى البقاع الخضراء التي تطل على الوادي الكبير تحت أسوار القصر وظهرت هناك حقول غنية مزروعة على ضفتي النهر وبساتين أشجار الفاكهة تقتطع الأرض وكان في مرج محاط بسياج عال عدة جياد ترعى بين الاشجار.

فوقف عبد الرحمن وراء السياج وصاح : «عزيزة»! .

وإذا بفرس الطرف الأسفل من المرج ترفع رأسها الأبيض وتصهل وبجانبها مهر عمره ستة أشهر رفع رأسه كذلك، وصهلت الفرس مرة أخرى ثم صعدت المرج مسرعة وذيلها بارز كأنه ريشة ورائها وتبعها قريباً منها مهرها مجهداً نفسه ليلتحق بمشية أمه.

وذعر ابن عبد الرحمن وهو بين ذراعيه وأراد أن يذهب عند أمه عندما رأى الفرس وابنها ذوالعينين الواسعتين قادمين نحوهما فأعطاه عبد الرحمن للحوراء وعانقها بذراع واحد.

وصاحت الحوراء ببهجة: «هذه السفانة! أسافرت معك الطرق كلها ؟» فأجاب عبد الرحمن مؤكداً: «نعم لقد حملتني عبر الطرق كلها إلى أرض زناتة ولو كنت اركب فرساً اقل جودة لربح رجال الخليفة العشرين ألف قطعة ذهبية».

فصاح روض مهللاً وهو ينظر إلى الفرس مرة اخرى وقال: «هذه فرس شيخ والي أمير الأندلس.»

ورفعت السفانة رأسها فوق السياج نحو وجه عبد الرحمن وأخذت تمس بأنفها بلطف وجه الطفل وخد الحوراء واذا بأنفها يرفع غطاء الحوراء فيكشف عن شعرها الأسود اللامع فضحكت الحوراء عندما رأت الفرس اللطيفة تلاعبها هكذا وابتسم عبد الرحمن فرحاً بوصولها من جديد بعد فراق طويل.

وتقدم المهر من السياج طالباً حقه في الاهتمام فربت روض على جيده وأخذ يدرسه ثم قال الغجري: «بارك الله فيك يا أمير وقد ولدت لك الفرس جواداً في نفس كمالها.».

فاستكبر عبد الرحمن ذلك بلطف وقالك: «باركني الله مرات انظر بماذا رزقني هذا اليوم جوهرة الخيل ومهرها نخيل الصحراء يد صديقي ووجه زوجتي وابني. ولقائي بهما بعد فراق، فعلاً إن خليفة دمشق فقير لقد أتيت بكل كنوز أرضه إلى هنا في الأندلس الآن!».

***

تم بحمد الله وعونه

***

المحتويات

تابع المحتويات

اللّٰہ غالب